الرواية الحائزة على جائزة «بوكر» لعام 2008

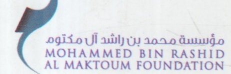
النمر الأبيض

THE WHITE TIGER.

رواية

ارافيند أديغا

ARAVIND ADIGA





رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيدا عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/ مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

النمر الأبيض

THE WHITE TIGER

الرواية الحائزة على جائزة «بوكر» لعام 2008

آرافيند أديغا

ARAVIND ADIGA

ترجمة

سهيل نجم

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The White Tiger
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Atlantic Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9948-446-07-1



tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم وثقافة للنشر غير مسؤولتين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المؤسسة والدار.

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة المترجم

تعد هذه الرواية، التي نال عليها الكاتب جائزة بوكر عام 2008، صرخة بملء الفم ضد الظلم والجور واللاعدالة التي يعانيها الإنسان، في الهند خصوصاً، من الاستبداد والفروقات الطبقية والزيف. يتعامل هذا الروائي الهندي الشاب - 33 عاماً - مع واقعه تعامل الطبيب الجراح مع مريضه منخور العظام، وهو لا يتستر على شيء أو يتوارى عنه خشية ما يسمى الحفاظ على الروح الوطنية الزائفة التي يحاول التوتاليتاريون زرعها في نفوس الناس بأسماء شتى. ولا يكتفي الروائي بالكشف عن التناقضات الحادة في الواقع الذي يتقصى تفاصيله هنا وهناك على نحو صادم، بل يندفع بشجاعة نادرة إلى المواجهة السافرة دافعاً بطله لارتكاب جريمة القتل العمد والسرقة ثم يندفع إلى ما هو أبعد في محاولة إقناعنا بأن جريمته هذه مبررة، ويندفع أكثر حين ينجّيه من العقاب شخصياً، جاعلاً عائلته تدفع الثمن بدلاً منه، لينتقد من خلال ذلك، بحدة لافتة، ظروف الفوضى الاجتماعية والسياسية التي عليها حال البلاد.

لا يصوّر الكاتب شخصياته لتكون افتراضية طافية وهائمة بل تجدها حيوية يستلها من الواقع الهندي اليوم بكل تناقضاته الصارخة، حيث إن هناك 300 مليون هندي غير متأكدين إن كانوا سيتناولون وجبة غذائهم التالية أم لا، وحيث إن هناك 400 مليون منهم لا يتعدى دخلهم اليومي الدولار الواحد، وحيث إن ثلاثة أرباع الهند تعيش في ما يطلق عليه أديغا جانب الظلام وهي الهند المسحوقة الجائعة والمدماة التي تعيش على هامش الحياة، على الأرصفة وتحت الجسور، وحيث يتفشى العوز والمرض وما لا يليق بالبشر، بينما يعيش الربع الآخر في جانب النور حيث الثراء الفاحش في القصور وفنادق الخمس نجوم.

إن الكاتب، بدافع من وعيه الإنسـاني الواضح، لا يفرق بين الهنود بناءً علـى اختلافـات فـي أديانهـم أو طوائفهم، هذه الاختلافات التي تنشـغل بها الدوائر الإعلامية كثيراً، فهو يراعي هذه الاختلافات ولا يجد ضيراً فيهـا، ولكنـه يجـد الضيـر فـي الاختلاف الصارخ الذي لا بد من الإقرار بوجـوده المتوحـش بيـن هنـد ذوي البطـون الكبيرة، وهنـد ذوي البطون الضامرة الذين يكاد الواحد منهم لا يحصل على ما يسد رمقه أو يعالج جروحه النازفة.

لقد استطاع الروائي الغوص في واقعه لما تهيأ له من قدرات ذاتية في السرد، وما توفر له من تقنية في التعامل الموضوعي مع الواقع من خلال مهنته في التحقيق الصحفي التي تدرب عليها لمدة طويلة، ونشر تحقيقاته في صحف عالمية عديدة.

مـن الناحيـة الفنيـة تـكاد هـذه الروايـة تكـون قريبـة، مـن الروايـة الطبيعية لدى زولا، من خلال موضوعيتها الصارمة في أغلب الأحيان، وتصديهـا لتفاصيـل فـي الحياة تختزلها الأنماط الفنية السـردية الأخرى، ولكنهـا لا تتأطـر فـي هـذا الاتجـاه فحسـب، بل تغتـرف من الاتجاهات الأخرى في انتقاداتها اللاذعة والحارقة وتوظيف الجانب الساخر بمرارة عاليـة، وتنطـوي كذلـك، فـي جوانب أخرى، على توظيف جميل للخيال السحري.

إن بطل أديغا، بالرام حلوي، الذي جعله الروائي من دون ملامح مميزة كي يمثل جل فقراء الشعب الهندي، وهو الفتى الذي علّم نفسه بنفسه، واصطلح على نفسه وعلى مَن هم على شاكلته - مصطلح نصف مخبـوز كنايـة عـن نصـف المتعلّـم الطامـح إلى العبور مـن عالم الظلام إلى عالم النور ليحقق إنسـانيته، ولا يكتفي بالثورة على البنية السياسـية والاجتماعيـة فـي بـلاده وحسـب، ولكنـه يثـور أيضـاً على البنيـة العقلية الميتافيزيقية المتخلفة التي يرزح تحتها مئات الملايين من أفراد الشعب

الهنـدي بمعتقداتهـم وأديانهـم الغريبـة، خصوصـاً فـي ما يتعلق بمراسـم الـزواج وحـرق الموتـى التـي تكـرس معاناة الشـعب الهندي من دون أن تدفعه للتغيير أو محاولة تجاوز المحن التي يعيشها. إن أديغا يلعب في النهاية لعبة كبيرة، على حدّ قول آدم لايفلي في مراجعته للرواية في جريدة صنـداي تايمـز، فـي كشـفه للمؤامـرة على المواطن الهندي البسـيط التي ينسجها الملاكون وأصحاب الثروات الطائلة التي كوّنوها عبر استيلائهم علـى الثـروات الطبيعيـة للبلاد، واسـتثمارها لأنفسـهم حصـراً، بالتعاون مـع السـلطات الحكوميـة الفاسـدة مـن جهـة، ومع من يسـمون أنفسـهم بالاشـتراكيين الذيـن يرفعـون، كذبـاً، الشـعارات الطنانة بزعم الدفاع عن حقوق الشعب والمواطن الهندي الحر من جهة أخرى.

إنها بحق رواية غضب من الظلم، ودعوة تحريضية ساخنة وصادقة من أجل التغيير، ولا يستطيع الفن والأدب أن يفعلا أكثر من ذلك بعد أن يوفرا لنا المتعة في تلقيهما.

سهيل نجم

آذار/ 2009

إلى رامين بحراني

الليلة الأولى

إلى مكتب:

صاحب السعادة رئيس الوزراء وين جياباو،
مكتب رئيس الوزراء،
بكين،
عاصمة بلاد الصين المحبة للحرية

من مكتب:

النمر الأبيض
مفكر
ورجل أعمال
يعيش في مركز العالم للتكنولوجيا والتعاقدات الخارجية
مدينة الإلكترونيات المرحلة الأولى (مباشرة قرب شارع هوسر الرئيس)
بنغلور، الهند.

السيد رئيس الوزراء،

سيدي.

لا أنا ولا أنت نجيد الحديث بالإنكليزية، ولكن ثمة عبارات لا يمكن أن تقال إلا بهذه اللغة.

كانت السيدة بنكي، مستخدمتي في عملي السابق، وزوجة السيد الراحل آشوك، قد علمتني واحدة من هذه العبارات؛ إذ عند الساعة 11:32 ليلاً من هذا اليوم، أي قبل عشر دقائق من الآن، حين أعلنت المذيعة من راديو عموم الهند، "أن رئيس الوزراء الصيني جياباو سيزور

بنغلور في الأسبوع المقبل"، قلت تلك العبارة في الحال.

في الواقع، أقول هذه العبارة في كل مرة يزور رجال كبار مثلك بلادنا. لا يعني هذا أنني أحمل أي شيء ضد الرجال الكبار. ووفقاً لقناعتي، يا سيدي، أعدّ نفسي من صنفكم. لكنني كلما رأيت رئيس وزرائنا وأصدقاءه المقربين يتوجهون إلى المطار بسيارات سوداء، ويظهرون ليؤدوا لك التحية الهندية أمام كاميرا التلفاز، وليحدّثوك عن أخلاقية الهند الرفيعة وسموها، يتحتم عليّ أن أقول لك تلك العبارة بالإنكليزية.

ها أنت ستزورنا هذا الأسبوع، يا صاحب السعادة، أليس كذلك؟ وراديو عموم الهند يُعتمد عليه في هذه المسائل.

كانت تلك مزحة يا سيدي.

ها!

لهذا أريد أن أسألك مباشرة إن كنت حقاً ستأتي إلى بنغلور. لأنك إن قمت بذلك، فإن لدي شيئاً ما أود أن أقوله لك. فكما تفهم قالت السيدة المذيعة في الراديو، "إن السيد جياباو في مهمة: يريد أن يعرف حقيقة بنغلور".

لقد تجمد دمي. إن كان هناك أحد يعرف حقيقة بنغلور فهو أنا.

بعد ذلك أعلنت المذيعة: "إن السيد جياباو يريد مقابلة بعض رجال الأعمال الهنود، ويسمع قصة نجاحهم من شفاههم".

لقد أوضحت القليل. من الواضح أنكم الصينيين متقدمون علينا بكل المقاييس، باستثناء أنه ليس لديكم رجال أعمال. ومع أن بلادنا ليس لديها ماء للشرب، ولا كهرباء، ولا نظام للصرف الصحي، ولا نقل عام، ولا إحساس بالصحة العامة، ولا نظام، ولا مجاملة، ولا دقة في المواعيد، ولكن من المؤكد أن لدينا رجال أعمال، بل الآلاف والآلاف منهم، خصوصاً في حقل التكنولوجيا. ورجال الأعمال هؤلاء - أقصد نحن رجال الأعمال - نظموا كل هذه الشركات لعقود التعهيد

الخارجي التي تدير أميركا فعلياً الآن.

أنتـم تأملـون أن تجعلـوا مـن بعـض الصينيين رجـال أعمال، وهذا هـو الغـرض مـن زيارتكـم. وهذا ما يشـعرني بالراحـة. لكن ما يصدمني أنه حفاظاً على البروتوكولات الدولية سيسـتقبلكم رئيس وزرائنا ووزير خارجيتنا في المطار بأكاليل الغار، وتماثيل صغيرة من الصندل لغاندي، وكتيِّب حافل بالمعلومات عن الهند في الماضي والحاضر والمستقبل.

عنـد ذاك، سـيدي، يتحتـم علـيّ أن أقـول تلك العبـارة بالإنكليزية. وبصوت عالٍ.

كان ذلك عند الساعة 11:37 ليلاً. قبل خمس دقائق مضت.

أنا لا أسبّ ولا ألعن. أنا رجل عمليّ وأحب التغيير. ولهذا قررت عند ذاك بالضبط أن أبدأ بكتابة رسالة إليك.

إسمح لي في البداية أن أُعبّر لك عن إعجابي بالصين القديمة.

لقـد قـرأت عـن تاريخكـم فـي كتـاب حكايـات مثيـرة عن الشـرق الغريب وجدته على الرصيف في الأيام الخوالي عندما كنت أحاول أن أتنور من خلال الذهاب إلى سـوق الأحد للكتب المسـتعملة في دلهي القديمـة. كان جـلّ الكتـاب يـدور حول حكايـات القراصنة والذهب في هونغ كونغ، ولكنه كان يحتوي على بعض المعلومات الأساسية المفيدة أيضاً: ومفادها أنكم الصينيين، عشاق للحرية والاستقلالية الفردية. حاول البريطانيـون اسـتعبادكم ولكنكـم لـم تمكنوهـم من تحقيـق مرادهم. وأنا أحترم ذلك، سيدي الرئيس.

لقد كنت ذات مرة خادماً.

ثـلاث دول فقـط لـم تسـمح للأجانـب بـأن يتحكمـوا بهـا: الصين وأفغانستان وأثيوبيا. هذه هي الدول التي أحترمها.

من خلال تقديري لحب الحرية الذي لمسته لدى الصينيين وكذلك الاعتقاد الشديد بأن مستقبل العالم سيكون بيد الإنسان الأصفر والإنسان

الأسـمر لأن سـيدنا الحالي، الإنسـان الأبيض، يبدد نفسـه في اسـتهلاك الهاتـف الخلـوي والمخـدرات، أعـرض عليكم، مجانـاً، الحقيقة الكامنة خلف بنغلور.

عبر رواية قصة حياتي.

عندمـا تأتـي إلـى بنغلـور، وتقف عند إشـارة المرور سـيهرع بعض الصبية إلى سيارتك، وسيدقون على شباكك حاملين نسخة غير مشروعة من كتاب تجارة أميركي، مغلف بعناية بورق السلوفان وعليه العنوان:

أسرار النجاح التجاري

أو

كيف تصبح رجل أعمال في سبعة أيام!

لا تبـذِّر نقـودك علـى تلـك الكتـب الأميركيـة. إنها كتب قديمة. أنا أمثل الغد.

قد أكون غير حائز على التعليم الرسمي، وأقولها بفظاظة إنني لم أُنهِ دراستي في المدرسة، لكنني قرأت كل الكتب التي تتعلق بذلك، وأحفظ عـن ظهـر قلـب أعمـال أعظـم أربعة شـعراء في كل العصـور؛ الرومي(*) وإقبال(**) وميرزا غالب،(***) ورابع نسيت اسمه. أنا رجل أعمال ثقفت نفسي بنفسي.

وهذا أفضل ما يمكن أن يكون، ثق بي.

(*) جـلال الديـن الرومـي: هـو محمـد بـن محمـد بـن حسـين بهـاء الدين بلخي، أديب وفقيه ومنظّر صوفي عرف بالرومي لأنه قضى معظم حياته في منطقة تسمّى الروم في تركيا الحالية.

(**) محمد إقبال(1877–1938) مفكر وشاعر ومحام من البنجاب، نادى بضرورة انفصال المسـلمين عن الهندوس، في دولة اقترح لها اسـم باكسـتان. ألّف عشرين كتاباً في الاقتصاد والسياسة والفلسفة والتربية، واشتهر بشعره البديع، وقد غنت له أم كلثوم قصيدة «حديث» الروح.

(***) ميـرزا أسـد الـه غالـب(1797–1869) مؤلـف اشـتهر بالشـعر والنثر باللغـة الأوردية، وهناك متحف يحمل اسمه في الهند.

عندما تسمع كيف أتيت إلى بنغلور، وأضحيت واحداً من أنجح رجال الأعمال (بالرغم من أنني ربما أكون أقلهم شهرة) ستعرف كل شيء يمكن معرفته عن كيفية ولادة عمل رجل الأعمال، وكيف ينمو ويتطور في قرن الإنسان الواحد والعشرين هذا.

بدقة أكثر، قرن الإنسان الأصفر والأسمر.

أنت وأنا.

سيد جياباو، تجاوزت الساعة الآن منتصف الليل. إنه وقت مناسب لي للحديث.

إنني أصحو طوال الليل يا صاحب السعادة. ولا أحد معي في مكتبي هذا الذي تبلغ مساحته 150 متراً مربعاً. لا أحد سواي وهذه الثريا التي فوق رأسي، بالرغم من أن هذه الثريا لها خصوصيتها. إنها شيء كبير، مليء بالقطع الزجاجية المصنوعة على شكل ماسات صغيرة، كما هي الثريات التي تعرض عادة في أفلام السبعينيات. بالرغم من أن الجو بارد ليلاً في بنغلور، فقد وضعت مروحة صغيرة ذات خمس رِيَشٍ فوق الثريا مباشرة. وهي عندما تدور تبعثر ضوء الثريا في ثنايا الغرفة. كما يفعل الضياء المترامش في أفضل صالات الديسكو في بنغلور.

هذا هو الفضاء الوحيد في بنغلور بمساحة 150 متراً مربعاً بثريته الخاصة! ولكنها تبقى وكأنها فتحة في السقف، وأنا أجلس تحتها طوال الليل.

لعنة رجل الأعمال أنه يتوجب عليه مراقبة عمله طوال الوقت.

سأذهب الآن لأُشغّل المروحة الصغيرة كي يتبعثر الضوء في الغرفة.

أنا يا سيدي مسترخٍ. وآمل أن تكون كذلك.

دعنا نبدأ.

قبل أن نبدأ يا سيدي، فإن العبارة الإنكليزية التي تعلمتها من سيدتي

السابقة، السيدة بنكي الزوجة السابقة للسيد الراحل آشوك هي: "يا لهذه المزحة السخيفة - What a fucking joke".

ها قد أنجزت ذلك.

أعدت فتح عينيّ.

11:52 ليلاً؛ وهو الوقت الفعلي للبدء.

تحذير قانوني - كما يكتب ذلك على علب السجائر- قبل أن نبدأ.

في أحد الأيام بينما كنت أقود سيارة الهوندا سيتي لسيديّ السابقين؛ السيد آشوك والسيدة بنكي، وضع السيد آشوك يده على كتفي وقال: "توقف جانباً". أطعت الأمر، بينما مال هو إليّ كثيراً حتى شممت رائحة العطر الذي يتعطّر به بعد الحلاقة - كانت رائحته زكية، تشبه رائحة الفاكهة في ذلك اليوم - وقال بكل أدب كما هو حاله دائماً: "لدي بعض الأسئلة أود طرحها عليك يا بالرام، فهل توافق؟".

فقلت: "تفضل، سيدي".

فسألني السيد آشوك: "كم كوكباً في السماء؟".

أجبته بأفضل ما أمكنني.

- "من هو أول رئيس وزراء للهند يا بالرام؟".

بعد ذلك: "ما الفرق بين الهندوسي والمسلم يا بالرام؟".

ثم: "ما اسم قارتنا؟".

عاد السيد آشوك إلى جلسته، وسأل السيدة بنكي: "هل سمعت إجاباته؟".

فتساءلت هي: "هل كان يمزح؟".

وراح نبض قلبي يتسارع كعادته عندما تقول شيئاً ما.

- "كلا. هذه هي الإجابات التي يعتقد أنها صحيحة فعلاً".

قهقهت عندما سمعت ذلك. أما هو، فقد كان جاداً كما تبين لي من وجهه الذي رأيته في المرآة.

- "المسألة وما فيها أنه ربما درس في المدرسة لسنتين أو ثلاث... يمكنه القراءة والكتابة، ولكنه لا يستوعب ما يقرأه. إنه نصف مخبوز. والبلاد مليئة بأناس مثله. سأخبرك بذلك. نحن نثق بديمقراطيتنا البرلمانية العتيدة" - وأشار إليّ - "ونعتمد على شخصيات مثل هؤلاء. تلك هي كل مأساة هذه البلاد".

تنهد.

- "حسناً يا بالرام، قد السيارة الآن".

في تلك الليلة، كنت مضطجعاً على فراشي، داخل الناموسية، أفكر في كلماته. كان محقاً يا سيدي؛ لم تعجبني الطريقة التي تحدث بها بشأني، ولكنه كان محقاً.

"السيرة الذاتية لهندي نصف مخبوز"، هذا ما يتوجب عليّ أن أسمي به قصة حياتي.

أنا وآلاف الآخرين مثلي في هذا البلد نصف مخبوزين، لأنه لم يسمح لنا بأن نكمل تعليمنا. افتح جماجمنا، وتفحصها تحت ضوء مركّز، ستجد متحفاً غريباً من الأفكار: ستجد جملاً من التاريخ أو الرياضيات يمكن تذكّرها من الكتب المدرسية (دعني أؤكد لك أنه ليس من فتى يتذكر دراسته مثل الذي انتُزع من المدرسة)، وجملاً حول السياسة قُرأت من جريدة عند انتظار شخص ما للحضور إلى مكتب ما، ومثلثات وأهرامات يشاهدها المرء على صفحات الكتب الهندسية القديمة التي يستعملها أي مقهى في هذه البلاد للف الشطائر، ومقاطعَ من نشرات أخبار راديو عموم الهند، والأشياء التي تسقط إلى ذهنك كما تسقط الزواحف الصغيرة من السقف. قبل نصف ساعة من النوم، كل تلك الأفكار نصف المتشكلة ونصف المهضومة ونصف المصححة تختلط مع أفكارٍ نصف مطبوخة في رأسك، وأظن أن هذه الأفكار نصف المتشكلة تتبع بعضها بعضاً لتصنع أفكاراً أخرى نصف متشكلة، وهو الأمر الذي تتصرف وفقه وتعيش معه.

إن قصة نشأتي هي قصة شخص تربى نصف مخبوز. ولكن، انتبه سيدي الرئيس! إن الأشخاص مكتملي التشكّل، بعد اثنتي عشرة سنة من الدراسة في المدرسة وثلاث سنوات في الجامعة، يلبسون البذلات الأنيقة، ويعملون في الشركات، ويخضعون بقية حياتهم لتلقي الأوامر من الآخرين.

إن رجال الأعمال جبلوا من طين نصف مخبوز.

* * *

كي أعطيك المعلومات الأساسية عني - الأصل والطول والوزن والسلوكيات الشاذة المعروفة وما إلى ذلك - فلا شيء هناك أكثر من ذلك الإعلان الذي وضعته الشرطة عني.

وأعترف بأن الحديث عن نفسي بوصف قصة نجاحي هي الأقل شهرة في بنغلور، أمر ليس صحيحاً تماماً. قبل ثلاث سنوات، عندما أصبحت، باختصار، شخصاً ذا أهمية وطنية عبر مهنة رجال الأعمال، وُضع إعلان عني يحمل صورتي على كل مركز بريد وكل محطات سكك القطار ومراكز الشرطة في البلاد. وشاهد صورتي واسمي الكثير من الناس منذ ذلك الوقت. لا أحتفظ بنسخة أصلية من ذلك الإعلان، ولكنني حمّلت نسخة عنه في جهاز الماكنتوش المحمول الذي أملكه - كنت قد اشتريته عبر الإنترنت من متجر في سنغافورة، وهو في الحقيقة يعمل مثل الحلم - ولو أنك تنتظر للحظة، فسأقوم بفتح الجهاز، وسحب ذلك الإعلان المنسوخ، لأقرأ لك منه مباشرة...

وهناك كلمة عن الإعلان الأصلي. لقد وجدته في محطة القطار في حيدر أباد، في الفترة التي كنت فيها مسافراً من دون أمتعة - باستثناء حقيبة حمراء جدّ ثقيلة - وأنا في طريقي من دلهي إلى بنغلور. كان لدي الأصل هنا في هذا المكان، في درج هذا المكتب لمدة سنة كاملة. وذات يوم كان عامل التنظيف ينظف أغراضي وكاد أن يجد

الإعلان. لست رجلاً عاطفياً، سيد جياباو. رجال الأعمال لا يمكنهم أن يكونوا هكذا. لذلك رميت الإعلان - ولكن قبل ذلك، أتيت بمن يعلمني كيفية الاستنساخ بالجهاز - وأنت تعرف أننا نحن الهنود نتقبل التكنولوجيا كما يتقبل البط الماء. واستغرق الأمر ساعة أو ساعتين. أنا رجل عملي سيدي، وها هو على الشاشة أمامي:

مطلوب المساعدة في البحث عن رجل مفقود

ليكن معلوماً للجميع أن الرجل المعروضة صورته هنا واسمه بالرام حلوي والمعروف باسم مونا ابن فكرام حلوي ساحب العربة، مطلوب للاستجواب. العمر: بين 25 و35 سنة. لون البشرة: ضارب إلى السواد. الوجه: بيضوي. الطول: خمس أقدام وأربعة إنشات تقريباً. البنية: نحيف وضئيل.

في الحقيقة لم أجد تلك الأوصاف دقيقة سيدي. فالمعلومة المتعلقة «بالوجه الضارب إلى السواد» ما زالت صحيحة - بالرغم من أنني أكاد أنوي تجريب أحد تلك الكريمات المبيِّضة للبشرة، والتي تجعل الهنود يبدون بيضاً كالغربيين - ولكن البقية، واحسرتاه، لا قيمة لها. فالحياة في بنغلور ممتازة؛ طعام غني، وجعة ونوادٍ ليلية، فما عساي أن أقول؟ «نحيف» و«ضئيل» - ها! فهيأتي في حال أفضل هذه الأيام! سمين وذو كرش، هذا هو الوصف الأكثر دقة الآن.

لكن دعنا نستمر، فليس لدينا الليل بطوله. لا بد لي من أن أوضح هذا في الحال.

بالرام حلوي المعروف بمونا

إعلم أن المدرس، في يومي الأول في المدرسة، نظّمَنا في صف واحد، وجلس على كرسيه ليدون أسماءنا في سجله. وحين أخبرته باسمي فغر فاه:

- "مونا؟ ليس هذا هو اسمك الحقيقي".

كان محقاً إذ أن ذلك يعني ولد.

قلت له: "هذا هو كل ما عندي يا أستاذ".

هذا هو الأمر فعلاً. فلم يكن لي اسم.

- "ألم تسمّك أمك؟".

- "كانت مريضة جداً. كانت راقدة في الفراش وتتقيأ دماً. لم يكن لديها الوقت لتسمّيني".

- "وأبوك؟".

- "إنه ساحب عربة يا أستاذ. ولا يملك الوقت ليسمّيني".

- "أليس لك جدة؟ عمات؟ أعمام؟".

- "هم أيضاً ليس لديهم الوقت".

التفت المدرس جانباً وبصق؛ وانبثق رذاذ أحمر على أرض غرفة الصف، ثمّ لعق شفتيه.

- "حسناً، بات الأمر يتعلق بي، أليس كذلك؟". ومرر يده على شعره وقال: "سنسميك... رام. انتظر، أليس لدينا رام في الصف؟ لا أريد أي فوضى. دعه يكون بالرام. أنت تعرف من كان بالرام، أليس كَذلك؟".

- "كلا يا أستاذ".

- "كان الصديق الحميم لكريشنا(*). هل تعرف ما هو اسمي؟".

- "كلا".

ضحك وقال: "كريشنا".

عدت في ذلك اليوم إلى البيت، وأخبرت أبي أن المدرس قد منحني اسماً جديداً. فهز كتفيه وقال: "إذا كان هذا ما يريده، فسنناديك به".

أصبحت بالرام منذ ذلك الوقت. لكنني في ما بعد حصلت بالطبع على اسم ثالث. وسنصل إلى ذلك لاحقاً.

(*) كريشنا: هو إله معبود في عدة طوائف من الهندوسية.

أي مكان هذا الذي ينسى فيه الناس أن يسمّوا أبنائهم؟ لنعُد إلى الإعلان:

ينحدر المشتبه به من قرية لاكسمانغار في. . .

مثل كل القصص البنغلورية الممتعة، تبدأ قصتي بعيداً عن بنغلور. أنت ترى أنني في النور الآن، مع أنني ولدت ونشأت في الظلام.

إنني لا أتحدث عن ذلك الوقت من اليوم، سيدي الرئيس!

وإنما أتحدث عن مكان في الهند، يمثل على الأقل ثلث البلاد؛ مكان خصب تنتشر فيه حقول الأرز والقمح، وهنالك برك وسط تلك الحقول حافلة بأزهار اللوتس وزنابق الماء، وهنالك الجواميس التي تخوض في تلك البرك وهي تجتر أزهار اللوتس والزنبق. أولئك الذين يعيشون في ذلك المكان يسمونه الظلام. أرجو أن تتفهم، يا صاحب السعادة، أن الهند تمثل بلدين في بلد واحد: هند النور، وهند الظلام. المحيط يجلب النور لبلادي. كل مكان في خارطة الهند قرب المحيط يعيش في رخاء. لكن النهر يجلب الظلام للهند؛ النهر الأسود.

أي نهر أسود أتحدث عنه؛ أي نهر للموت، ذلك الذي تحفل ضفّتاه بالطين الغني الداكن واللزج الذي تتشبث قبضته بكل شيء يزرع فيه، لتعصره وتخنقه وتحدّ من نموه؟

لماذا أتحدث عن الأم غانغا، ابنة فيداس، نهر النور، حامينا كلنا، محطم سلسلة الولادة وتكرار الولادة. في كل مكان يجري فيه هذا النهر فإن تلك المنطقة تصبح ظلاماً.

وإحدى الحقائق المتعلقة بالهند أنك تستطيع أخذ كل شيء تقريباً تسمعه من رئيس الوزراء بشأن البلد، وتقلبه بالعكس تماماً، وعند ذاك ستعرف حقيقة ذلك الشيء. وها أنت قد سمعت أن الغانغا يسمى نهر الانعتاق، ويأتي المئات من السياح الأميركيين كل عام ليصوروا الشحاد المُعظم العاري في هاردوور أو بيناراس، ومن المؤكد أن رئيس وزرائنا

سيصف النهر بتلك الطريقة لكم، ويحثكم على أن تغطسوا فيه.

كلا! سيد جياباو، أحذرك من الغطس في الغانغا، ما لم ترد أن يكون فمك مملوءاً بالبراز البشري والتبن والأعضاء البشرية المتفسخة، وروث الجواميس، وسبعة أنواع مختلفة من الأحماض الصناعية.

أنا أعرف كل شيء عن الغانغا، يا سيدي، عندما كنت في السادسة أو السابعة أو الثامنة من عمري (لا أحد في القرية يعرف عمره بالتحديد)، ذهبت إلى أقدس مكان على ضفّتي الغانغا؛ مدينة بيناراس. أذكر أنني هبطت على درجات طريق ينجدر من تل في مدينة بيناراس، حين كنت في آخر موكب تشييع جثمان أمي إلى نهر الغانغا.

كانت جدتي قَسَم على رأس الموكب. اتلك لماكرة العجوز قَسَم! كانت لديها عادة حكّ ساعديها بقوة عندما تشعر بالفرح، وكأنهما قطعة زنجبيل كانت تبرشها لتزيل تجاعيدها. كانت درداء، لكنّ ذلك جعل من تكشيرتها أكثر مكراً. كانت تكشر بطريقتها الخاصة لتفرض سيطرتها على المنزل كله؛ ولذلك كان الجميع يخشونها من الأبناء إلى زوجاتهم.

كان أبي وأخي كيشان يقفان خلفها كي يحملا مقدمة السرير القصبي الذي يحمل الجثمان، وأعمامي مونو، وجيرام، وديفيرام، وأوميش في الخلف يحملون الطرف الآخر. كان جثمان أمي ملفوفاً من الرأس حتى القدمين بقماش من الحرير الزعفراني المغطى بأكاليل الورد والياسمين. لا أعتقد أنه كان لديها مثل هذا الرداء الجميل في حياتها. (كان موتها مهيباً لدرجة أنني عرفت، فجأة، أن حياتها كانت تعسة بالتأكيد. كانت عائلتي مذنبة بشيء ما). عماتي؛ رابري وشاليني وماليني ولوتو وجيديفي وروشي، كن يتلفتن ويصفقن لي كي أقترب منهن. أذكر أنني كنت أطوّح بيدي وأغني «اسم شيفا هو الحقيقة»!

سرنا من معبد إلى معبد، ثم سرنا في طابور طويل بين معبد أحمر

مكرس لهانومان(*) ونادٍ رياضي مفتوح حيث رأينا ثلاثة رجال يتدربون على بناء الأجسام وهم يرفعون أثقالاً صدئة فوق رؤوسهم. شممت رائحة النهر قبل أن أراه: رائحة زنخة للحم بشري متفسخ تأتي من الجهة اليمنى. رفعت صوتي بالغناء: "... الحقيقة الوحيدة!".

بعدها سمعنا ضوضاء هائلة بفعل تكسُّر خشبٍ يحترق. ثمة منصة خشبية بنيت على حافة المدرجات، فوق الماء تماماً؛ كُدست أعواد على المنصة، وكان هناك رجال يحملون الفؤوس ليقطعوا الخشب. نُظمت قطع الخشب على شكل محارق للجنازات على الدرجات التي تنزل في الماء؛ كانت أربعة جثامين تحترق على الدرجات عندما وصلنا إلى هناك. فانتظرنا دورنا.

على بعد مسافة ما، التمعت في ضوء الشمس جزيرة من الرمال البيضاء، وكانت هناك قوارب مليئة بالناس تتجه نحو تلك الجزيرة. تساءلت إن كانت روح أمي قد طارت إلى هناك؛ إلى ذلك المكان المشع من النهر.

ذكرت لك أن جثمان أمي قد لُفّ بقماش حريري. غطوا بهذا القماش وجهها؛ ثم وضعوا على جثمانها قطعاً من الخشب على قدر ما يمكننا دفعه منِ مال. بعد ذلك أضرم الكاهن النار في جسد أمي.

قالت قَسَم وهي تضع يدها على وجهي: "كانت صالحة وهادئة منذ اليوم الذي جاءت فيه إلى بيتنا. ولم أكن أنا التي تريد العراك".

أزاحت يدها عن وجهي. راقبتُ أمي.

ما إن التهمت النار الحرير، حتى برزت قدم شاحبة، كأنها شيء حي؛ وراحت أصابع القدم، التي كانت تذوب في الحرارة، تتجعد، مبدية المقاومة لما يحدث لها. أقحمت قَسَم القدم في النار، ولكنها لم تحترق.

(*) هو الملك القرد الذي ساعد راما في استعادة سيتا وذلك في القصيدة الملحمية رامايانا.

وازدادت سرعة نبضات قلبي. كانت أمي تقاوم تدميرهم لها.

كان تحت المنصة التي تتكدس عليها قطع الجمر، ثمة رابية عالية من الطين الأسود المترسب الذي جرفه النهر إلى الشاطئ. كانت الرابية مفروشة بأشرطة الياسمين والورد، وقطع الحرير، والعظام المتفحمة، وكلاب نحيفة شاحبة تزحف متشممة بين الزهور والحرير والعظام المتفحمة.

نظرت إلى الترسبات، ونظرت إلى قدم أمي الملتوية، وفهمت.

كان هذا الطين يحجبها: هذه الرابية المنتفخة من الترسّب الأسود. كانت القدم تحاول مقاومة الطين الأسود؛ والأصابع تلتوي وتقاوم؛ لكن الطين يمتصها إلى الداخل. كان سميكاً جداً، وكان يزداد في كل لحظة يغسل النهر فيها الدرجات. وسرعان ما ستصبح جزءاً من الرابية السوداء وسيلعقها الكلب الشاحب والنّحيف.

عند ذاك فهمت: كان هذا هو البيناراس؛ هذا الطين الأسود للغانغا الذي يموت فيه كل شيء، ويتحلل، ويبعث من جديد ثم يعود ليموت مرة أخرى. الشيء نفسه سيحدث لي حين أموت وسيأتون بي إلى هنا. لا شيء يمكن أن يتحرر هنا.

ضاق صدري، وتوقفت عن التنفس.

هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أصاب فيها بالدوار.

لم أعد لرؤية الغانغا منذ ذلك الحين: سأتخلى عن ذلك النهر للسياح الأميركيين!

... ينحدر من قرية لاكسمانغار، في مقاطعة غايا.

هذه المقاطعة مشهورة؛ مشهورة عالمياً. إن تاريخ بلادك تشكّل في مقاطعتي، يا سيد جياباو. من المؤكد أنك سمعت عن بوذا غايا؛ المدينة التي جلس فيها بوذا تحت شجرة، وانبثق فكره التنويري، وأشاع البوذية التي انتشرت في ما بعد في العالم أجمع بما في ذلك الصين؛ وأين هو،

هنا بالضبط في مقاطعتي! على بعد بضعة أميال من لاكسمانغار!

أتساءل إن كان بوذا قد تمشى في لاكسمانغار؛ لقد قال بعض الناس إنه فعل ذلك. وإحساسي يطالعني أنه قد ركض فيها - بالسرعة الممكنة - ووصل إلى الجهة الأخرى، ولم ينظر خلفه!

ثمة فرع صغير من الغانغا يجري خارج لاكسمانغار؛ تأتي فيه القوارب من العالم الخارجي، جالبة المؤن كل اثنين، وهنالك شارع واحد في القرية، وهنالك مجرى مكشوف للمجاري ينقَسِم إلى اثنين. وهنالك سوق على كلتا جهتي الرواسب: ثلاثة أو أكثر أو أقل من المتاجر المتشابهة تبيع أنواعاً متطابقة على نحو ما من الأرز الرديء والعَفِن، وزيت الطبخ، والكيروسين، والبسكويت، والسجائر، والسكر الأحمر غير المكرر. في نهاية السوق هنالك برج طويل تلطخ بالجص الأبيض، اتخذ شكل القُمع، وقد رُسِمت على كل أنحائه أفاعٍ سوداء متلويّة؛ إنه المعبد. في الداخل ستجد صورة لمخلوق بلون الزعفران، نصفه قرد ونصفه الآخر إنسان: هو هانومان المفضل لدى الجميع في الظلام. هل تعرف شيئاً عن الهانومان يا سيدي؟ إنه الخادم المخلص لراما، ونحن نقدم له الطاعة في معابدنا لأنه مثال مشرق لخدمة أسيادك بالوفاء المطلق والحب والتضحية.

هنالك نماذج ممن نقدم لهم الطاعة في معابدنا أوهمنا بها، يا سيد جياباو. أنت تتفهم الآن كم هو صعب على الإنسان أن ينال حريته في الهند.

تحدثت كثيراً عن المكان. لأتحدث الآن عن الناس. أنا فخور، يا صاحب السعادة، كي أعلمكم أن لاكسمانغار هي القرية النموذجية الهندية للفردوس بالنسبة إليكم. فهي مزوّدة بانتظام بالكهرباء والماء الصافي وخدمة الهواتف؛ إن أولاد قريتي، الذين يترعرعون على الغذاء الكامل من اللحوم والبيض والخضار والعدس، ستجدهم هناك عندما

يتم فحصهم بحسب الموازين والمقاييس وفق المستوى الأدنى للطول والوزن الذي أقرته الأمم المتحدة وباقي المنظمات التي وقّع معاهداتها رئيس وزرائنا والتي يحضر منتدياتها بانتظام متفاخراً.

ها!

أعمدة الكهرباء؛ ميتة.

وأنابيب الماء؛ مُحَطَّمة.

الأولاد؛ نحاف جداً وقصار بالنسبة إلى أعمارهم، ورؤوسهم كبيرة ويمكنك أن ترى بوضوح أن أعينهم تلمع، مثل الضمير المذنب للحكومة الهندية.

بلى، أنموذج للقرية الهندية، الفردوس يا سيد جياباو. سيتوجب عليّ في يوم ما أن أزور الصين كي أرى إن كانت فراديس قراكم أفضل أم لا.

في وسط الشارع الرئيسي، هنالك عوائل الخنازير تخوض في المجاري؛ والجزء الأعلى من جسم كل حيوان منها جاف، ولها شعر طويل مضفور في شبكات؛ أما الجزء الأسفل من الجسم فأسود متفحم ويلمع من مياه المجاري. ثمة دِيَكة ذات ريش أحمر وبني لامع تطير أعلى وأسفل سقوف المنازل. وبعد أن تمر بالخنازير والديكة ستصل إلى منزلي؛ إن كان لا يزال موجوداً.

عند الطريق إلى بيتي، سترى أهمَّ عضو في عائلتي.

الجاموسة المائية.

إنها الأكثر بدانة في عائلتي؛ وهو الأمر الذي ينطبق على كل بيت في القرية. فطوال اليوم تطعمها النساء من العشب الجديد؛ إن إطعامها هو أهم شيء يقمن به في حياتهن. كل آمالهن معقودة على بدانتها يا سيدي. فإن أعطت ما يكفي من الحليب، عندئذ تستطيع النسوة بيع البعض منه، وقد يكون هناك القليل من النقود الفائضة في نهاية النهار.

كانت مخلوقاً سـميناً وذات جلد لامع، لها وريد بقطر عضو ولدٍ يظهر مـن خطمهـا الشـعري، وثمـة لعـاب لؤلـؤي يتدلى مـن حافة فمها؛ وهي تجثم طوال النهار على فضلاتها الهائلة. إنها دكتاتور منزلنا!

حين تجيء إلى بيتنا سترى - إن كان أي واحد منهم لا يزال حياً بعد ما فعلته - النساء يعملن في الباحة. عماتي وبنات أعمامي وجدتي قَسَم. واحدة تحضّر الغذاء للجاموسة، وثانية تذري الأرز، وثالثة تجثم علـى الأرض تفلـي الأخـرى مـن القمل الـذي تضغطه بقوة بين أظافرها حتى الموت. بين الفينة والأخرى يتوقفن عن العمل، لأن وقت العراك قد حان. وهذا يعني أن ترمي الواحدة الأخرى بالأواني الحديدية، أو تشدّ شعرها، ثم يتصالحن بأن تأخذ الواحدة منهن يدي الأخرى وتضغطهما علـى وجنتيهـا. وفـي الليـل ينمـن معـاً، وسـيقانهن تتشـابك الواحدة مع الأخرى ليمسين جسداً واحداً؛ دودة ألفية.

الرجال والأولاد ينامون في زاوية أخرى من البيت.

يجـن جنـون الديكـة فـي الصبـاح الباكـر فـي القريـة. هزتنـي يـد لتوقظني... أزحت سـاقي أخي كيشـان عن بطني، وأبعدت يد ابن عمي بابو عن شعري، وخلّصت نفسي من النائمين.

- "تعالَ مونا".

كان أبي يناديني من باب البيت.

ركضت خلفه. خرجنا من البيت، وحررنا الجاموسـة من مربطها. كنا نأخذها إلى حمامها الصباحي؛ إلى البركة تحت القلعة السوداء.

تنتصب القلعة السوداء على قمة التل لتطل على القرية. الناس الذين ذهبوا إلى بلدان أخرى، أخبروني أن هذه القلعة جميلة مثلها مثل أي شـيء يمكن مشـاهدته في أوروبا. لا بد من أن الأتراك أو الأفغـان أو الإنكليـز، أو أيّ ممّـن حكمـوا الهنـد، قـد بنوا القلعة قبل قرون.

(ذلك لأن هذا البلد، الهند، لم يكن حرّاً أبداً. في البداية جاء المسلمون، ثم البريطانيون ليتحكموا بنا. في العام 1947 غادر البريطانيون، ولكن ليس سوى الغبي سيعتقد أننا أصبحنا أحراراً حينها).

الآن بعد أن رحل الأجانب عن القلعة السوداء منذ وقت طويل احتلتها قبيلة من القرود. لم يعد أحد يصعد إلى هناك عدا رعاة الماعز الذين يأخذون مواشيهم لترعى هناك.

عند الشروق، تتوهج البركة التي تحيط بالقلعة، وتتدحرج كل حين جلاميد الصخور من جدران القلعة من أعلى التل لتسقط في البركة حيث تقع في وحلها نصف غاطسة في طينها، مثل فرس النهر الغافي الذي رأيته، بعد عدة سنوات في حديقة الحيوانات الوطنية في نيودلهي. أزهار اللوتس والليلك تطفو على كل البركة، ويتلألأ الماء كالفضة، وتخوض الجاموسة المائية وهي تلوك أوراق الليلك، مطلقة التموجات التي تنتشر على شكل الحرف V من خطمها. تشرق الشمس على الجاموسة وعلى أبي وعليّ وعلى عالمي.

في بعض الأحيان أكاد أشتاق إلى ذلك المكان، هل تصدق؟

فلنعد الآن إلى الإعلان.

شوهد المشتبه به يرتدي قميصاً أزرق ذا مربعات من البوليستر وسروالاً برتقالياً من البوليستر أيضاً وينتعل نعلاً بني اللون...

نعل بني اللون؟ أُفّ. ليس غير الشرطي يمكن أن يختلق مثل هذه التفاصيل. وأنا أنفي ذلك بصراحة.

قميص أزرق ذو مربعات من البوليستر وسروال برتقالي من البوليستر أيضاً...؟ أُفّ، حسناً أريد أن أنفي ذلك أيضاً، ولكن لسوء الحظ هذا صحيح. هذا هو نوع الثياب سيدي التي تعجب عين الخادم. وكنت لا أزال خادماً في اليوم الذي كانوا قد كتبوا فيه هذا الإعلان.

(في المساء الذي كنت فيه حراً، لبست ثياباً مختلفة!)

علـى أنـه ليـس ثمـة عبـارة فـي هذا الإعلان تزعجنـي؛ دعني أعود إليه لحظة وأصححه:

... ابن فكرام حلوي، ساحب العربة...

السيد فكرام حلوي، ساحب عربة؛ شكراً لك! كان أبي فقيراً، لكنه كان رجلاً شريفاً وشجاعاً. ما كان لي أن أكون تحت هذه الثريا لو لم يرشدني.

فـي أوقـات العصـر، كنـت أذهب من مدرسـتي إلـى المقهى لأراه. كانت هذه المقهى هي مركز قريتنا؛ كانت الحافلة الآتية من غايا تتوقف هنـاك فـي منتصـف النهـار كل يـوم (ولا تتأخـر أبـداً أكثـر من سـاعة أو سـاعتين). ويوقف رجال الشـرطة سـيارتهم الجيب عندما يأتون لتعقب شخص ما في القرية. وقبيل المغرب، يلتف أحد الأشخاص حول المقهى ثلاث مرات، يدقّ جرسه بصوت عالٍ، ويحمل على ظهره لوحة خشبية سميكة عليها إعلان لفيلم إباحي؛ فكيف لقرية هندية تقليدية أن تكتمل مـن دون دار عـرض سـينمائي زرقـاء يـا سـيدي؟ ثمـة دار للسـينما فـي الجهة الثانية من النهر لعرض أفلام كهذه كل ليلة؛ ساعتان ونصف من الفنتازيـات بعناويـن مثـل **كان رجـلاً حقيقيـاً**، أو **فتحنا يومياتها**، أو **فعلها العم**، وتعرض أفلاماً عن نسـاء ذوات شـعر ذهبي من أميركا، أو نسـاء منعـزلات مـن هونـغ كونـغ؛ كما أخمن سـيدي الرئيـس، لأنني لم أرافق أحداً من الشباب لمشاهدة هذه الأفلام!

يوقف ساحبو العربات عرباتهم في طابور خارج المقهى بانتظار أن تأتي الحافلة لإنزال ركابها. لم يكن يُسمح لهم بالجلوس على الكراسي البلاستيكية التي وضعت في الخارج للزبائن؛ لذلك كان يتحتم عليهم أن يجثموا في الخلف، مقرفصين، في الوضع الشائع للخدم في كل مكان مـن الهنـد. كان أبـي لا يقرفـص أبـداً؛ أتذكـر ذلك. كان يفضل الوقوف،

مهما طال وقت وقوفه ومهما شعر بالتعب. كنت أجده عاري الصدر، وحيداً كالعادة، يشرب الشاي ويفكر.

ثم يأتي صوت بوق سيارة.

تتبعثر الخنازير والكلاب الضالة قرب المقهى التي تهب عليها رائحة الغبار والرمل وفضلات الخنازير. وقفت في الخارج سيارة من نوع أمباسادور. وضع أبي كوب الشاي جانباً وخرج.

فُتح باب سيارة الأمباسادور ليخرج رجل يحمل دفتر ملاحظات. استمر الزبائن المعتادون للمقهى في تناول أكلهم، لكن أبي وآخرين اصطفّوا في طابور.

لم يكن الرجل الذي يحمل الدفتر هو الجاموس؛ بل كان مساعده.

كان هنالك شخص آخر لا يزال في السيارة؛ رجل بدين أصلع وأسمر ذو وجه فيه نقرة في الخد، وذو تعابير هادئة، وثمة بندقية في حضنه.

كان ذلك هو الجاموس.

والجاموس هو أحد الملاّك في لاكسمانغار. وهنالك ثلاثة آخرون، وكل واحد منهم له اسم تبعاً لخصوصيته في الجشع الذي عرف عنه.

كان اللقلق رجلاً سميناً له شاربان كثّان ومعقوفان بنهايتين مدبّبتين عند الطرفين. كان يملك النهر الذي يجري خارج القرية، وكان يستقطع ضريبة عن أي سمكة يصطادها كل صياد من النهر، ويستحصل رسم عبور من أي قارب يقطع النهر كي يأتي إلى قريتنا.

كان أخوه يدعى الخنزير البري، وهذا الشخص يملك كل الأراضي الصالحة للزراعة حول لاكسمانغار. لو أردت العمل في تلك الأراضي عليك أن تنحني له إلى الأرض، وتلمس التراب الذي تحت خفيه، وتوافق بغصة على ما يفرضه لك من أجر يومي. وعندما يمر بنساء، تتوقف سيارته ويكشف عن تكشيرته؛ هنالك سنان من أسنانه طويلتان

وملتويتان على جانبي أنفه وكأنهما سنان صغيرتان لفيل.

كان الغـراب يملـك الأرض البـور، التـي كانت جافة وصخرية عند التل تحيط بالقلعة، وهو يستقطع ضريبة من رعاة الماعز الذين يذهبون إلى هناك لرعي قطعانهم. إن لم يكن لديهم المال كان...، لذلك أسموه الغراب.

الجاموس هو الأكثر جشعاً. كان قد أكل العربات والطرقات. فإن كانت لديك عربة، أو أنك تمشي بها في الطريق، يتحتم عليك أن تطعمه ما يساوي ثلث ما تكسبه، لا أقل من ذلك.

كل الحيوانـات الأربعـة يعيشـون فـي قصـور عالية الأسـوار خارج لاكسـمانغار؛ حـي الملاّكيـن. لهـم معابدهـم الخاصـة داخـل قصورهـم، وآبارهـم الخاصـة وبحيراتهـم، ولا يحتاجـون إلـى المجـيء إلـى القرية إلا ليتطفلـوا علـى النـاس. فـي وقـت من الأوقات، كان أولاد الحيوانات الأربعة يتسـكعون حول المدينة في سـياراتهم الخاصة؛ تتذكر قَسَـم تلك الأيام. لكن بعد أن خُطف أحد أبناء الجاموس من قبل الناكسـاليين - ربما سـمعت عنهم سـيد جياباو، لأنهم شـيوعيون، مثلك تماماً، وبينما هـم يتجولـون يرمـون النـاس الأغنيـاء بالرصـاص بناء علـى مبدأ - عمد الحيوانـات الأربعـة إلـى إرسـال أبنائهـم وبناتهـم بعيـداً، إلـى دانبـاد أو دلهي.

ذهب أولاد الحيوانات وبقوا هم يتطفلون على القرية وكل شـيء ينمو فيها، حتى لـم يبقَ شيء للناس يتغذون عليه. لذلك ترك البقية من أفراد لاكسمانغار القرية بحثاً عن مصادر للطعام. في كل عام، كان جميع الرجال في القرية يحتشدون خارج المقهى، وحين تأتي الحافلات كانوا يركبونها - ويحشرون أنفسهم فيها، أو يتعلقون بالقطارات، أو يتسلقون سطوحها - ويذهبون إلى غايا؛ وهناك يتجهون إلى المحطة، ويندفعون نحـو القطـارات، يحشـرون أنفسـهم فيهـا أيضـاً، ويتسـلقون سـطوحها؛

ويذهبون إلى دلهي وكلكوتا ودانباد للبحث عن عمل.

قبل شهر من موسم الأمطار يعود الرجال من دانباد ودلهي وكلكوتا أكثر نحافة وأكثر قتامة وأشد غضباً، ولكنّ هنالك أموالاً في جيوبهم. النساء كنّ في انتظارهم. يختبئن خلف الباب، وما إن يدخل الرجال حتى ينقضضن عليهم، كما تنقض القطط المتوحشة على شريحة لحم. ويكون هناك صراع وعويل وصراخ. كان أعمامي يقاومون، ويتمكنون من الحفاظ على بعض مالهم، ولكنّ والدي كان يقشّط حتى الجلد في كل مرة. كان يقول، وهو غاطس في زاوية الغرفة: "لقد تمكنت من أن أخلص نفسي من المدينة، ولكنني لم أستطع تخليص نفسي من النساء في بيتي. كنّ يطعمنه بعد أن يطعمن الجاموسة.

كنت آتي إليه، وألعب حوله معتلياً ظهره، وأضع يدي على جبهته وعلى عينيه وأنفه نازلاً إلى رقبته وحتى ثغرة النحر. أُبقي إصبعي يتحرك ببطء هناك؛ وهذا الجزء لا يزال الجزء المفضل لدي في الجسم الإنساني.

إن جسد الرجل الغني يشبه مخدة القطن المغرية، بيضاء وناعمة. أما أجسادنا فمختلفة. العمود الفقري لأبي حبل معقود، مثل ذلك النوع من الحبال التي تستخدمها النساء في القرية لسحب الماء من الآبار؛ الترقوة منحنية حول رقبته ببروز عالٍ، مثل طوق الكلب؛ ثمة جروح وحزوز وندوب، تشبه آثار السوط في جسده، تهبط من صدره إلى وسطه حتى عجيزته. إن قصة الرجل الفقير مكتوبة على جسده بقلم حادّ.

يعمل أعمامي في الأعمال الشاقة أيضاً، ولكنهم يفعلون كما يفعل الآخرون. في كل سنة، وما إن تبدأ الأمطار بالهطول حتى يتجهوا إلى الحقول حاملين مناجل سوداء متوسّلين أحد الملاّكين طلباً للعمل. كانوا يبذرون البذور، ويجتزّون الأعشاب، ويحصدون القمح والأرز. كان يمكن لأبي أن يعمل معهم، وكان يمكنه العمل في طين الملاّكين،

لكنه اختار ألاّ يفعل.

اختار أن يصارع ذلك.

الآن، إذ أشك في أن لديكم ساحبي عربات في الصين - أو في أي بلد متحضر على الأرض - فعليك أن ترى واحدة من تلك العربات بنفسك. لا يسمح للعربات في الأحياء الراقية من دلهي، حيث من الممكن للأجانب أن يروها ويفغروا أفواههم من الدهشة. أرجو أن تصرّ على الذهاب إلى دلهي القديمة، أو نيزامودين، فهناك سترى الطريق مليئة بها. سترى رجالاً نِحافاً كأنهم القصب، ينحنون إلى الأمام على مقعد الدراجة الهوائية، وهم يسحبون عربة تحمل هرماً من لحم الطبقة الوسطى؛ وبعض الرجال السمان مع زوجاتهم البدينات مع أكياس التسوق المليئة والخضار.

عندما ترى أولئك الرجال القصبيين، فكّر في أبي.

قد يكون ساحب عربة - حيوان بشري للحمل - ولكن أبي كان رجلاً لديه خطة.

وكنت أنا خطته.

في أحد الأيام تعكر مزاجه في البيت، وراح يصرخ بالنساء، كان ذلك في اليوم الذي أخبروه فيه أنني لم أعد أذهب إلى المدرسة. فعل شيئاً لم يجرؤ أبداً على القيام به من قبل؛ لقد صرخ بقَسَم:

- "كم مرة قلت لك إنّ مونا يجب أن يقرأ ويكتب!".

كانت قَسَم ترتعد، ولكن فقط لدقيقة. فأجابته صارخة:

- "لقد جاء الفتى هارباً من المدرسة، لا تلمني! إنه جبان، وهو يأكل كثيراً. اجعله يعمل في المقهى؛ ودعه يحصل على بعض المال".

تجمعت عماتي وبنات أعمامي حولها. وزحفت أنا خلف أبي بينما كنّ يخبرنه بقصة جبني.

الآن، قد تجد الأمر لا يصدق أن ولداً قروياً يرتعد خوفاً من سحلية. أنا لا أخشى مطلقاً الجرذان والأفاعي والقرود والنموس. بل على العكس؛ أنا أعشق الحيوانات. أما السحالي... ففي كل مرة أرى واحدةً منها، مهما كانت صُغيرة، كأنني أتحول إلى بنت، ويتجمد دمي.

كانت هنالك خزانة كبيرة في غرفة صفي، وكان بابها غالباً ما يكون مفتوحاً نوعاً ما؛ ولا أحد يعرف ما الذي كان فيها. في أحد الصباحات صرّ الباب وانفتح، وقفزت منه سحلية.

كان لونها أخضر باهتاً، مثل جوافة نصف ناضجة. كان لسانها يخرج ويدخل من وإلى فمها. ويكاد طولها يصل إلى قدمين.

لم يكد الصبيان أن يلاحظوا شيئاً. حتى رأى أحدهم وجهي. فالتفوا حولي في دائرة.

شد اثنان ذراعيّ إلى الخلف، وثبتا رأسي. وأمسك آخر الشيء بيديه، وراح يمشي نحوي بخطوات بطيئة مبالغة. كانت السحلية هادئة – لكنها تمد لسانها الأحمر خارج فمها ثم تدخله – واقتربت من وجهي. ازداد صخب الضحك. لم أستطع أن أثير ضجة. كان المدرّس يشخر في مكتبه خلفي. اقتربت السحلية كثيراً من وجهي؛ ثم فتحت فمها الأخضر، وعند ذاك أصابني الدوار للمرة الثانية في حياتي.

لم أعد إلى المدرسة منذ ذلك اليوم.

لم يضحك أبي عندما سمع القصة. تنفس بعمق؛ وشعرت بصدره يتوسع إزائي.

– "لقد تسببت في أن يترك كيشان المدرسة، لكنني أخبرتك أن هذا الولد لا بد له من أن يبقى في المدرسة. قالت لي أمه إنه سيفلح في المدرسة. أمه قالت هذا".

فصاحت قَسَم: "فلتذهب أمه إلى الجحيم. كانت امرأة مجنونة وقد

ماتـت، فشـكراً للـه علـى ذلـك. أصغِ إلـيّ الآن؛ دع الفتى يذهب للعمل في المقهى مع كيشان، هذا ما أراه".

في اليوم التالي جاء أبي معي إلى مدرستي للمرة الأولى والأخيرة. كان الوقـت فجـراً؛ وكان المـكان فارغـاً. دفعنـا الباب لينفتح. كان ضوء أزرق معتـم يمـلأ غرفـة الصـف. كان مدرسـنا رجـلاً يمضـغ البان وكثير البصـاق؛ وعمـل بصاقـه نوعـاً مـن جـدار ورقي منخفـض على الجدران الثلاثة التي حولنا. حين كان يذهب إلى النوم، كما اعتاد أن يفعل عند الظهر، كنا نسرق البان من جيوبه، ونوزعه بيننا ونلوكه، ثم نقلد أسلوبه فـي البصـاق - اليـدان علـى الوركيـن، متقوسـاً إلى الوراء قليلاً - ونقوم بالبصاق على الجدران القذرة الثلاثة على التوالي.

كانت هنالك جدارية متهالكة لبوذا وهو محاط بالغزلان والسناجب، تزيـن الجـدار الرابـع؛ كان الجـدار الوحيد الـذي أبقاه المدرس من دون بصاق. كانت السحلية الكبيرة التي بلون الجوافة نصف الناضجة، تجلس أمـام هـذا الجـدار، لتبيـن أنهـا واحدة من بين الحيوانات التي عند قدمي بوذا.

التفتت برأسها نحونا؛ ورأيت عينيها تلمعان.

- "هل هذه هي المسخ؟".

تلفتـت السـحلية هنـا وهنـاك باحثة عـن مهرب. ثم راحت تصطدم بالجدار. لم تكن تختلف عني؛ كانت مذعورة.

- "لا تقتلها يا أبي؛ أرجوك ارمِها خارج النافذة فحسب".

كان المـدرّس مستلقياً عنـد إحـدى زوايـا الغرفـة تفـوح منه رائحة الشـراب الكريهة، ويشـخر بصوت عالٍ، وكان بالقرب منه إناء شـراب محلي قد أفرغه الليلة الماضية؛ التقطه أبي.

هربت السحلية فركض وراءها وهو يلوّح بإناء الشراب.

- "لا تقتلها يا أبي؛ أرجوك!".

لكنه لم يستمع إليّ. ركل الخزانة، فوثبت منها السحلية فجأة، فطاردها مجدداً محطماً كل شيء في طريقه وهو يصرخ: "هيا! هيا!" ضربها بعنف بإناء الشراب حتى انكسر. ثم شدّ على عنقها بقبضته، وسحق رأسها.

صار الهواء قارصاً، وانتشرت رائحة عطِنة للحم مسحوق. التقط السحلية الميتة، ورماها خارجاً.

جلس أبي يلهث إزاء جدارية بوذا الذي تحيط به الحيوانات الوادعة. عندما التقط أنفاسه قال لي: "طوال حياتي وأنا أعامل أشبه بالحمار. كل ما أريده أن أحد أبنائي - واحد على الأقل - يعيش كإنسان".

ما الذي يعني أن تعيش كإنسان؟ كان شيئاً غامضاً بالنسبة إليّ. اعتقدت أنها كانت تعني أن يكون المرء مثل فيجاي، سائق الحافلة. توقفت الحافلة لمدة نصف ساعة في لاكسمانغار، وترجل ركابها ثم ترجل السائق ليشرب الشاي. كان ذلك هو الرجل الذي نرنو إليه جميعنا ممن كانوا يعملون في المقهى. كنا نحترم فيه زي الشركة الرسمي وصافرته الفضية والشريط الأحمر الذي يعلقها فيه. كل شيء فيه يقول: إنه مرفّه في الحياة.

كانت عائلة فيجاي من رعاة مربي الخنازير، وهذا يعني أنهم كانوا في الدرك الأسفل، ومع ذلك فقد كوّن حياته. كان قد تصاحب مع أحد السياسيين. يقول الناس إنه سمح للسياسي أن يقحم... مهما فعل، فقد كوّن نفسه؛ كان أول رجل أعمال أعرفه. ها هو الآن لديه وظيفة، ولديه صافرة فضية وحين يصفر بها - في الوقت الذي تشرع فيه الحافلة بالتحرك - يجن جنون كل أولاد القرية، ويركضون وراءها ويتعلقون بها، ويتمنون الرحيل معها أيضاً. كنت أريد أن أكون مثل فيجاي؛ بزي رسمي، أستلم أجري شيكاً، وأحمل صافرة لامعة نافذة الصوت، والناس ينظرون إليّ بعيون تقول: "كم هو شخص مهم!".

الآن الساعة الثانية بعد منتصف الليل، سيدي الرئيس. عليّ أن

أتوقف سريعاً لهذه الليلة. دعني أضع إصبعي على شاشة جهاز الحاسوب المحمول لأرى إن كانت هناك أي معلومات مفيدة.

متجنباً بعض التفاصيل غير الضرورية...

في منطقة دالا خان في نيودلهي، في الليلة الثانية من أيلول، قرب فندق موريا شيراتون...

فندق شيراتون هو أجمل الفنادق في دلهي؛ لم يتسنَّ لي أن أدخله أبداً، ولكن رئيسي السابق، السيد آشوك، اعتاد أن يحتسي شرابه الليلي المتأخر هناك. ثمة مطعم في الطابق السفليّ من المفترض أن يكون الأفضل. حري بك أن تزوره لو أتيحت لك الفرصة.

كان الرجل المفقود يعمل سائقاً لسيارة هوندا وقت وقوع الحادثة المزعومة. ووفقاً لذلك سجلت الدعوة المرقمة 05/438، بي. أس. في دالا خان، دلهي. ويُعتَقد أنه يحمل حقيبة فيها مبلغ معين من المال نقداً.

كان المفروض أن يقولوا حقيبة حمراء. فمن دون ذكر اللون ستكون المعلومة غير مفيدة، أليس كذلك؟ لا عجب أنهم لم يحددوا مكاني.

"كمية معينة من المال نقداً". أُفّ.

افتح أي جريدة في هذه البلاد، فستجد دائماً هذا الهراء: "حزب (معروف) منشغل بنشر الشائعات"، أو "مجموعة دينية (معروفة) تمنع موانع الحمل". أكره هذه الأشياء.

سبعمئة ألف روبية.

هذه هي قيمة المال في الحقيبة. وكن على ثقة أن الشرطة تعلم بها أيضاً. كم يعادل ذلك في العملة الصينية؟ لا أعرف، سيد جياباو. ولكنها تشتري سبعة حواسيب محمولة من سنغافورة.

ليس هنالك ذكر لمدرستي في الإعلان، سيدي؛ وهذا عيب عليهم فعلاً. فلا بدّ لك من أن تتحدث عن مستوى تعليم الرجل عندما تصفه. كان حرياً بهم أن يقولوا شيئاً مثل: "إن المشتبه فيه قد تعلم في مدرسة

فيها سحلية بطول قدمين ولونها بلون الجوافة نصف الناضجة، وتختفي في خزانتها...".

إن تكن القرية الهندية هي الفردوس، فإن المدرسة هي فردوس في فردوس.

كان من المفترض أن يكون هناك طعام مجاني في مدرستنا؛ فبرنامج حكومتنا يمنح كل صبي ثلاثة أرغفة من الخبز ويخنة العدس الأصفر مع المخلل وقت الغداء. ولكننا لم نرَ الخبز أبداً أو يخنة العدس الأصفر أو المخلل، ويعرف الجميع السبب: كان المدرس يسرق النقود المخصصة لغدائنا.

كان له عذره الشرعي في سرقة النقود؛ كان يقول إنه لم يستلم مرتّبه منذ ستة أشهر. وهو ينوي أن يقوم باحتجاج غاندوي ليستحصل أجوره المقطوعة وسيتوقف عن العمل في الصف حتى يصله شيك بريدي براتبه. ومع ذلك كان يخشى فقدانه لعمله، فبالرغم من ضآلة الراتب الحكومي في الهند، فإن المزايا العرضية عديدة. في إحدى المرات جاءت شاحنة إلى مدرستنا تحمل لنا ملابس مدرسية أرسلتها الحكومة؛ بيد أننا لم نرها، فقد تم عرضها للبيع في القرية المجاورة بعد أسبوع.

لم يلُم أحد المدّرس على فعلته تلك. فلا تتوقع من رجل غاطس في ركام من الفضلات أن تكون رائحته عطرة. جميع مَن في القرية يعرفون أنهم سيفعلون الشيء نفسه لو كانوا مكانه. ولربما كان البعض يفتخر به لأنه استولى عليها تماماً.

في أحد الصباحات شاهدت رجلاً يرتدي أجمل بذلة رأيتها في حياتي، بذلة سفاري زرقاء تبدو أكثر جاذبية حتى من زي سائق الحافلة، جاء يمشي في الطريق المؤدية إلى مدرستي. تجمعنا عند باب المدرسة لنحدق في بذلته. كانت في يده عصا من القصب لوّح بها حين رآنا عند الباب. اندفعنا إلى الصف وجلسنا واضعين كتبنا أمامنا.

كان ذلك تفتيشاً مفاجئاً.

أشار الرجل الذي يرتدي بذلة السفاري الزرقاء بقصبته إلى الفتحات في الجدار، وإلى التشوهات اللونية الحمراء، بينما كان المدرّس منكمشاً إلى جانبه، وهو يقول: "عذراً يا سيدي، عذراً يا سيدي".

- "لا توجد هنا ممحاة في الصف، ولا كراسٌ، ولا زيّ موحد للطلبة؟ كم سرقت من الأموال المخصصة للمدرسة يا...؟".

كتب المفتش أربع جمل على السبورة، وأشار بقصبته إلى أحد الصبية:

- "اقرأ".

وقف الصبية الواحد بعد الآخر وهم مطرقون ينظرون إلى الحائط.

قال المدرس: "جرّب بالرام يا سيدي. إنه الأذكى بينهم. إنه يقرأ جيداً".

فقمت وقرأت: "إننا نعيش في أرض عظيمة تلقّى فيها بوذا تنويره. نهر الغانغا يمنح الحياة لنباتاتنا وحيواناتنا وأناسنا. نحمد الخالق أننا ولدنا على هذه الأرض".

فقال المفتش: "أحسنت. من كان بوذا؟".

- "رجلاً تنويرياً".

...

طلب مني المفتش أن أكتب اسمي على السبوزة؛ وعرض أمامي ساعته، وطلب مني أن أرى الوقت. أخرج محفظته، ليستلّ منها صورة صغيرة، وسألني: "من هذا الرجل؟ من هو الشخص الأكثر أهمية في حياتنا؟".

كانت الصورة لرجل ممتلئ الجسم، أبيض الشعر ذي خدّين ريّانين، يضع قرطين ذهبيين سميكين ووجهه يشع بالفطنة والطيبة.

- "إنه الاشتراكي الكبير".

- "أحسنت. وما هي رسالة الاشتراكي الكبير إلى الأولاد الصغار؟".

كنت قد رأيت الجواب على جدار المعبد: كان أحد رجال الشرطة قد كتبه في أحد الأيام باللون الأحمر.

- "أي فتى في أي قرية يمكنه أن يكبر ويصبح رئيس وزراء الهند. تلك هي رسالته إلى الأولاد الصغار في هذه الأرض كلها".

أشار المفتش بقصبته إليّ مباشرة: "أنت الأذكى والأنزه والأكثر حيوية أيها الشاب في هذه الزحمة من قطّاع الطرقات والبلهاء. في أي غابة، ما هو الحيوان الأكثر ندرة؛ المخلوق الذي يصادف مجيئه مرة كل جيل؟".

- "النمر الأبيض".

- "هذا ما أنت عليه، في هذه (الغابة)".

قال المفتش قبل أن يرحل: "سأكتب إلى باتنا أطالبهم بأن يبعثوا إليك زمالة. أنت بحاجة إلى الذهاب إلى مدرسة حقيقية؛ في مكان ما بعيد عن هنا. أنت بحاجة إلى زي حقيقي وتعليم حقيقي".

أهداني هدية الوداع؛ كتاباً. أتذكر عنوانه جيداً: "دروس للفتيان من حياة المهاتما غاندي".

هكذا أصبحت النمر الأبيض. ثمة اسم رابع وخامس أيضاً، ولكنني سأؤجل ذكر ذلك إلى جزء آخر في القصة.

الآن، لكون مفتش المدرسة قد مدحني أمام مدرِّسي وزملائي، ولكوني دعيت بالنمر الأبيض، ولكوني أُهديت كتاباً، وحصلت على وعد بالزمالة: كل هذه أخبار جيدة، ولكن قانون الحياة الذي لا يقبل الخطأ في (الظلام) هو أن الأخبار الجيدة تصبح أخباراً سيئة؛ وعلى عجل.

ارتبطت ابنة عمي بفتى من القرية المجاورة. ولأننا من أهل الفتاة، كنا مجبرين على أن نشتري للفتى دراجة هوائية جديدة، ونعطيه مبلغاً

من المال وسواراً فضياً، ونتكفل بحفل زواج مهيب؛ وهذا ما فعلناه. ربما تعرف سيدي الرئيس كيف نتمتع نحن الهنود بحفل الزواج؛ أعتقد أن الناس يأتون من بلدان أخرى ليتزوجوا وفق الطريقة الهندية. آه، كان يمكن أن نعلّم أولئك الأجانب شيئاً ما أو شيئين! أغاني الأفلام تنطلق بصخب من جهاز تسجيل أسود ونحن نشرب ونرقص طوال الليل! لقد أجهدت، وكذلك كيشان، وكذلك حال كل فرد في العائلة، وبحسب ما أعلم فإنهم سكبوا الشراب في الوعاء الذي تشرب منه الجاموسة الماء.

بعد يومين أو ثلاثة، كنت جالساً في آخر الصف وبيدي اللوحة السوداء والطباشير التي جلبها لي أبي في إحدى رحلاته إلى دانباد، أتمرن على كتابة الألفباء. كان الصبيان يتحدثون أو يتشاجرون بعد أن خرج المدرّس. ورأيت كيشان يقف عند باب الصف. أشار إليّ بإصبعه.

- "ما الأمر يا كيشان؟ هل سنذهب إلى أي مكان؟".

لم يقل شيئاً.

- "هل يتوجب عليّ أن أجلب اللوحة معي؟ وطباشيري؟".

قال: "لِمَ لا؟". ثم اصطحبني إلى الخارج، واضعاً يده على رأسي.

كانت العائلة قد اقترضت مبلغاً كبيراً من اللقلق كي تتمكّن من الإنفاق بإسراف على الزفاف والمهر لابنة عمي. وها هو اللقلق يطالب باسترداد القرض. كان يريد أن تعمل العائلة كلها لأجله، وإذا شاهدني في المدرسة، أو شاهدني المشرف على أعماله، كان لا بد من أن أُجلب للعمل أيضاً.

أُخذت إلى المقهى. جمع كيشان يديه، وانحنى لصاحب المقهى. وانحنيت أنا الآخر له.

نظر صاحب المقهى إليّ شزراً وقال: "من هذا؟".

كان جالساً تحت صورة كبيرة للمهاتما غاندي، وأدركت أنني

سأكون في مأزق كبير.

قال كيشان: "إنه أخي وقد جاء ليلتحق بي".

ثم سحب كيشان الموقد إلى خارج المقهى، وطلب مني الجلوس. جلست إلى جانبه. جلب كيساً من الخيش يحتوي على كمية كبيرة من الفحم. أخذ فحمة، وكسّرها على حجر، ثم وضع الشظايا السوداء في الموقد.

قال لي: "أقوى". بينما كنت أضرب الفحم على الحجر. "أقوى، أقوى".

أفلحت أخيراً؛ كسّرت الفحم على الحجر. نهض وقال: "الآن كسّر الفحم المتبقي في الكيس هكذا".

بعد قليل، جاء صبيّانِ من المدرسة ليشاهداني. ثم جاء آخران، ثم آخران. وسمعت قهقهات.

تساءل أحد الصبية بصوت عالٍ: "ما المخلوق الذي يأتي مرة كل جيل؟".

أجاب الآخر: "مكسِّر الفحم".

انفجروا جميعاً ضاحكين.

قال لي كيشان: "لا تعبأ بهم. سيذهبون في طريقهم". ونظر إليّ.

- "أنت غاضب مني لأنني انتزعتك من المدرسة، أليس كذلك؟".

لم أقل شيئاً.

- "أنت تكره فكرة تكسير الفحم، أليس كذلك؟".

لم أقل شيئاً أيضاً.

تناول أكبر قطعة من الفحم وكسّرها بيده.

- "تخيل أن كل قطعة فحم تمثل جمجمتي؛ سيكون من السهل

عليك تكسيرها".

كان قد انتزع هو الآخر من المدرسة. حدث ذلك بعد أن تزوجت ابنة عمي ميرا.

* * *

أنت تقول إن العمل في المقهى، وتكسير الفحم، ومسح الطاولات هي أخبار سيئة بالنسبة إليّ.

إن تجاوز القانون وتحويل الأخبار السيئة إلى سعيدة، هما من ميزات رجل الأعمال.

غداً، سيد جياباو، عندما أبدأ مجدداً في منتصف الليل، سأخبرك كيف علّمت نفسي في المقهى تعليماً أفضل مما يمكن أن أتعلّمه في أي مدرسة. حسناً الآن، آن لي أن أتوقف عن التحديق إلى هذه الثريا، وأذهب إلى العمل. تكاد الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل. هذا هو الوقت الذي تحيا فيه بنغلور. يوشك يوم العمل الأميركي أن ينتهي، وأنا يومي يبدأ جدياً. لا بد لي من أن أنشط ما إن ينتهي عمل فتيان وفتيات مركز الاتصالات ويتوجهون إلى بيوتهم. في هذا الوقت يتوجب عليّ أن أكون إلى جانب الهاتف.

لا أحتفظ بجهاز هاتف خلوي، لأسباب معروفة - إنه يصيب العقول بالصدأ، يقلص... ويجفف...، كما تعرف - لذلك لا بد لي من أن أبقى في المكتب. في حالات الطوارئ.

أنا الرجل الذي يستدعونه الناس في حالة حدوث كارثة!

دعنا نرى إن كان هناك أي شيء آخر...

... أي شخص تتوفر لديه معلومات أو أي إشارة عن هذا الرجل المفقود نرجو أن يُعلِم CBI، موقع الشبكة (http://cbi.nic.in) والبريد الإلكتروني (diccbi@cbi.nic.in)، فاكس 011-23011334، هاتف: 011-23014046 (مباشر) و210-23015218 و011-23015229 وإلى العنوان أو رقم

الهاتف التالي.
DP 368-05
SHO دالا خان، نيودلهي
هاتف: 28653200، 27641000

ثبتت في النص صورة: ملطخة ومسودّة، تلطخت من مطبعة قديمة، طبعت في مركز للشرطة، لا تكاد تظهر تفاصيلها عندما علّقت على جدار محطة القطار، ولكن الآن بعد أن تحولت إلى شاشة الحاسوب، أعيدت إلى نقاطها، تماماً مثل فكرة مجردة عن وجه رجلٍ؛ مخلوقٍ صغير ذي عينين صغيرتين جاحظتين وشاربين قصيرين كثّين. ربما يكون ذلك وصفاً ينطبق على نصف الرجال في الهند.

سيدي رئيس الوزراء، سأودعك الليلة بعد تعليق عن عيوب عمل الشرطة في الهند. انظر، حافلة مليئة بالرجال الذين يرتدون زيّاً موحّداً باللون الكاكي - وهي مسألة مثيرة، على كل حال - كان يجب عليهم أن يذهبوا إلى لاكسمانغار كي يحققوا في اختفائي. كان عليهم أن يحققوا مع أصحاب المتاجر، وساحبي العربات، ويوقظوا مدرّس المدرسة. هل كان يسرق في طفولته؟ هل كان يقيم علاقات مع بنات الهوى؟ كان عليهم أن يحطموا متجر بقالة أو اثنين، وينتزعوا الاعترافات من واحد أو اثنين من الناس.

على أنني أراهنك أنهم نسوا المفتاح الأهم وقد كان أمامهم تماماً:

أتحدث عن القلعة السوداء بالطبع.

كثيراً ما توسلت إلى قَسَم كي تصطحبني إلى أعلى التل، وعبر المدخل وداخل القلعة. ولكنها قالت إنني رعديد، كنت سأموت لو وصلت إلى هناك؛ فثمة سحلية رهيبة، هي الأضخم في العالم تعيش هناك في القلعة.

لم يكن لي إلا أن أشاهد عن بعد. تحولت المنافذ في سورها

إلى خطوط للضوء القرنفلي المشتعل عند الفجر، وإلى الضوء الذهبي المشتعل عند الغروب؛ تشع السماء الزرقاء عبر الشقوق التي في الصخر، وبينما يشع القمر على المتاريس الناتئة، كانت القردة تجري مهتاجة على حوافّ الجدران، تصرخ وتهاجم بعضها بعضاً، كأنها أرواح المقاتلين الموتى وقد تجسدوا من جديد ليستأنفوا معركتهم الأخيرة.

وددت أن أصعد إلى الأعلى أيضاً.

كان إقبال، الذي هو أحد أفضل أربعة شعراء في العالم بالنسبة إليّ - الآخرون هم الرومي وميرزا غالب والشخص الرابع، مسلم أيضاً، نسيت اسمه - قد كتب قصيدة يقول فيها عن العبيد:

"لقد بقوا عبيداً لأنهم لا يستطيعون إدراك الجميل في هذا العالم".

وهذا أصدق شيء قاله الإنسان.

...

حتى في صباي كان يمكنني أن أرى ما هو جميل في العالم: كان مقدراً لي ألاّ أبقى عبداً.

اكتشفت قَسَم مرة أمري والقلعة. فتبعتني من بيتنا إلى البركة الحجرية، ورأت ما كنت أفعله. وأخبرت في تلك الليلة والدي قائلة له: "إنه يقف هناك يحدق إلى القلعة؛ كما اعتادت أمه أن تفعل. أقول لك من الآن إنه لا ينفع".

عندما أصبح عمري ثلاث عشرة سنة، قررت أن أصعد إلى القلعة وحدي. خضت في البركة، وصلت إلى الجهة الأخرى، وتسلقت التل؛ كنت على وشك أن أدخل، فتجسد لي شيء أسود عند المدخل. مما جعلني أستدير، وأهرع راجعاً أسفل التل، مرعوباً وغير قادر حتى على الصراخ.

لم تكن إلا بقرة. تبين لي ذلك عن بعد، ولكنني كنت مهزوزاً جداً

فلم أستطع العودة إلى الأعلى.

لقد حاولت مرات كثيرة أخرى، لكنني كنت جباناً جداً إذ كلما حاولت التسلق، تخور قواي وأعود.

في عمر الرابعة والعشرين حين كنت أسكن في دانباد، وأعمل سائقاً لدى السيد آشوك، عدت إلى لاكسمانغار عندما ذهب سيدي وزوجته إلى هناك للنزهة. كانت رحلة مهمة جداً لي، وهي ما أود أن أصفها بالتفصيل حين يسمح الوقت. أما الآن فكل ما أود قوله لك هو التالي: بينما كان السيد آشوك والسيدة بنكي مسترخيين، بعد أن تناولا الغداء، لم يكن لدي ما أقوم به، لذلك قررت تكرار المحاولة. عبرت البركة سباحة، واعتليت التل، واجتزت المدخل لأدخل القلعة السوداء للمرة الأولى. لم يكن هنالك الكثير؛ مجرد جدران متهالكة وقرود مذعورة تراقبني عن بعد. وضعت قدمي على السور، ونظرت من هناك إلى القرية تحتي. قريتي الصغيرة لاكسمانغار. رأيت برج المعبد، والسوق، والخط اللامع للمجاري، وبيوت الملاّكين، وبيتي، وتلك السحابة الصغيرة الداكنة خارجه؛ وجاموسة الماء. بدا لي أجمل مشهد على الأرض.

انحنيت عن حافة سور القلعة باتجاه قريتي؛ وقمت بشيء مثير للاشمئزاز لا أستطيع وصفه لك.

حسناً، في الحقيقة، بصقت. مرة بعد مرة. ثم أطلقت صفيراً، وهمهمت، وعدت لأهبط التل.

بعد ثمانية أشهر، قطعت رقبة السيد آشوك.

الليلة الثانية

إلى مكتب:

سعادة وين جياباو
الذي من المحتمل أن يكون نائماً الآن
في مكتب رئيس الوزراء
في الصين

من مكتب:

معلمه عند منتصف الليل
في أمور رجال الأعمال:
النمر الأبيض

السيد رئيس الوزراء.

إذاً،

كيف تبدو ضحكتي؟

كيف تبدو الرائحة تحت إبطيّ؟

حين أكشر عن أنيابي، هل صحيح - كما أنك من دون شك تتخيل الآن - أن شفتيّ تتسعان لتكشيرة شيطانية؟

آه، يمكنني أن أطنب في الكلام عن نفسي يا سيدي. يمكنني أن أتأمل بحبور أنني لست مثل أي قاتل، بل ذاك الذي قتل صاحب عمله (الذي هو بمثابة الأب الثاني)، وأسهم أيضاً في الموت المحتمل لكل أفراد عائلته. موت جماعي فعلاً.

ولكنني لا أريد الاستمرار في الحديث عن نفسي. عليك أن تسمع أقوال بعض رجال الأعمال في بنغلور؛ حصلت شركتي على هذا العقد

مع البريد السريع الأميركي، شركتي تدير البرمجة في هذا المستشفى في لندن، وغير ذلك. أقول لك إنني أكره كل ذلك التوجه التعس في بنغلور.

(ولكن إن توجب عليك فعلاً أن تبحث عن المزيد عني، ادخل فقط موقعي www.whitetiger-technologydrivers.com صحيح! ذلك هو URL لشركتي!).

لذلك يا سيدي أنا متعب للحديث عن نفسي. في هذه الليلة أريد الحديث عن شخص مهم آخر في القصة.

صديقي.

وجه السيد آشوك يستعيد الظهور في ذهني كما كان يظهر كالمعتاد منعسكاً على مرآة السيارة عندما كنت في خدمته. كان وجهه وسيماً إلى حد أنني أحياناً لا أستطيع أن أبعد نظري عنه. صورة شخص طوله ستّ أقدام، عريض الكتفين، له هيبة المالك، قويّ الساعدين؛ مع أنهما رقيقان دائماً (دائماً؛ عدا تلك المرة التي صفع فيها وجه السيدة بنكي)، وعطوف على من حوله، حتى خدمه وسائقه.

الآن يظهر وجه جديد، إلى جانبه، في ذكرى المرآة. زوجته السيدة بنكي. فهي بكل ملامحها جميلة كزوجها؛ كلاهما كصورة في معبد بيرلا الهندوسي في نيودلهي. كانت تجلس في الخلف، ويتحدث الاثنان، وكنت آخذهما إلى حيث يريدان، مخلصاً لهما تماماً مثلما يقوم خادم هانومان بخدمة سيده وسيدته راما وسيتا.

إن التفكير في السيد آشوك يجعلني انفعالياً. ليت لدي بعض المناديل الورقية هنا.

إليك هذه الواقعة الغريبة: تقتل إنساناً، وتشعر أنك مسؤول عن قتله؛ حتى بصيغة التملك. أنت تعرف عنه أشياء أكثر من أمه وأبيه؛ عرفاه جنيناً وعرفته جثة. ليس سواك من يمكن أن يكمل قصة حياته؛ ليس سواك

من يعرف أن جسده لا بد من أن يقحم في النار قبل أوانه، ولماذا كان على أصابع قدميه أن تلتوي وتقاوم ساعة أخرى على الأرض.

الآن، بالرغم من أنني قتلته، فلن تجدني أقول أي شيء سيّئ عنه. لقد دافعت عن اسمه الطيب عندما كنت خادماً له، ولكوني الآن (على نحو ما) سيده، لن أكفّ عن الدفاع عن اسمه الطيب. أنا أمتلكه إلى حدٍّ كبير. كان هو والسيدة بنكي يجلسان على المقعد الخلفي من السيارة، ويتحدثان في شؤون الحياة والهند وأميركا مازجين الهندية بالإنكليزية، وإذ أختلس السمع وهما يتحدّثان، تعلمت الكثير عن الحياة والهند وأميركا، والقليل من الإنكليزية أيضاً. (ربما أكثر قليلاً مما أتظاهر به حتى الآن!) في الواقع، إن الكثير من أفضل أفكاري مستعارة من صاحب عملي السابق أو أخيه أو شخص آخر عملت سائقاً لديه. (أعترف، سيدي رئيس الوزراء، أنني لست مفكراً أصيلاً بل أنا مستمع أصيل). صحيح أننا، عملياً، السيد آشوك وأنا، لدينا اختلاف أو اثنان حول المصطلح الإنكليزي - ضريبة الدخل - وبدأت الأمور تسوء بيننا، لكن هذا الهراء المتشابك سيأتي دوره لاحقاً في القصة. حالياً نحن في أحسن حال: كنا قد التقينا للتو بعيداً عن دلهي، في مدينة تدعى دانباد.

جئت إلى دانباد بعد وفاة أبي. كان قد مرض لبعض الوقت، ولكن لم يكن هناك مستشفى في لاكسمانغار، بالرغم من أن هناك ثلاثة أحجار أساس لثلاثة مستشفيات وضعها ثلاثة من السياسيين في فترات انتخابية مختلفة. حين بدأ يبصق الدم في ذلك الصباح، أخذناه أنا وكيشان بقارب عبر النهر. بقينا نغسل فمه بماء النهر ولكن الماء كان ملوثاً ما جعله يبصق المزيد من الدم.

كان هناك ساحب عربة في الجانب الآخر من النهر يعرف أبي، فاصطحبنا نحن الثلاثة إلى المستشفى الحكومي المجاني.

عند الدرجات المؤدية إلى البناية البيضاء الباهتة رأينا ثلاث مَعِزات

سوداء جاثمة؛ وكانت الرائحة الكريهة لفضلات الماعز تقتحم البناية من الباب المفتوح. أكثر النوافذ قد تكسر زجاجها؛ بينما ثمة قطة تحدق إلينا من النافذة المتهالكة.

على البوابة يافطة كتب عليها:

مستشفى لوهيا المجاني العام
افتتحه بفخر الاشتراكي الكبير
كبرهان على إيفائه بوعوده

أدخلت وكيشان أبانا، بعد أن دسنا بأقدامنا على فضلات الماعز التي انتشرت على الأرض مثل مجموعة نجوم سوداء. لم يكن هناك طبيب في المستشفى. قال لنا الفتى المسؤول عن الردهة، بعد أن رشوناه بعشر روبيات، إنه قد يأتي عند المساء. كانت الأبواب المؤدية إلى غرف المستشفى مشرعة؛ النوابض الحديدية تبرز من أفرشة الأسرة، والقطة تكشر عن أنيابها منذ اللحظة التي دخلنا فيها إلى الغرفة.

- "الغرف ليست آمنة؛ لأن القطط تذوقت الدم".

كان اثنان من المسلمين قد فرشا جريدة على الأرض وجلسا عليها. أحدهما لديه جرح مفتوح في ساقه. دعانا للجلوس إلى جانبهما هو وصديقه. طرحنا أنا وكيشان أبانا على صفحات الجرائد. وانتظرنا هناك.

جاءت فتاتان صغيرتان وجلستا خلفنا؛ عيون كلتيهما كانت صفراء.

- "يرقان. نقلت (هي) العدوى إليّ".

- "كلا لم أفعل. (أنت) نقلت العدوى إليّ. وها نحن نموت معاً!".

جاء رجل عجوز يضع قطناً على إحدى عينيه ليجلس خلف الفتاتين.

استمر الرجلان المسلمان يفرشان الجرائد على الأرض، وراح

طابور أمراض العيون والجروح النازفة والأفواه الهاذية يتزايد.

تساءلت: "لماذا (لا يوجد) طبيب في المستشفى. هذا هو المستشفى الوحيد في كلتا الضفتين؟".

قال لي العجوز المسلم: "انظر، هكذا تجري الأمور. هنالك مسؤول طبي حكومي واجبه الإشراف على زيارة الأطباء في مستشفيات القرى مثل هذا. وفي كل مرة يفرغ هذا المنصب يدعو الاشتراكي الكبير كل الأطباء الكبار للتنافس عليه. الأجر المقدر المعروف لهذا المنصب أربعمئة ألف روبية في هذه الأيام".

قلت فاغراً فمي على سعته: "هذا كثيرا!".

- "لِمَ لا؟ هنالك مال كثير في الخدمة العامة! تصور الآن أنني طبيب. أستجدي المال وأستدينه ثم أقدمه للاشتراكي الكبير لامساً قدميه. فيقبلني في الوظيفة. وأُقَسِم بالله وبدستور الهند ثم أرفع حذائي على مكتبي في عاصمة الولاية". ورفع قدميه على المكتب المتخيل. "بعد ذلك أستدعي كل أطباء الدولة الصغار، الذين من المفترض أن أشرف عليهم، إلى مكتبي. أخرج سجل الدولة. وأصيح: دكتور رام باندي".

أشار إليّ بإصبعه؛ وخمنت دوري في اللعبة.

فحييته: "نعم سيدي".

مدّ لي يده.

"الآن، أنت، يا دكتور رام باندي، ستضع ثلثاً من راتبك في يدي. ولد طيب. أنا بدوري، سأقوم بما يلي"، ووضع إشارة في سجل حكومي متخيل. "يمكنك أن تحتفظ بباقي راتبك الحكومي، وتذهب للعمل في المستشفيات الخاصة لبقية أيام الأسبوع. انسَ القرية، لأنك وفقاً لهذا السجل موجود (هنا). لقد (عالجت) ساقي المجروحة و(عالجت) هاتين الفتاتين المصابتين باليرقان".

"آه"، قال المرضى. حتى الفتيان المشرفون على الردهات، الذين تجمعوا حولنا ليستمعوا، أومأوا برؤوسهم تقديراً. إن قصص الفساد وعدم النزاهة هي دائماً أفضل القصص، أليس كذلك؟

حين وضع كيشان بعض الطعام في فم أبي، بصقه مع الدم. وراح جسده النحيل الداكن يتشنج، ويفيض دماً من هنا وهناك. الفتاتان المصابتان باليرقان طفقتا تبكيان. وابتعد بقية المرضى عن أبي.

تساءل الرجل العجوز المسلم بينما كان يبعد الذباب عن جرح ساقه: "إنه مصاب بالتدرن الرئوي، أليس كذلك؟".

- "لا نعلم يا سيدي، إنه يسعل منذ مدة ولا نعرف سبب ذلك".

- "إنه التدرن. لاحظته من قبل لدى ساحبي العربات. إنهم يتهالكون من عملهم. ربما يمر الطبيب عند المساء".

لكنه لم يمر. حوالى الساعة السادسة، كما ورد ذلك من دون شك وبكل دقة، في السجل الحكومي الكبير، لقد شفي والدي من التدرن الرئوي، وطلب منا الفتى المسؤول عن الردهة أن ننظف المكان قبل أن نحمل جثمان والدنا. دخلت معزاة تتنشق حينما كنا نزيل الدم عن الأرض. ربت عليها الفتى المسؤول عن الردهة وأطعمها جزراً طرياً بينما كنا ننظف دم أبينا الملوث عن الأرض.

جرى زواج كيشان بعد شهر من حرق جثمان والدي.

كان واحداً من الزيجات الرائعة. فالولد منا، لذلك ضغطنا على عائلة الفتاة. أتذكر بالضبط المهر الذي دفعته عائلة الفتاة والتفكير فيه يجعل فمي إلى الآن يطفح بالماء: خمسة آلاف روبية نقداً، كلها جديدة من المصرف، فضلاً عن دراجة هوائية من نوع هيرو وعقد ثقيل من الذهب لكيشان.

بعد الزواج، أخذت جدتي قَسَم الخمسة آلاف روبية ودراجة الهيرو

والعقد الذهبي الثقيل؛ وأمضى كيشان أسبوعين مع زوجته، بعدها حزم أمره للرحيل إلى دانباد. واصطحبنا معه أنا وديليب ابن عمي. عثرنا نحن الثلاثة على عمل في مقهى في دانباد؛ كان صاحب المقهى قد سمع أخباراً طيبة عن عمل كيشان في المقهى التي في لاكسمانغار.

من حسن الحظ أنه لم يسمع شيئاً عني.

اذهب يا سيدي إلى أي مقهى على طول نهر الغانغا وانظر إلى الرجال الذين يعملون في المقاهي؛ رجال، أقول، ولكن من الأفضل أن نسميهم عناكب بشرية، يزحفون بين الطاولات وتحتها حاملين الخرق بأيديهم، أناس مسحوقون في أزياء مبتذلة، متهالكون، لحاهم غير حليقة، في الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين من أعمارهم لكنهم لا يزالون صبياناً. هذا هو قدرك لو كان عملك جيداً؛ أن تكون نزيهاً وقنوعاً ومخلصاً، كما كان غاندي ليفعل ذلك من دون أدنى شك.

كنت أقوم بواجبي بخبث ومن دون قناعة ولا إخلاص؛ لذلك كانت المقهى تجربة غنية إلى حدٍّ بعيد.

بدلاً من مسح الطاولات وتكسير الفحم لوضعه في الموقد، اعتدت، خلال عملي في المقهى في لاكسمانغار، أن أتجسس على كل زبون في كل الطاولات، وأصغي إلى ما يقوله. كنت قد قررت أنني هكذا سأحصل على تعليمي وأطوره؛ هذا هو الشيء الجيد الذي سأقوله لنفسي. كنت دائماً من المعتقدين بالتعليم، وخصوصاً تعليمي.

كان صاحب المقهى يجلس في الأمام تحت الصورة الكبيرة لغاندي يحرك مستحلب السكر الذي يغلي ببطء. وهو يعلم مبتغاي! كلما رآني أدور حول طاولة أو أتظاهر بأنني أمسح بقعة ما كي أستمع إلى المزيد من الحديث، كان يصيح بي: "أنت أيها اللص"!، ثم يقفز من مقعده، ويطاردني في المقهى بالمغرفة التي كان يحرك بها السكر، ويضربني بها بشدة على رأسي. كان المستحلب السكري شديد الغليان يترك آثاره

كلما لامسني، إذ يترك سلسلة من البقع على أذني التي قد يخطئها الناس ويتصورونها من مرض البهاق أو مرض جلدي ما. إنّ شبكة من البقع الوردية لا تزال موجودة ويمكن أن تكون من علاماتي الفارقة، على الرغم من أن رجال الشرطة أغفلوها.

بالنتيجة، طُردت إلى البيت. ولم يرغب أحد في لاكسمانغار في تشغيلي بعد ذلك، حتى في الحقول. لذلك فعلى الأغلب أن كيشان وديليب جاءا من أجلي إلى دانباد؛ لمنحي فرصة لأعمل عنكبوتاً بشرياً من جديد.

في رحلة رجل الأعمال من القرية إلى المدينة، من لاكسمانغار إلى دلهي، يتجاوز عدداً من المدن الحرفية الصغيرة التي فيها تلوث وضوضاء وزحمة المدن الكبيرة؛ من دون أي إشارة إلى الشعور الحقيقي بالمدينة ولا الإحساس بالتاريخ، والتخطيط والرقي. مدن نصف مخبوزة، بنيت لأناس نصف مخبوزين.

كان هناك مال في الهواء في دانباد. رأيت بنايات جدرانها مصنوعة من الزجاج كلياً، ورأيت رجالاً يضعون أسناناً من الذهب. ذلك الزجاج وذلك الذهب؛ كانا يأتيان من قطع الفحم الصغيرة. ثمة فحم خارج المدينة، فحم أكثر مما يمكن أن تجده في أي مكان في (الظلام)، ربما أكثر من أي مكان في العالم. كان عمال المناجم يأتون ليأكلوا في المقهى التي أعمل فيها؛ وكنت أقدم لهم أفضل خدمة ممكنة لأنه كان لديهم أفضل الحكايات التي تحكى.

كانوا يقولون إن مناجم الفحم تمتد لأميال خارج المدينة. وفي بعض الأحيان كانت هناك نيران تحترق تحت الأرض تبعث الدخان في الهواء؛ نيران ظلت تستعر باستمرار لمئات السنين!

في هذه المقهى، في هذه المدينة التي بنيت بالفحم، وبينما كنت أمسح الطاولات وأتريث للاستماع إلى الأحاديث، تغيرت حياتي.

- "هل تدري؟ في بعض الأحيان أعتقد أنني أخطأت في حياتي

لأنني عملت في الفحم".

- "وماذا يمكن لأناس مثلك ومثلي أن يصبحوا؟ سياسيين؟".

- "جميع الناس الآن لديهم سيارات في هذه الأيام، هل تعرف كم يدفعون لسواقيهم؟ ألفاً وسبعمئة روبية شهرياً!".

رميت خرقتي. وهرعت إلى كيشان الذي كان ينظف الموقد من الداخل.

بعد وفاة والدي تولى كيشان رعايتي. لا أحاول أن أخفي دوره في المقهى فحسب.

في نشأتي التي أصبحت عليها اليوم، لم تكن لديه روح رجال الأعمال أبداً. كان سيكون سعيداً كي يدعني أغطس في الطين.

قال كيشان: "لا تفعل شيئاً، أمرتنا جدتي أن نتشبث بالمقهى؛ وسنتشبث بالمقهى".

ذهبت إلى كل مواقف سيارات الأجرة؛ جثوت على ركبتي متوسلاً غرباء لا أعرفهم؛ لكن أحداً ما لم يوافق على أن يعلمني السياقة مجاناً. يتطلب الأمر مني ثلاثمئة روبية كي أتعلم كيفية قيادة السيارة.

ثلاثمئة روبية!

اليوم في بنغلور لا أجد الكفاية من الناس لأعمالي. يأتي الناس ويرحلون. فالناس الصالحون لا يبقون. أفكر حتى في نشر إعلان في الجريدة.

رجل أعمال في بنغلور يبحث
عن رجال أذكياء للقيام بأعماله.
تقدم في الحال!
نعرض صفقات مغرية مالياً
ودروساً في الحياة والأعمال العامة مجاناً!

اذهب إلى أي نادٍ أو مشرب في بنغلور، وأرهِف سمعك، ستسمع الشيء نفسه: لا نجد ما يكفي من عمال الاتصالات، لا نجد ما يكفي

من مهندسي البرمجة، لا نجد ما يكفي من مديري المبيعات. هنالك عشرون إلى خمس وعشرين من صفحات الإعلانات عن الوظائف تنشر في الصحف أسبوعياً.

الأشياء مختلفة في الخفاء. ثمة، في كل صباح، عشرات الآلاف من الشباب الذين يجلسون في المقاهي، يقرأون الجريدة أو يدندنون بنغم ما أو يجلسون في غرفهم يتحدثون إلى صورة فوتوغرافية لممثلة في السينما. ليس لديهم وظيفة يقومون بها اليوم. يعلمون أنهم لا يحصلون على عمل اليوم. وقد تخلوا عن المجاهدة من أجل ذلك.

إنهم الأشخاص الأذكياء.

البلهاء تجمعوا في ميدان في مركز المدينة. بين الفينة والأخرى تمر شاحنة، ويندفع نحوها الرجال الذين في الميدان ممدودي الأيدي صائحين: "خذني! خذني!".

كان الجميع يدفعونني؛ فأدفعهم بدوري، لكن الشاحنة لم تغرف غير ستة أو سبعة أشخاص، وتركت الباقين خلفها. انصرفوا نحو عمل في البناء أو الحفر؛ المحظوظون السفلة. نصف ساعة أخرى من الانتظار. أتت شاحنة أخرى. تزاحم آخر، وصراع آخر. بعد الصراع الخامس أو السادس في اليوم، وجدت نفسي أخيراً على رأس الحشد، وجهاً لوجه مع سائق الشاحنة. كان من السيخ، رجل يلفّ على رأسه عمامة زرقاء كبيرة، ويحمل عصا خشبية. لوح بعصاه كي يبعد الحشد إلى الوراء.

صاح بهم: "ليخلع الجميع قمصانهم! لا بد لي من أن أرى حلمة الرجل قبل أن أمنحه عملاً!".

نظر إلى صدري؛ ضغط الحلمتين، ضرب وسط صدري، حدّق إلى عينيّ، لكزني بالعصا على فخذي: "اللعنة! نحيف جداً!".

- "امنحني فرصة يا سيدي، جسدي صغير ولكن فيه عزيمة كبيرة. سأحفر لك، سأنقل لك الإسمنت بالعربة".

لوح بعصاه؛ ضربني على أذني اليسرى. سقطت، واندفع آخرون ليأخذوا موقعي.

جلست على الأرض، ومسحت أذني، وشاهدت الشاحنة تخلف سحابة من الغبار.

مر ظل لصقر فوق جسدي. فبكيت.

- "النمر الأبيض! ها أنت ذا!".

رفعني كيشان وابن عمي ديليب عن الأرض، كانت هناك ابتسامتان على وجهيهما. لديهما أخبار سارة! وافقت الجدة، وسمحت لهما بدفع تكاليف في دروسي لتعلّم السياقة. قال كيشان: "هنالك شرط واحد، تقول جدتي إنك خنزير جشع. تريدك أن تُقسِم إنك لن تنساها حين تغدو غنياً".

- "أقسِم".

- "اقرص رقبتك وأَقسِم؛ إنك ستبعث بكل روبية تحصل عليها كل شهر إلى الجدة".

ذهبنا إلى المنزل الذي يقطنه سواق الأجرة. التقينا برجل عجوز يرتدي زياً بنياً، كأنه من أزياء الجيش القديم. كان يدخن النرجيلة التي يسخنها بإناء من الفحم. شرح له كيشان الأمر.

تساءل السائق العجوز: "من أي طائفة أنتم؟".

- "حلوي".

- "صانعو الحلوى"، قال السائق العجوز هازاً رأسه، "هذا هو عملكم. تصنعون الحلوى. كيف يمكنكم أن تتعلموا السياقة؟". وجّه نرجيلته نحو الفحم. "هذا يشبه إعداد الأرز على الفحم بالنسبة إليكم. إن السيطرة على السيارة، وتحريك ناقل سرعة السيارة غير المرئي، مثل ترويض حصان بري. ليس غير الفتى المتحدّر من الطوائف المحاربة يمكنه أن يتدبر ذلك. أنت تحتاج إلى أن تكون هناك عدوانية في دمك.

المسلمون والرجبوت والسيخ؛ هم من المقاتلين، هؤلاء يمكنهم أن يصبحوا سائقين. هل تعتقدون أنتم يا صانعي الحلوى أنكم تثبتون في السياقة في التحويلة الرابعة؟".

تعلّم الفحمُ صناعة الثلج، نبدأ غداً عند السادسة صباحاً. أجرتي ثلاثمئة روبية فضلاً عن مكافأة. تمرّنا على سيارة أجرة. كل مرة أُخطئ فيها مع ناقل السرعة كان يصفعني على رأسي. "لماذا لا تبقى في عمل الحلوى وتحضير الشاي؟".

مقابل كل ساعة أمضيها في السيارة، يجعلني أبقى تحتها ساعتين أو ثلاث؛ جعلوا مني عامل تصليح مجاني لكل السيارات التي في الموقف؛ في ساعة متأخرة من مساء كل يوم كنت أخرج من تحت سيارة أجرة مثل خنزير يخرج من المجاري، وجهي أسود من الزيوت، ويداي تلمعان. غُطست في الغانغا الأسود وخرجت سائقاً.

قال لي السائق العجوز عندما سلمته الثلاثمئة روبية التي وعدناه بها على أنها مكافأة: "اسمع، لا يكفي أن تقود السيارة فقط. لا بد لك من أن تصبح سائقاً. لا بد لك من أن تتخذ الموقف الصحيح، هل فهمتني؟ كل من يحاول أن يتجاوزك في الطريق افعل هكذا" - شد قبضته وهزها - "واشتمه عدة مرات. إن الطريق غابة، أفهمت؟ يجب على السائق الجيد أن يحدث ضجة كي يسير إلى الأمام".

وربّت على ظهري.

- "أنت أفضل مما توقعت؛ أنت صفقة جيدة أيها الشاب الصغير. لدي مكافأة لك".

سار وتبعته. كان الوقت مساء. سرنا عبر شوارع وأسواق مظلمة. سرنا لنصف ساعة، بينما كان كل شيء حولنا يعتم، وصلنا إلى مكان يبدو أنه للألعاب النارية.

كان الشارع مملوءاً بالأبواب والشبابيك الملونة، وكانت هناك امرأة

تنظر إلـيّ بابتسـامة عريضـة. رأيت أشـرطة من الـورق الأحمر والمعدن الفضي تلمع على الأسـطح المطلة على الشـارع؛ وكان الشـاي يغلي في المواقف على جانبي الطريق. اندفع نحونا في الحال أربعة رجال. أوضح لهم السائق العجوز أن عليهم الابتعاد لأنها المرة الأولى لي. "دعوه يتمتع بالمناظر أولاً. هذا هو أهم جزء في اللعبة، أليس كذلك؛ النظر!".

تراجع الرجال وقالوا: "بالتأكيد، بالتأكيد. هذا ما نريد منه أن يفعله؛ أن يتمتع!".

سـرت مع السـائق العجوز، فاتحاً فمي، مندهشـاً من حضور كل أولئك النسوة رائعات الجمال يسخرن مني ويوبخنني من خلف نوافذهن المتشابكة؛ ويدعونني كي...!

شرح لي السائق العجوز طبيعة البضائع المعروضة. في واحدة من البنايات، كن يجلسـن على حافة النافذة بطريقة يمكننا أن نرى الامتداد الكامل لسـيقانهن الداكنة اللامعة، أولئك هن الأميركيات: فتيات بتنانير قصيـرة وأحذيـة عاليـة الكعـب، يحملـن حقائـب يدويـة ورديـة كتبـت أسـماؤهن عليها بحروف براقة. كن رشـيقات، وذوات أجسـاد رياضية؛ مـن أجـل الرجـال مـن النـوع الغربـي. في هذه الزاويـة وعلى عتبة منزل مفتوح، النسوة التقليديات؛ بدينات يرتدين الساري، من أجل أولئك الذين يحترمون نقودهم. ورأيت المخصيين عند إحدى النوافذ؛ ومراهقات عند النافـذة المجـاورة. ظهـر وجـه فتـى صغير من بين سـاقي إحدى النسـوة وعاد ليختفي.

ضوء سـاطع يعمي الأبصار: فُتِح باب أزرق لتطل منه أربع نسـاء نيباليات من ذوات البشرة البيضاء يرتدين تنانير حمراء.

صحت: "هن! هن! هن! هن!".

فقال السائق العجوز: "حسناً، أنا الآخر أحببتهن؛ فأنا دائماً ما أختار الأجنبيات".

دخلنـا، والتقـط واحـدة مـن الأربـع، وأنـا التقطت واحـدة، ودخل كل واحـد منـا مـع امـرأة إلـى غرفـة. أغلقـت المرأة التـي اخترتها الباب خلفي.

تجربتي الأولى!

بعد نصف سـاعة، عدنا أنا والسـائق العجوز نترنح سـعيدين إلى منزله، وضعت الفحم فوق نرجيلته. جلبتها له وراقبته وهو يسحب نفساً عميقاً من الأنبوب حتى خرج الدخان من منخريه.

- "مـاذا بعـد الآن؟ علمتـك السـياقة وكيـف تكون رجلاً، ما الذي تريده أكثر من ذلك؟".

- "سـيدي... هل يمكنك أن تسـأل السـائقين إن كانوا بحاجة إلى سائق؟ سأعمل مجاناً في البداية. أريد عملاً".

ضحك السـائق العجوز: "أيها المغفل، لم أحصل على عمل منذ أربعين عاماً، كيف لي أن أساعدك؟ - وأطلق سيلاً من الشتائم - أنت ضائع الآن".

لذلك، كنت أمشـي في الصباح التالي من منزل إلى منزل، أطرق على البوابات وعلى الأبواب الأمامية للأغنياء، أتساءل إن كان أحد منهم يريد سائقاً، سائقاً ماهراً، سائقاً ذا خبرة لسيارتهم.

جميعهم رفضوني. لن تحصل على عمل بهذه الطريقة. عليك أن تعرف أحداً في العائلة وليس بطرق الأبواب والسؤال.

لا توجد مكافأة للعمل الحر في الهند كلها، يا صاحب السـعادة. إنه واقع محزن.

كنت كل يوم أعود منهكاً وأكاد أجهش بالبكاء. لكن كيشـان كان يقول لي: "لا تيأس، استمرّ في المحاولة. لا بد من أن أحداً ما سيقول لك نعم في النهاية".

لذلك ذهبت أبحث مرة أخرى من منزل إلى منزل، ومن منزل إلى منزل. أخيراً، بعد أسبوعين من السؤال، وبعد أن أوشكت على الضياع،

وصلت إلى منزل ارتفاع جداره عشر أقدام، وهنالك شبكة حديدية تحيط بنوافذه.

أطل نيبالي أحول خبيث ذو شاربين أبيضين برأسه، ونظر إليّ من خلف قضبان البوابة.

- "ماذا تريد؟".

لم تعجبني الطريقة التي سألني بها ذلك الهزيل؛ فرسمت ابتسامة على وجهي.

- "هل تحتاجون إلى سائق؟ لدي خبرة أربع سنوات. سيدي توفي منذ فترة قريبة، لذلك أنا...".

قال النيبالي: "اذهب من هنا. لدينا سائق". وطوّح بيده بحزمة من المفاتيح وكشر في وجهي.

هبط قلبي إلى الأرض، وأوشكت أن أستدير راحلاً، لكنني رأيت شخصاً يرتدي ملابس بيضاء عريضة ويدور ويدور ويدور، بدا مستغرقاً في التفكير. أُقسِم لك بالله يا سيدي إنني في اللحظة التي رأيت فيها وجهه علمت؛ هذا هو السيد الذي سأعمل لديه.

قدر غامض ربط حياته بحياتي، لأنه في تلك اللحظة بالضبط نظر إليّ.

كنت أعرف أنه نظر لينقذني. كل ما عليّ عمله هو أن أُلهي هذا النيبالي اللعين قدر ما أستطيع.

- "أنا سائق ماهر يا سيدي. لا أدخن ولا أثمل ولا أسرق".

- "اذهب من هنا، ألا تفهم؟".

- "أنا لا أسيء لصاحب العمل ولا أسيء لعائلتي".

- "ابتعد في الحال".

- "لا أثرثر بشأن سادتي، ولا أسرق ولا أي شيء آخر".

عند ذاك بالضبط فتح باب البيت. لكنه لم يكن الرجل الذي على

المصطبة؛ كان رجلاً أكبر سناً، له شاربان أبيضان كثّان منحنيان وحادّان عند نهايتيهما.

سأل النيبالي: "ماذا يجري يا رام باهادور؟".

- "إنه يتسوّل يا سيدي. يتسوّل من أجل المال".

فطرقت البوابة. "أنا من قريتك يا سيدي. أنا من لاكسمانغار! القرية القريبة من القلعة السوداء! قريتك!".

كان العجوز هو اللقلق!

حدّق إليّ لفترة طويلة، ثم قال للحارس النيبالي: "دع الفتى يدخل".

سووووش! حالما فتحت البوابة هرعت مباشرة لأكون عند قدمي اللقلق. ليس هنالك عدّاء أولمبي كان يمكن أن يكون أسرع مني في الدخول من البوابة؛ لم أتِح الفرصة للنيبالي ليمنعني.

كان عليك أن تراني في تلك الليلة؛ أي مشهد من العويل والتقبيل والدموع! لكنت اعتقدت أنني قد ولدت من طائفة الممثلين! وإذ كنت ملتصقاً بقدمَي اللقلق، كنت في الوقت نفسه أحدق إلى الأظافر الكبيرة والقذرة والطويلة لقدميه وأفكر: "ما الذي يفعله في دانباد؟ لماذا لا يعود إلى القرية، يسلب فقراء الصيادين أموالهم ويقيم علاقة مع بناتهم؟".

قال: "انهض أيها الفتى". كان ظفر إصبع قدمه الطويل والكبير قد خدش خدي. كان السيد آشوك؛ الرجل الذي كان على المصطبة واقفاً إلى جانبه في تلك اللحظة.

- "هل أنت حقاً من لاكسمانغار؟".

- "أجل يا سيدي. كنت قد عملت في المقهى؛ تلك التي فيها صورة كبيرة لغاندي. كنت أعمل في تكسير الفحم هناك. وقد جئت أنت مرة لشرب الشاي".

- "آه... القرية القديمة". أغمض عينيه. "ألا يزال الناس هناك

يتذكرونني؟ لم أذهب إلى هناك منذ ثلاث سنوات".

- "بالطبع يا سيدي. يقول الناس: لقد رحل أبونا، رحل طاغور(*) رامديف. رحل أفضل الملاّكين، فمن سيحمينا؟".

استمتع اللقلق بسماع ذلك. فالتفت إلى السيد آشوك.

- "لنرَ كم هو بارع. استدعِ السيد موكيش. دعونا نذهب في جولة".

عرفت بعد حين كم كنت محظوظاً. كان السيد آشوك قد جاء من أميركا في اليوم السابق فقط؛ وقد جلبوا له سيارة. وكانوا يحتاجون إلى سائق للسيارة. وفي ذلك اليوم بالضبط كنت قد جئت.

ثمة سيارتان في المرأب. واحدة من سياراتكم الأصيلة ماروتي سوزوكي - تلك السيارة الصغيرة البيضاء التي تراها في الهند كلها - وكانت الثانية سيارة الهوندا سيتي. سيارة الماروتي الصغيرة والبسيطة هي خادم مخلص للسائق؛ في اللحظة التي تضع فيها مفتاح التشغيل، تقوم بما يريد منها السائق أن تفعله بالضبط. أما سيارة الهوندا سيتي فكبيرة، شيء فخم، ذات خصوصية معينة؛ لها مقود يعمل بنظام الباور وذات ناقل سرعة متطور، وتعمل ما تريده هي. وإذ أدركت ذلك كنت مشدود الأعصاب، إن طلب مني اللقلق أن أخضع للاختبار بسيارة الهوندا سيتي، فستكون تلك هي نهايتي يا سيدي. لكن الحظ كان إلى جانبي.

طلبوا مني قيادة الماروتي سوزوكي.

صعد اللقلق والسيد آشوك في الخلف؛ وصعد إلى جانبي رجل نحيل داكن البشرة، هو سيدي موكيش، الابن الآخر للقلق؛ وراح يملي عليّ الأوامر. ظل الحارس النيبالي يراقبني بوجهه الفاحم بينما كنت أخرج بالسيارة من البوابة إلى مدينة دانباد.

(*) شاعر وفيلسوف هندي من مدينة كالكوتا، حاز على جائزة نوبل عام 1913.

جعلوني أستمر في قيادة السيارة لنصف ساعة ثم أُمرت بالعودة.

قال الرجل العجوز وهو يخرج من السيارة: "ليس سيئاً، سائق جيد وحذر. أخبرني بلقبك ثانية؟".

- "حلوي".

- "حلوي..." والتفت إلى الرجل النحيل داكن البشرة. "من أي طائفة هؤلاء، من القمة أو من الدون؟".

كنت أعلم أن مستقبلي كان يرتبط بجواب هذا السؤال.

* * *

لا بد لي من أن أوضح أمراً أو اثنين بشأن الطائفة. حتى الهنود أنفسهم تختلط عليهم هذه الكلمة، وخصوصاً المتعلمون في المدن. إن شرحوها لك، فسيدخلونك في متاهة. ولكنها بسيطة في الواقع.

دعنا نبدأ مني.

انتبه: حلوي، الذي هو لقبي، يعني صانع الحلوى.

تلك هي طائفتي؛ قدري. كل من هو في (الظلام) ويسمع ذلك الاسم سيعرف عني كل شيء. من أجل ذلك كنا أنا وكيشان نجد عملاً عندما نذهب إلى متاجر الحلوى في أي مكان نقصده. يقول صاحب المتجر: "آه، إنهم حلويون، وصناعة الحلوى والشاي تجري في دمائهم".

لكن إن كنا من الحلويين، لماذا لم يكن أبي يصنع الحلوى بل كان ساحب عربة؟ لماذا نشأت أكسر الفحم، وأمسح الطاولات بدلاً من أن آكل الحلوى الهندية والفطائر المحلاة وقتما وأينما أشاء؟ لماذا أنا داكن البشرة ونحيف وماكر، ولست بديناً ولوني بلون الكريما وأبتسم، كفتى تربى على الحلوى؟

انظر إلى هذه البلاد، في عصرها الذهبي، عندما كانت من أغنى البلاد في العالم، كانت مثل حديقة حيوانات. حديقة نظيفة ومنظمة. كل

واحد في مكانه وكلهم كانوا سعداء. صائغو الذهب هنا. مربو الأبقار هنا. الملاّكون هناك. الرجل الذي يلقب بالحلوي يصنع الحلوى. الرجل الذي يلقب براعي البقر يرعى الأبقار. هنالك الفضلات النظيفة التي لا يلمسها أحد. كان الملاّكون لطفاء مع المزارعين في أراضيهم. والنساء يغطين رؤوسهن بخمار ويطرقن إلى الأرض حين يتحدثن إلى رجل غريب.

بعد ذلك، لا بد من شكر الساسة في دلهي، في 15 آب 1947 - في اليوم الذي رحل فيه البريطانيون - فتحت الأقفاص؛ وطفقت الحيوانات تهاجم بعضها البعض، واستبدل قانون حديقة الحيوان بقانون الغابة. أولئك الذين كانوا أكثر شراسة، والأكثر نهماً، التهموا الآخرين وكبرت كروشهم. المهم الآن هو حجم كرشك. لا يهم من تكون، امرأةً أو مسلماً أو أي شخص لا يمس؛ أي شخص بكرش يمكن أن يعلو. كان لا بد لأبي من أن يكون حلوانيّاً حقيقياً، صانع حلوى، ولكنه حين ورث المتجر، لا بد من أن أحداً من طائفة أخرى قد سرقه منه بمساعدة الشرطة. ولم يكن لأبي كرش للصراع. لذلك وقع في الوحل إلى مستوى ساحب العربة. ولذلك تم خداعي ومنعي من قدري لأكون بديناً وذا جلد بلون الكريما ومبتسماً.

الخلاصة، في الأيام الخوالي كانت هنالك ألف طائفة ومصائر مختلفة في الهند. أما في هذه الأيام فليس هناك إلا طائفتان: طائفة الناس ذوي الكروش الكبيرة وطائفة الناس ذوي البطون الضامرة.

ليس هنالك إلا مصيران: أن تأكل أو تؤكل.

* * *

لم يستطع الرجل النحيل داكن البشرة - السيد موكيش شقيق السيد آشوك - أن يجيب. قلت لك إن الناس في المدن لا يعرفون شيئاً بشأن نظام الطوائف، لذلك التفت اللقلق إليّ وسألني مباشرة:

- "هل أنت من طائفة راقية أم متدنية أيها الفتى؟".

لم أكن أعرف ما الذي يريده مني، لذلك قلبت الجوابين – ربما كان يمكنني الاستفادة من الاحتمالين – ثم قلت: "أنا من القاع يا سيدي".

فقال الرجل العجوز ملتفتاً إلى سيدي موكيش: "كل الذين يعملون لدينا هم من أعلى الطائفة. فلا بأس أن يكون لدينا واحد أو اثنان من أدنى الطائفة للعمل عندنا".

نظر سيدي موكيش إليّ بعينين ضيقتين. لم يكن يعرف طرقات القرية، ولكنه كان يحتفظ بكل مكر الملاّكين.

- "هل تحتسي الشراب؟".

- "كلا يا سيدي. نحن في طائفتنا لا نحتسي الشراب أبداً".

تساءل السيد آشوك بابتسامة عريضة: "حلوي... هل أنت صانع حلويات؟ هل ستحضّر لنا الحلوى خارج أوقات السياقة؟".

- "بالتأكيد يا سيدي. أنا صانع حلويات ماهر. أحضّر حلويات لذيذة من الغولاب واللادوز، أي شيء ترغب فيه. لقد عملت في مقهى لسنوات عدة".

بدا أن السيد آشوك قد وجد ذلك ممتعاً. قال: "في الهند فحسب، يمكن لسائقك أن يصنع لك الحلويات أيضاً، في الهند فحسب. ابدأ العمل غداً".

فقال سيدي موكيش: "ليس بهذه السرعة. علينا أولاً أن نسأل عن أفراد عائلته. كم عددهم، وأين يعيشون، كل شيء. وشيء آخر: كم تريد؟".

اختبار آخر.

- "لا شيء مطلقاً يا سيدي. أنتم كأمي وأبي، كيف لي أن أطلب المال من والديّ؟".

قال: "ثمانمئة روبية في الشهر".

- "كلا يا سيدي، أرجوك؛ هذا كثير جداً. أعطني نصف هذا المبلغ،

إنه كافٍ، أكثر مما أريد".

- "إن احتفظنا بك لأكثر من شهرين، سيصل إلى ألف وخمسمئة".

قبلت المبلغ بادياً عليّ أنني مجبر.

لم يكن سيدي موكيش مقتنعاً بي. فنظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل وقال: "إنه صغير. ألسنا بحاجة إلى من هو أكبر سناً؟".

هز اللقلق رأسه. "خذوهم صغاراً لتحتفظوا بهم مدى الحياة. لو أنك أخذت سائقاً في الأربعين من العمر، كم سيخدمك؟ سيخدمك عشرين سنة ثم يضعف نظره. هذا الشخص سيخدمك لثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة. أسنانه قوية، شعره مقصوص، إنه حسن المظهر".

امتص من عصير نبات التنبول، الذي كان يملأ فمه، ثم التفت، وبصق رشقة من سائل أحمر.

ثم طلب مني أن أعود بعد يومين.

كان من اللازم أن يتصل هاتفياً برجله في لاكسمانغار. ويجب على ذلك الرجل أن يذهب ليكلّم قَسَم، ويسأل الجيران عنا، ويعود ليتصل به: "لديه عائلة طيبة. لم يقوموا بأي مشاكل. توفي الأب قبل بضع سنوات مضت بالتدرن الرئوي. كان ساحب عربة. أخوه في دانباد أيضاً، ويعمل في مقهى. ليس له تاريخ في دعم الناكساليين أو باقي الإرهابيين. لم ينتقلوا إلى هنا وهناك: نحن نعرف أين يسكنون بالضبط".

كان الجزء الأخير من المعلومات مهماً جداً. كان يتحتم عليهم أن يعرفوا المكان الثابت لعائلتي.

لم أخبرك حتى الآن بما فعله الجاموس لخادمه في البيت. ذلك الذي كان من المفترض أن يحرس ولده الصغير الذي خطفه الناكساليون ثم عذبوه وقتلوه. كان الخادم واحداً من طائفتنا يا سيدي. حلوي. رأيته مرة أو مرتين عندما كنت يافعاً.

قـال الخـادم إن لا علاقـة لـه بعملية الاختطاف. لكن الجاموس لم يصدقه وجاء بأربعة من الجلادين الذين استأجرهم ليعذبوا الخادم. وفي النهاية أطلقوا النار على رأسه.

ذلك أمر عادل. كنت لأفعل الشـيء نفسـه لمن يسـمح باختطاف ولدي.

لكـن بعـد ذلـك، لأن الجامـوس كان متأكداً أن الرجل كان متورطاً فـي اختطـاف ولـده مـن أجـل المال، فقد لاحـق عائلة الخادم. كان أحد إخوته قد أرسـل للعمل في الحقول لبعض الوقت، وهناك ضرب حتى لقـي حتفـه، وقُتِـل أخـو زوجته من قِبَل ثلاثة رجال يعملون معه. وقُتِلت شـقيقته التي لم تكن متزوجة بعد هي الأخرى. ثم أحيط المنزل الذي كانت تسـكنه العائلة من قِبَل الرجال المحدودبين الأربعة وأضرموا فيه النار.

الآن يا سـيدي، من يريد أن يحدث هذا لعائلته؟ أي مسـخ تعس يمكن أن يريد إرسال جدته وأخيه وعمته وأولاد أعمامه وبنات أعمامه إلى الموت؟

كان على اللقلق وأبنائه أن يتيقنوا من ولائي لهم.

عندمـا عـدت، فتـح لـي الحـارس النيبالـي البوابـة مـن دون كلمة. فدخلت المبنى.

في ما يخص سـادتي، السـيد آشـوك وموكيش واللقلق كان الحال أفضل من تسعة بالعشرة. ثمة دائماً ما يكفي من الطعام للخدم. في أيام الآحـاد يمكنـك الحصـول علـى طبـق خاص، أرز مخلـوط بقطع حمراء مـن لحـم الدجـاج. لـم يتسـنَّ لـي في حياتي أن تناولـت طبقاً معتاداً من الدجاج حتى ذلك الحين؛ كان ذلك يُحدث لديك الشعور بأنك ملك، تأكل الدجاج كل يوم أحد ثم تلعق أصابعك. خصصت لي غرفة مسقوفة للنوم. صحيح أنه كان عليّ أن أتقاسـمها مع سـائق آخر، وهو شـخص

متجهم اسمه رام بيرساد، وله السرير الجميل الكبير، بينما كنت أنام على الأرض؛ ولكن الغرفة المسقوفة هي غرفة مسقوفة وأفضل بكثير من النوم في الشارع، كما كنا نفعل أنا وكيشان طوال الوقت الذي كنا فيه في دانباد. وفوق كل ذلك حصلت على الشيء الذي كنا نحن الذين نشأنا في (الظلام) ننظر إليه على أنه الأعلى قيمة وهو الزي الخاص. زي خاص باللون الكاكي!

في اليوم التالي ذهبت إلى المصرف؛ ذلك الذي عملوا له جداراً من الزجاج. رأيت صورتي منعكسة على ألواح الزجاج، فبدوت مغطى بالكاكي. كنت أتمشى جيئة وذهاباً أمام ذلك المصرف لعشرات المرات مندهشاً من نفسي.

لو أنهم أعطوني صافرة فضية لكنت في النعيم!

كان كيشان يأتي ليراني مرة في الشهر. قررت قَسَم أنني من الممكن أن أحتفظ لنفسي بتسعين روبية في الشهر: أما الباقي فيأخذه كيشان مباشرة؛ وهو بدوره كان يرسله مباشرة إليها؛ إلى القرية. كنت أسلمه النقود عبر القضبان السوداء للبوابة الخلفية، ونتكلم لبضع دقائق قبل أن يصيح بنا النيبالي: "هذا يكفي، هنالك عمل للفتى ولا بد له من أن ينجزه الآن!".

كان عمل السائق الثاني بسيطاً. السائق الأول مشغول بقيادة السيارة لنقل السادة حول المدينة بسيارة الهوندا سيتي، وإن كان هنالك أحد في المنزل يود الذهاب إلى السوق، أو إلى منجم الفحم أو إلى محطة القطار، فعليّ أن أقود الماروتي سوزوكي لأقلهم بها. وإلا، أبقى قريباً حول المنزل، وأقوم بعمل مفيد.

أقول الآن إنهم اتخذوا مني سائقهم. ولا أعرف بالضبط كيف تنظمون الأمر مع خدمكم في الصين. لكن في الهند - أو، على الأقل، في (الظلام) - لا يكون للأغنياء سائقون ولا طباخون ولا حلاقون ولا

خياطون. لديهم، بكل بساطة، خدم.

أقصد بذلك أنني في أي وقت لا أقود فيه السيارة، عليّ أن أكنس الباحة، وأعد الشاي، وأزيل شبكات العناكب بمكنسة طويلة، أو أُبعِد بقرة عن المبنى. هنالك شيء واحد لا يسمح لي بعمله، وهو أن ألمس سيارة الهوندا سيتي: رام بيرساد وحده الذي يسمح له بقيادتها وتنظيفها. كنت أراقبه في أوقات المساء يمسحها بقطعة قماش ناعمة. وكنت أحترق من الحسد.

كنت أرى، ولو من الخارج، أنها سيارة جميلة وحديثة تحتوي على كل وسائل الراحة الضرورية؛ فيها نظام صوتي، ومكيف هواء، ومقاعد جلدية وثيرة، وإناء للبصاق من مادة الفولاذ الصقيل في الخلف. لا بدّ من أن سيارة رائعة مثل هذه ستكون النعيم بحدّ ذاته. كل ما لدي هي سيارة ماروتي سوزوكي بالية.

في إحدى الأمسيات بينما كنت أراقب، جاء السيد آشوك، ودس أنفه في السيارة. واكتشفت أنه كان رجلاً فضولياً جداً.

- "ما عمل ذلك الشيء؟ ذلك الشيء اللامع في الخلف".

- "إنه للبصاق يا سيدي".

- "ماذا؟".

وضّح له رام بيرساد. هذه المبصقة للّقلق، الذي يعجبه أن يلوك البان. لو أنه بصقه خارج النافذة فقد يلتصق بجانب السيارة، لذلك يبصقه قريباً من قدميه، في المبصقة، التي يغسلها السائق، وينظفها بعد كل جولة.

فقال السيد آشوك: "شيء مقزز".

كان يسأل عن شيء آخر عندما جاء روشان ابن سيدي موكيش راكضاً وبيده خفاش من البلاستيك وكرة.

أشار رام بيرساد بإصابعه نحوي.

(إنّ لَعِبَ الكريكيت مع أي ولد مدلل في المنزل يريد اللعب وجعله

يفوز بكل لطف، كانا من الواجبات المطلوبة من السائق رقم 2).

التحق السيد آشوك باللعبة. وقف ليلعب دور حارس الباب الصغير بينما كنت أنا أضرب كل الضربات للولد المدلل.

صاح الولد كل مرة يصيب فيها الكرة ست أو أربع مرات: "أنا أزهر الدين، كابتن الهند!".

- "سمِّ نفسك كافاسكار. فأزهر الدين مسلم".

كان ذلك هو اللقلق. جاء إلى الباحة للفرجة.

قال السيد آشوك: "أي شيء تافه تقوله! هندوسي أو مسلم، أي فرق في ذلك؟".

فردّ اللقلق: "دعنا منكم أنتم الشباب وأفكاركم الحديثة". وضع يديه عليّ. "يتوجب عليّ أن أسرق السائق منك يا روشان؛ أنا آسف، سأعيده لك بعد نصف ساعة، حسناً؟".

كان للّقلق استخدام خاص للسائق الثاني. كانت ساقاه تؤلمانه وفيهما أوردة زرقاء، وقد أخبره الطبيب أن يجلس في الباحة عند المساء ويضع قدميه في ماء دافئ ويقوم الخادم بتدليكهما.

لا بد لي من أن أسخن الماء على الموقد، وأحمله إلى الباحة، وأرفع قدمي الرجل العجوز الواحدة بعد الأخرى لأضعهما في الماء الدافئ، وأدلكهما برفق؛ وما إن أقوم بذلك حتى يغمض عينيه ويئن.

بعد نصف ساعة، كان يقول: "لقد برد الماء"، عندها أُخرج قدميه الواحدة بعد الأخرى من الوعاء وآخذه إلى الحمام لأفرغ الماء منه. كان الماء الذي فيه داكناً: امتلأ بالجلد الميت، وطفت فيه أجزاء صغيرة من الشعر. يتوجب عليّ أن أملأ الوعاء بماء دافئ جديد، وأعيد الكرة.

بينما كنت أدلك قدميه، سحب ولداه كرسيين، وجلسا إلى جانب والدهما ليتحدثا إليه. جاء رام بيرساد بزجاجة مليئة بسائل ذهبي وسكب لهم في ثلاث كؤوس، ثم وضع فيها مكعبات من الثلج. ينتظر الولدان أن

يأخذ أبوهما أول رشفة ويقول: "آه... شراب اسكتلندي. كيف سنعيش في هـذا البلـد مـن دونـه؟"، ثـم يبدأ الحديث. كلما طال الحديث، كلما زادت سـرعتي في التدليك. تحدثوا في السياسـة والفحم وعن بلدكم؛ الصين. على نحو ما كانت هذه الأشـياء - السياسـة والفحم والصين - مرتبطة بثروات العائلة التي تعود للّقلق؛ وفهمت، على نحو غامض، أنني ما دمت قد أضحيت جزءاً من هذه العائلة الآن، فقد ارتبطت أنا الآخر بهذه الأشياء الثلاثة. اختلطت الثرثرة عن الفحم والصين برائحة الشراب التي كانت تنبعث من الكؤوس، ورائحة العرق الكريهة من قدمي اللّقلق الغاطستين في الماء الدافئ وتقشُّر جلده والوخزات الخفيفة لحذاء السيد آشـوك أو النمس (السـيد موكيش) عندما تصطدم بظهري كلما تحرك. إنني أمتص كل شيء؛ تلك هي الحالة المدهشة عن رجال الأعمال. إننا مثل الإسفنج؛ نمتص ونكبر.

تلقيت لطمة حادة على رأسي.

نظرت إلى الأعلى، ورأيت اللّقلق لا يزال رافعاً يده فوق رأسـي، ويحملق بي.

- "هل تعلم ما هو الغرض من ذلك؟".

قلت بابتسامة عريضة ارتسمت على وجهي: "نعم يا سيدي".

- "حسناً".

بعد دقيقة لطمني مجدداً على رأسي.

- "أخبره ما الغرض من ذلك يا أبي. لا أظنه يعرف. أنت تضغط بقوة أيها الفتى. تبدو سعيداً جداً. لقد أزعجت والدي. تمهل".

- "نعم سيدي".

- "هل أنت مضطر إلى ضرب الخدم يا أبي؟".

- "هذه ليست أميركا يا بني. لا تسأل أسئلة مثل هذه".

- "لماذا لا أسأل أسئلة مثل هذه؟".

"إنهم يتوقعون هذا منا يا آشوك. تذكر ذلك إنهم يحترموننا لهذا السبب".

لم تشارك السيدة بنكي في هذه الأحاديث كلها. ما عدا لعب الريشة مع رام بيرساد، وهو الشيء الذي تلعبه واضعة النظارة السوداء، لم تكن تخرج من غرفتها أبداً. وكنت أتساءل ما الذي يحصل معها؛ هل كانت على خلاف مع زوجها؟ هل كان يرضيها في الفراش؟

عندما قال اللّقلق: "أمسى الماء بارداً"، للمرة الثانية، وأخرج قدميه من الوعاء، فمعنى ذلك أن عملي قد انتهى.

سكبت الماء في الحوض.

غسلت يديّ لمدة عشر دقائق، ثم نشفتهما، وعدت لغسلهما، ولكن ذلك لم ينفع. إثر تدليكك قدمي رجل مسنّ، لا تغدو يداك نظيفتين مهما غسلتهما، إذ إن رائحة جلده العجوز المتقشر ستبقى على جلدك طوال اليوم.

* * *

ثمة شيء واحد فحسب يتوجب على الخادم رقم 1 أن يقوم به مع الخادم رقم 2. فمرة واحدة في الأسبوع على الأقل، وقرابة الساعة السادسة، نخرج أنا ورام بيرساد باتجاه الشارع الرئيسي حتى نصل إلى مخزن وضعت عليه اللافتة التالية:

متجر جاكبوت للمشروبات الإنكليزية

تباع هنا المشروبات الأجنبية المصنعة في الهند

لا بد لي من أن أوضح لك، سيد جياباو، أن لدينا في هذه البلاد نوعين من الرجال: رجال يشربون المشروبات الهندية، ورجال يشربون المشروبات الإنكليزية. المشروبات الهندية هي لأبناء القرى مثلي، وهي: التودي وبقية المشروبات الرخيصة. أما الإنكليزية فهي بالطبع للأغنياء. (هل هناك شراب صيني سيدي الرئيس؟ بودي لو أتناول رشفة منه).

كان الواجب الأكثر أهمية للسائق رقم 1 هو أن يأتي إلى جاكبوت مرة في الأسبوع ليشتري الشراب الاسكتلندي الأغلى ثمناً والأفضل نوعية للّقلق وابنيه. كان ذلك جزءاً من مراسم الخدم، بالرغم من أن السائق الصغير يرافقه في هذا الخروج، ولا تسألني لماذا. أخمن أن واجبي كان التأكد من أنه لا يهرب بتلك الزجاجة.

زجاجات ملونة من مختلف الأحجام كانت مصفوفة على رفوف جاكبوت، وكان هناك مراهقان يقفان خلف طاولة طويلة ويجتهدان في تلبية الطلبات للرجال الذين يصرخون بهم على الحائط الأبيض في جانب المتجر، ثمة لائحة لمئات من علامات المشروبات كتبت بصباغ أحمر يقطر.

...

كان متجراً صغيراً، وهنالك على الأقل خمسون رجلاً قد تجمهروا في مساحة العشر أقدام التي أمام طاولة المحاسب، كل واحد منهم يصرخ بأعلى صوته بينما يلوّح بالأوراق النقدية معلناً عما يريده.

...

كنت متأكداً أنهم لن يشربوا هذه المشروبات؛ ويمكنني أن أستشف ذلك من قمصانهم الممزقة والقذرة التي تدل على أنهم خدم فحسب، كما هو حالي وحال رام بيرساد. يأتون لشراء المشروبات الإنكليزية لأسيادهم. لو أتينا بعد الساعة الثامنة في مساء عطلة نهاية الأسبوع إلى جاكبوت، لوجدنا الحال كالحرب الأهلية أمام طاولة المحاسب؛ وكان عليّ أن أبعد الرجال، بينما يفتح رام بيرساد طريقه إلى الطاولة ليصيح:

- "زجاجة كاملة!".

كان رام بيرساد يشتري الشراب؛ ثم أتدافع بقوة مع الخدم الآخرين كي يفسحوا لنا الطريق لنخرج بينما هو يحتضن زجاجة الشراب بين

ذراعيه. كان ذلك هو الوقت الوحيد الذي نبدو فيه مثل فريق.

في طريق عودتنا، كان رام بيرساد دائماً ما يقف إلى جانب الطريق ويخرج الزجاجة من علبتها. كان يقول إنه يريد التأكد من أن جماعة جاكبوت لم يغشّونا. كنت أعرف أنه كاذب. كان يريد أن يمسك الزجاجة بيده. يريد حمل الزجاجة العذراء والكاملة ومن الدرجة الأولى بيده. يريد أن يتخيل أنه يشتريها لنفسه. ثم يعيد الزجاجة إلى علبتها ويعود إلى المنزل، وأنا خلفه، وعيناي لا تزالان زائغتين من رؤية هذا الكم الهائل من المشروبات الإنكليزية.

في الليل، بينما كان رام بيرساد يطلق شخيره من فراشه، كنت أضطجع على الأرض ملقياً برأسي على راحتي.

كنت أحدق إلى السقف، وأفكر كيف أن ولدَي اللّقلق يختلفان عن بعضهما كما يختلف الليل عن النهار.

سيدي موكيش قصير القامة وأسمر وقبيح وحادّ جداً. كنا قد اعتدنا أن نسميه النمس. كان متزوجاً من سيدة بيت تحولت تدريجياً إلى امرأة بدينة بعد أن أنجبت ولدين. لم يحمل هذا الشخص، هذا النمس، الصفات الجسدية لأبيه؛ بل كان لديه عقل أبيه. فلو رآني بلا عمل ولو للحظة واحدة، كان يصيح بي: "أنت أيها السائق الذي تتسكع هناك! نظف السيارة".

- "لقد نظفتها يا سيدي".

- "إذاً، خذ مكنسة ونظف الباحة".

السيد آشوك ورث جسم أبيه؛ كان طويل القامة عريض المنكبين ووسيماً، مثلما من المفترض أن يكون عليه ابن المالك. في المساءات كنت أراه يلعب تنس الريشة مع زوجته في مجموعة منازلهم. كانت ترتدي السروال؛ مما دعاني إلى النظر إليها فاتحاً فمي. فمن رأى امرأة ترتدي السروال إلا في الأفلام؟ اعتقدت في البداية أنها أميركية، واحدة

مـن تلـك الأشـياء السـاحرة التـي جلبهـا من نيويورك، مثـل لكنته وعطر الفاكهة الذي يتعطر به بعد الحلاقة.

بعـد يوميـن، كان رام بيرسـاد والنيبالـي الأحـول يثرثـران. تناولـت مكنسة، ورحت أكنس الباحة مقترباً منهما شيئاً فشيئاً.

- "إنها نصرانية، هل تعلم؟".

"مستحيل".

- "نعم!".

- "وقد تزوجها؟".

قـال النيبالـي: "تزوجـا فـي أميركا. نحـن الهنود إذا ذهبنا إلى هناك نفقد كل احترامنا لطائفتنا الدينية".

- "عارض العجوز الزواج بكل قوته. وأهلها غير راضين أيضاً".

- "إذاً، كيف حدث ذلك؟".

حملق النيبالي بي: "أنت، هل تسترق السمع إلينا؟".

- "كلا يا سيدي".

* * *

فـي أحـد الصباحـات كان هنالـك طَـرقٌ على باب غرفة السـائقين، وعندما خرجت وجدت السيدة بنكي تقف وبيدها مضربان.

كانت هنالك شبكة قد وضعت بين عمودين في إحدى زوايا الباحة؛ وقفت هي على جانب من الشبكة ووقفت أنا على الجانب الآخر. ضربت الريشة لتطير عالياً ثم تسقط بالقرب من قدمي.

- "هيا! تحرك! أعدها إليّ!".

- "آسف سيدتي. أنا آسف".

لم ألعب هذه اللعبة من قبل. ضربت الريشـة نحوها، فاصطدمت مباشرة بالشبكة.

- "آه، لا فائدة منك. أين ذلك السائق؟".

قفـز رام بيرسـاد نحـو الشـبكة فـي الحـال. كان يراقـب اللعبة وهو يقف جانباً. كان يعرف بالضبط كيفية اللعب بالريشة.

راقبته يضرب الريشة بدقة من فوق الشبكة ويباريها ضربة بضربة، مما جعل معدتي تحترق.

هـل هنالـك كراهيـة فـي الأرض مثـل كراهية الخادم رقم 2 للخادم رقم 1؟

على الرغم من أننا كنا ننام في الغرفة نفسها، وليس بيننا غير بضع أقدام، فلم يقل أحدنا للآخر "مرحباً" أو "كيف حال أمك؟"، لا شـيء على الإطلاق. كنت أشـعر أن الحرارة تشـع منه طوال الليل؛ أعلم أنه يلعنني ويردّد التعاويذ بشأني في منامه.

...

كان النيبالي على توافق تامّ مع رام بيرساد. في أحد الأيام اقتحم غرفتي وأسقط من يده وعاءً كبيراً من البلاستيك على الأرض.

سألني وقد لاحت ابتسامة عريضة على وجهه: "هل تحب الكلاب أيها الفتى القروي؟".

كان هنالـك كلبـان بومرانيـان أبيضـان فـي المنزل هما كدلز وبدلز. يتوقع الأغنياء أن تعامل كلابهم مثلما تعامل البشر؛ إنهم يحبون تدليلها وإشـباعها وأخذهـا للنزهـة وحتـى اغتسـالها! هـل تخمـن مـن هو الذي يتوجب عليه اغتسـال هذين الكلبين؟ أركع على ركبتيّ، وأبدأ بفركهما وتغطيتهما برغوة الصابون ثم أسكب الماء عليهما بشكل كامل وبعدها آتي بمجفف هوائي وأجفف جسديهما ثم آخذهما للنزهة حول مجموعة المنازل العائدة للعائلة وعلى رقبة كل منهما سلسـلة حديدية بينما كان ملك النيبال جالسـاً في الزاوية ويصيح بي: "لا تسـحب السلسـلة بقوة! إنهما أكثر قيمة منك!".

حين كنت أنتهي من عملي على الكلبين كنت أشم رائحة يدي. الشيء الوحيد الذي يمكن من خلاله أن يتخلص الخادم من رائحة جلد الكلب هي رائحة جلد سيده.

كان السيد آشوك واقفاً خارج غرفتي.

هرعت نحوه وانحنيت محيياً. دخل إلى الغرفة؛ فتبعته وأنا لا أزال منحنياً. انحنى هو كي يدخل من الباب؛ كان الباب قد صنع للخدم سيِّئي التغذية، وليس لسيد طويل حسن التغذية مثله. نظر إلى السقف بريبة.

قال: "أمر مروع".

حتى تلك اللحظة لم أكن قد لاحظت أبداً كيف كان دهان السقف يتقشر في قطع كبيرة، وكانت هنالك شبكات للعناكب في كل الزوايا. قبل تلك اللحظة كنت سعيداً في هذه الغرفة.

- "لماذا هذه الرائحة؟ افتح النوافذ".

جلس على سرير رام بيرساد وتحسسه بأصابعه. كان صلباً. عند ذاك توقفت عن حسد رام بيرساد.

ولهذا فقد رأيت الغرفة بعينيه؛ شممتها بأنفه؛ وتحسستها بأصابعه. كنت قبل ذاك قد بدأت بفهم سيدي!

نظر اتجاهي ولكنه تفادى نظرتي، كأنه كان يشعر بالذنب حيال شيء ما.

- "سيكون لكما أنت ورام بيرساد غرفة للنوم أفضل من هذه وسريران منفصلان. ونوع من الخصوصية".

- "أرجوك لا تفعل ذلك يا سيدي. هذا المكان بالنسبة إلينا كالقصر".

جعله ذلك يشعر أفضل مما كان. فنظر إليّ.

- "أنت من لاكسمانغار، أليس كذلك؟".

- "أجل سيدي".

- "لقد ولدت في لاكسمانغار. ولكنني لم أرها منذ ذلك الحين. هل ولدت هناك أنت الآخر؟".

- "أجل سيدي، ولدت ونشأت هناك".

- "كيف تبدو؟".

قبل أن أجيب قال: "لا بد من أنها جميلة جداً".

- "لا تتخيل مدى جمالها يا سيدي".

نظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل، من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، بالطريقة نفسها التي كنت أنظر فيها إليه منذ أن جئت إلى المنزل.

بدا الاندهاش واضحاً في عينيه: كيف يمكن لعيّنتين متناقضتين من البشر أن تُنتجا عن الأرض والشمس والماء نفسها؟

قال وهو ينهض عن السرير: "حسناً، أريد الذهاب إلى هناك اليوم. أريد أن أرى مسقط رأسي. وستأخذني أنت بالسيارة".

- "حسناً يا سيدي".

هل سأذهب إلى قريتي؟ بهذا الزي؟! وأقود سيارة اللّقلق؟! وأتحدث مع ابنه وزوجة ابنه؟!

كنت مستعداً لأن أنحني على قدميه لأقبلهما.

رغب اللّقلق في القدوم معنا، ذلك ما سيرفع من شأن دخولي إلى قريتي حقاً؛ لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة. أخيراً أخذت معي في سيارة الهوندا سيتي السيد آشوك والسيدة بنكي فقط نحو الريف باتجاه لاكسمانغار.

كانت هذه هي المرة الأولى التي آخذهما وحدهما في السيارة؛ كان رام بيرساد قد نال هذا الشرف من قبل. لم أكن قد تعودت حتى ذلك الحين على الهوندا سيتي، السيارة متقلبة المزاج والتي لها عقلها

الخاص. وتضرعت للآلهة - جميع الآلهة ألاّ أقترف أي خطأ.

لم يقولا شيئاً لنصف ساعة. أحياناً تشعر، لكونك سائقاً، أن هناك توتراً في السيارة مما يرفع درجة الحرارة فيها. كانت المرأة حانقة جداً.

أخيراً، كسر صوتها الصمت: "لماذا نحن ذاهبان إلى هذا المكان الذي يقع في وسط المجهول يا آشوكي؟".

- "إنها قرية أسلافي، بنكي. ألا تحبين رؤيتها؟ ولدت هناك؛ ولكن أبي أبعدني عنها منذ الطفولة. وقتها كانت هناك اضطرابات مع ميليشيات الشيوعيين. فكرت أننا ربما...".

فسألته فجأة: "هل قررت تحديد موعد العودة؟ أعني إلى نيويورك؟".

- "كلا، ليس بعد. قريباً سنفعل ذلك".

سكت لدقيقة؛ اتسعت أذناي الآن بالفعل. لو عادا إلى أميركا؛ هل سيستغنون عن السائق الثاني في البيت؟

لم تقل شيئاً، لكنني أُقسِم إنني أكاد أسمع صرير أسنان.

لم يكن لدى السيد آشوك مفتاح للكلام؛ بدأ يدندن أغنية لفيلم سينمائي، حتى قالت: "أي مزحة لعينة هذه؟".

- "ما هي؟".

- "لقد كذبت بشأن العودة إلى أميركا، أليس كذلك، آشوك إنك لن تعود إلى هناك أبداً".

- "ثمة سائق في السيارة، بنكي سأوضّح لك كل شيء في ما بعد".

- "وهل يهمنا ذلك! إنه مجرد سائق. ها أنت تغير الموضوع مجدداً!".

فاح عطر شذي في السيارة؛ كنت أعرف أنها تحركت ورتبت ثيابها.

- "لماذا نحن بحاجة إلى سائق؟ لماذا لا تقود السيارة بنفسك كما كنت تفعل؟".

- "كان ذلك في أميركا، بنكي... لا يمكنك السياقة في الهند، انظري فقط إلى هذا الزحام. لا أحد يتقيد بأي قوانين؛ يتسارع الناس في الشارع كالمجانين... انظري، انظري إلى ذلك".

جاءت عربة تراكتور بأقصى سرعتها، وهي تقذف الديزل الأسود من أنبوب العادم فيها.

- "إنها في الجانب غير الصحيح من اتجاه السير! ولم يلاحظ سائقها ذلك!".

أنا نفسي لم أنتبه. أفترض أنك قصدت بأن تسوق في الجهة اليسرى من الشارع، ولكن حتى ذلك الحين لم أعرف أبداً بتأثر أي أحد بهذه القاعدة.

- "انظري فقط إلى الديزل الذي تتقيأه العربة. لو أنني أسوق هنا، بنكي، لأصابني الجنون كلياً".

كنا نسير إلى جانب نهر، حتى انتهت الطريق الإسفلتية فأخذتهم عبر طريق ترابية، ثم عبر سوق صغيرة فيها ثلاثة أو أكثر أو أقل من المتاجر المتشابهة تبيع على نحو ما موادَّ متشابهة كالكيروسين والبخور والأرز. حدق إلينا كل من رآنا. وراح بعض الصبية يركضون مع السيارة. لوّح لهم السيد آشوك بيده محيياً، وحاول أن يجعل السيدة بنكي تحييهم أيضاً.

اختفى الصبية بعد أن وصلنا إلى خط لا يسمح لهم بتجاوزه. كنا قد وصلنا إلى حي الملاّكين. كان الطبّاخ ينتظر عند بوابة قصر اللقلق؛ فتح الباب حتى قبل أن أوقف السيارة، ولمس قدمي السيد آشوك بيديه.

- "ها أنتذا هنا أخيراً سيدي الأمير الصغير! أنت هنا أخيراً!".

حضر الخنزير البري لتناول الغداء مع السيد آشوك والسيدة بنكي؛ وهو خالهم على كل حال. حالما رأيته يدخل القصر لتناول الغداء، دخلت المطبخ، وتحدثت إلى الطبّاخ قائلاً له: "أنا أحب السيد آشوك جداً، فاسمح لي بخدمته في تقديم الغداء!". وافق الطباخ؛ وحانت لي الفرصة لرؤية الخنزير البري عن قرب للمرة الأولى بعد مضي سنوات عدة. كان يبدو أكبر سناً مما أتذكر، وأكثر تحدباً، بيد أن سنّيه ما زالتا كما هما؛ حادتين وسوداوين وذاتي تقوّس مميز إلى الخارج من الجانبين. أكلوا في غرفة الطعام، في مكان هائل مرتفع السقف ذي أثاث ثقيل من الطراز القديم مدور كله وهنالك ثريا مهولة الحجم.

قال السيد آشوك: "إنه قصر قديم وجميل. كل شيء رائع هنا".

فقالت هي: "ما عدا الثريا، إنها مائلة قليلاً".

قال الخنزير البري: "أبوك يحب الثريات، كان يريد أن يضع واحدة في الحمام، هل تعلم ذلك؟ أنا جاد!".

عندما جلب الناظر الصحون، ووضعها على الطاولة، نظر إليها السيد آشوك وقال: "هل لديكم أي شيء نباتي؟ أنا لا آكل اللحم".

قال الخنزير البري: "لم أسمع أن أياً من الملاّكين نباتي، ذلك شيء غير طبيعي، أنت تحتاج إلى اللحم كي تكون قوياً". وفتح فمه ليظهر سنّيه المعقوفتين.

- "لا أعتقد بقتل الحيوانات من دون حاجة. تعرفت إلى النباتيين في أميركا، وأعتقد أنهم على حق".

قال الرجل العجوز: "أي أفكار مجنونة جلبتموها أنتم أيها الأولاد، أنت أحد الملاكين. النباتيون هم من جماعة البراهما ولسنا نحن".

غسلت الصحون بعد انتهاء الغداء، ثم ساعدت الناظر على إعداد الشاي. لقد تمت العناية بسيدي وحان وقت لقاء أفراد عائلتي، فخرجت

من الباب الخلفي للقصر.

كانـوا قـد وصلـوا إليـه قبلـي. حضر أفراد عائلتي كلهم إلى القصر، وكانوا يحيطون بسيارة الهوندا سيتـي يحدقون إليها مفتخرين بالرغم من أنهم كانوا يخشون لمسها.

رفـع لـي كيشــان يـده. لـم أره منذ أن غــادر دانباد، وعاد إلى البيت للعمـل فـي الحقـول قبـل أكثـر من ثلاثة أشـهر. انحنيـت لألـمس قدميه، وتمسكت بهما لثوانٍ أكثر من المعتاد، لأنني كنت أعلم أنه في اللحظة التـي أخـرج فيهـا كان سـيوبخني بقـوة، فلـم أرسـل أي نقـود الشـهرين الماضيين.

قـال وهـو يبعدنـي عـن قدميـه: "ها هو يتذكر أفراد عائلته أخيراً إن كان يفكر فيهم أصلاً".

"سامحني يا أخي".

"لم تبعث لنا شيئاً منذ شهور. لقد نسيت اتفاقنا".

"سامحني، سامحني".

لكنهم لم يكونوا حانقين فعلاً. للمرة الأولى أشعر أنني ألفت الانتباه أكثـر مـن الجاموسـة المائيـة. أمـا العجوز الماكرة، قَسَـم، فكانت كما هو طبعها مسرفة في ضوضائها، إذ ظلت توبخني وهي تحك ساعديها.

قالـت وهـي تقـرص خـدي: "كـم حشـوت من الحلـوى في فمك وأنـت صغيـرا"، كانـت تخشـى مـن زيـي الخـاص، فـلا تلمسـني في أي مكان منه.

بـودي أن أقـول لـك إنهـم كانـوا علـى وشـك أن يحملونـي علـى ظهورهـم حتـى البيـت القديـم. وكان الجيـران ينتظـرون هناك لرؤية زيي الخاص.

قدموني للأطفال الذين ولدوا في العائلة منذ أن غادرت، وأجبرت على تقبيلهم من جباههم. كانت عمتي ليلى قد أنجبت طفلين في فترة

غيابي. وليلى زوجة ابن عمي بابو أنجبت طفلاً. كبرت العائلة. وازدادت الاحتياجات. لقد تم تأديبي لعدم إرسال النقود كل شهر. ضربت قَسَم رأسها بقبضتها؛ ولولت في منزل الجيران: "حفيدي لديه وظيفة ولا يزال يضطرني إلى العمل. هذا هو قدر المرأة العجوز في هذا العالم".

صاح بها الجيران: "زوِّجيه. تلك هي الطريقة الوحيدة لترويض أمثاله".

كشرت قَسَم وحكت ساعديها: "نعم، هذه فكرة جيدة، فكرة جيدة جداً".

كانت لدى كيشان مجموعة من الأخبار يريد إخباري بها، وما دمنا في (الظلام)، فكلها أخبار سيئة. اتضح أن الاشتراكي الكبير رجل بالغ الفساد. ازدادت ضراوة الصراع بين المتطرفين الناكساليين والملاّكين ليمسي دموياً. انحصر الصغار الذين مثلنا بين الطرفين. كانت ثمة جيوش خاصة لكل من الطرفين تتجول هنا وهناك لترمي بالرصاص وتعذب الناس الذين تشك في ولائهم للجهة الأخرى.

قال لي: "لقد أمست الحياة جحيماً هنا. لكننا سعداء لأنك بعيد عن هذه الفوضى، فلديك زي خاص وسيد طيب".

تغير كيشان، لقد ازداد نحافة وسمرة، وبرزت أوتار رقبته بشكل واضح على ثغرة النحر العميقة. لقد أصبح فجأة أبي.

رأيت قَسَم مكشرة، وتحك ساعديها، وتتحدث عن زواجي. قدمت لي الطعام بنفسها؛ لقد طبخت لي دجاجاً على نحو خاص. قالت لي وهي تغرف التوابل وتضعها في إنائي: "سنرتب الزواج في أواخر هذا العام، حسناً؟ لقد اخترنا لك واحدة من قبل؛ بطة جميلة وممتلئة. في اللحظة التي تبدأ فيها دورتها الشهرية، يمكن أن تأتي إلى هنا".

كانت هنالك قطعة لحم حمراء متبلة أمامي، وبدا لي كأنهم قدموا لي لحماً من جسد كيشان في ذلك الصحن.

قلت لها وأنا أنظر إلى تلك القطعة الحمراء المتبلة من اللحم: "امنحيني بعض الوقت يا جدتي. لست مستعداً للزواج الآن".

تهدل فكها: "ماذا تعني ليس الآن؟ يجب عليك أن تفعل ما نريده منك"، وابتسمت، "كل الآن يا عزيزي. طبخت الدجاج لك فحسب".

- "كلا".

- "كُل".

وقرّبت الصحن مني.

لاحظ جميع من في البيت صراعنا.

نظرت إليّ جدتي شزراً: "من أنت؟ براهميّ؟ كُل، كُل".

- "كلا!"، ودفعت الصحن بقوة ليطير إلى الزاوية ليصطدم بالجدار، ويسكب اللحم على الأرض، "أقول لكم إنني لن أتزوج!".

كانت قد ذهلت حتى إنها لم تستطع الصراخ. ونهض كيشان وحاول إيقافي حين أردت الخروج، لكنني دفعته جانباً فسقط على الأرض وخرجت من البيت غير مبالٍ.

ركض الأطفال إلى جانبي في الخارج، أطفال صغار مزعجون وقذرون لهذه العمة أو تلك لا أود حتى معرفة أسمائهم ولا أريد لمس شعر أي واحد منهم. شيئاً فشيئاً فهموا مبتغاي فعادوا.

تركت المعبد خلفي والسوق والخنازير والمجاري. حتى وصلت إلى البركة وحدي، كانت القلعة السوداء في أعلى التل أمامي.

جلست عند حافة الماء أصر أسناني.

لم أستطع التوقف عن التفكير في جسد كيشان. إنهم يأكلون جسمه وهو حي! إنهم يفعلون الشيء ذاته الذي فعلوه مع أبي؛ يجرفونه من الداخل ويتركونه ضعيفاً وخائراً، حتى يصاب بالتدرن الرئوي ويموت على أرض المستشفى الحكومي، بانتظار أن يأتي الطبيب لفحصه وهو يبصق الدم على هذا الجدار أو ذاك!

كان هنالك اضطراب في الماء. رفعت الجاموسة رأسها المغطى بالليلك، وحدقت إليّ. كان هنالك طائر كركي يراقبني وهو واقف على ساق واحدة.

دخلت في الماء، وسرت فيه حتى غمر رقبتي، ثم سبحت؛ تجاوزت أزهار الليلك المائية، وتجاوزت الجاموسة والضفادع والأسماك والصخور الكبيرة الهابطة من القلعة.

في أعلى السور المتكسر تجمعت القردة لتنظر إليّ؛ كنت قد بدأت بتسلق التل.

* * *

بعد نصف ساعة، بعد أن هبطت التل، ذهبت مباشرة إلى قصر اللّقلق. كان السيد آشوك والسيدة بنكي في انتظاري عند سيارة الهوندا سيتي.

صاحت بي: "أين كنت بالله عليك؟ كنا ننتظر".

قلت عابساً: "آسف سيدتي، آسف جداً".

- "كوني رقيقة القلب يا بنكي. ذهب لرؤية أفراد عائلته. أنت تعلمين كم هم مترابطون مع بعضهم بعضاً هناك في (الظلام)".

كانت قَسَم وعمتي لوتو والنساء كلهن يقفن هناك على جانب الطريق حينما اندفعت السيارة. يحملقن بي مندهشات من عدم عودتي للاعتذار: رأيت قَسَم تشد قبضتها متوعدة.

ضغطت بقدمي على مسرع السيارة ماراً بهن مباشرة.

ذهبنا نحو ساحة السوق، ألقيت نظرة على المقهى: الناس العناكب يعملون على الطاولات، بينما كان ساحبو العربات منتظمين في طابور، وكان سائق الدراجة المروج للفيلم اليومي واضعاً الإعلان على ظهره بادئاً جولته على الجانب الآخر من النهر.

قدت السيارة عبر مساحات خضراء، عبر الأجمات والأشجار

والجواميس التي تخوض في البرك الموحلة، ماراً بالنباتات المتسلقة والأشجار القصيرة، وحقول الأرز المغطاة بالماء، وأشجار الجوز، وأشجار الموز والنيم والتين البنغالي، وأيضاً بالعشب البري الذي تطلع من بينه رؤوس الجواميس وهي تنظر إلى الفراغ. مر بنا على جانب الطريق صبي نصف عارٍ يمتطي جاموسة، وحين رآنا رفع قبضتيه لنا وهو يصيح مبتهجاً، وكنت أنوي أنا الآخر أن أجيبه صائحاً: "نعم، أنا أشعر هكذا أيضاً! لن أعود إلى هناك أبداً!".

- "هل يمكنك أن تتكلم الآن آشوكي؟ هل يمكنك أن تجيب عن سؤالي؟".

- "حسناً. انظري بنكي، حين أعود، أنا فعلاً فكرت في أنها تستغرق شهرين. ولكن... الأشياء تغيرت كثيراً في الهند. ثمة أشياء كثيرة من الممكن أن أقوم بها هنا أكثر من نيويورك الآن".

- "هذا هراء، آشوكي".

- "كلا، ليس هكذا. الأشياء تتغير كثيراً في الهند الآن، سيكون هذا المكان مثل أميركا خلال عشر سنوات. فضلاً عن ذلك، أحب البقاء هنا، فلدينا أناس يخدموننا هنا؛ سائقونا وحراسنا ومدلكونا. هل هناك في نيويورك من يأتيك بالشاي والبسكويت وأنت على فراشك كما يفعل معنا رام باهادور؟ أنت تعلمين أنه يعمل لدى عائلتنا منذ ثلاثين سنة. نحن ندعوه خادماً، ولكنه أصبح أحد أفراد عائلتنا. وجد أبي هذا النيبالي يتسكع حول دانباد وبيده مسدس ويقول...".

توقف فجأة عن الكلام.

- "هل لاحظت ذلك بنكي؟".

- "ماذا؟".

- "هل رأيت ما الذي فعله السائق؟".

توقف قلبي عن النبض. لم تكن لدي فكرة عما فعلته. انحنى

السيد آشوك إلى الأمام وقال: "أيها السائق لمست لتوك عينك بإصبعك، أليس كذلك؟".

- "بلى يا سيدي".

- "ألم تلاحظي بنكي؛ مررنا للتو بمعبد".

أشـار السـيد آشـوك إلى بناية عالية مخروطية رُسِـمت عليها أفاعٍ سوداء ملتفة على جوانبها كنا قد تركناها خلفنا.

- "لذلك السائق...".

لمس كتفي.

- "ما اسمك؟".

- "بالرام".

- "لذلك فبالرام هنا لمس عينه إشارة احترام. القرويون يعتقدون جداً بهذه الأشياء في (الظلام)".

يبـدو أن ذلـك أثـار انتباههمـا، لذلـك عـاودت وضـع إصبعي على عيني بعد دقيقة.

"ما معنى هذا أيها السائق؟ لا أرى أي معابد هنا!".

- "آه... لقد مررنا بشجرة نحترمها يا سيدي. وكنت أعبر لها عن احترامي".

- "هل سـمعت ذلك؟ إنهم يعتقدون بالطبيعة. شـيء جميل أليس كذلك؟".

فتحا أعينهما لرؤية أي شـجرة أو معبد نمر به ويتلفتان نحوي إن كان هناك أي رد فعل اعتقاديّ لدي؛ وهو ما أبينه لهما، بالطبع، بتفصيل متتابـع، فـي البدايـة مجـرد أن ألمـس عينـي، ثم رقبتي، ثـم عظم الترقوة وحتى حلمة صدري.

صـارت لهمـا قناعـة أننـي الخـادم الأكثر ورعاً في الأرض. (خذها يا رام بيرسادا!).

كانـت طريقنـا إلـى دانبـاد مقطوعـة. ثمة شـاحنة متوقفة في الطريق مليئة برجال يلفون حول رؤوسـهم أشـرطة حمراء، ويرددون الشـعارات بصوت عالٍ.

- "ثـوروا علـى الأغنيـاء! ادعمـوا الاشـتراكي الكبيـر. أبعـدوا الملاّكين!".

في الحال تقدمت شاحنات غيرها. وكان الرجال الذين فيها يلفون حول رؤوسهم أشرطة خضراء ويصيحون على الرجال الذين في الشاحنة الأولى.

ثمة معركة على وشك أن تبدأ.

تساءلت السيدة بنكي بنبرة صوت مذعور: "ما الذي يجري؟".

قال: "اهدأي، إنه وقت الانتخابات، هذا كل ما في الأمر".

كـي أشـرح لـك عمـا يجـري فـي خضـم كل ذلـك الصيـاح مـن الشاحنات، سيكون عليّ أن أحدثك بكل شيء عن الديمقراطية؛ الشيء الـذي لـم تألفـوه أنتـم فـي الصين كما أعلم. ولكـن هذا يتطلب الانتظار حتى الغد يا صاحب السعادة.

الساعة الآن هي 2:44 بعد منتصف الليل.

هـذه هـي سـاعة المنحطيـن ومدمنـي المخدرات ورجـال الأعمال الأساسيين في بنغلور.

الصباح الرابع

إلى مكتب...

لكننا لا نحتاج إلى هذه الرسميات، أليس كذلك، سيد جياباو؟ بات يعرف أحدنا الآخر الآن. كما أنه ليس لدينا الوقت للرسميات.

سيدي الرئيس، ستكون جلستنا قصيرة اليوم؛ كنت أستمع إلى برنامج عبر الراديو عن الرجل الذي يدعى كاسترو الذي طرد الأغنياء من بلاده وحرر الناس. أحب الاستماع إلى برامج عن الرجال العظماء، وقبل أن أعلم أصبحت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل! وددت الاستماع أكثر عن كاسترو هذا. ولكن يتوجب عليّ أن أوقف تشغيل الراديو من أجلك. سأستأنف القصة من حيث توقفنا.

آه، أيتها الديمقراطية!

سيدي رئيس الوزراء، الكُتيّب الصغير الذي سيهديك إياه رئيس وزرائنا سيحوي حتماً فصلاً طويلاً عن عظمة الديمقراطية في الهند، المشهد المهول لمليار من البشر وهم ينتخبون ليقرروا مستقبلهم، وبحرية كاملة لممارسة الحق الانتخابي، وهكذا دواليك.

أستنتج أنكم، الجنس الأصفر، بالرغم من انتصاراتكم في مجاري الصرف الصحي وماء الشرب والميداليات الذهبية الأولمبية، لا تزالون تجهلون الديمقراطية. البعض من السياسيين كانوا يصرّحون أن هذا هو السبب الذي سيجعل الهنود يتفوقون عليكم؛ فقد لا تكون لدينا مجارٍ للصرف الصحي، ولا ماء للشرب، ولا ميداليات ذهبية أولمبية، ولكن لدينا (بالتأكيد) ديمقراطية.

لـو حانـت الفرصـة لـي لأكـوّن بلـداً، لكنـت مـددت أنابيب الصرف الصحي أولاً، وبعد ذلك نشرت الديمقراطية، ومن ثم أهدي الناس الآخرين كتيّبات وتماثيل لغاندي، ولكن ما الذي أفهمه أنا؟ لست إلا قاتلاً!

ليست لدي مشكلة مع الديمقراطية، سيد جياباو. فبعيداً عنها، أنا مديـن للديمقراطيـة بالكثيـر، حتـى فـي تاريخ ميـلادي، في الحقيقة. كان ذلـك يعـود إلـى الأيـام التي كنت فيها أكسّـر الفحم، وأمسـح الطاولات فـي المقهـى فـي لاكسـمانغار. كان ثمـة تصفيق مـن جهة صورة غاندي؛ صاح صاحب المقهى العجوز بعماله كلهم أن يتركوا ما بأيديهم ويذهبوا إلى المدرسة.

كان هنالك رجل يرتدي ملابس رسمية يجلس أمام مكتب المدرّس في غرفة المدرسـة، وأمامه دفتر طويل وقلم أسـود ويسـأل كل شـخص سؤالين.

- "الاسم".
- "بالرام حلوي".
- "العمر".
- "لا أعرف".
- "تاريخ الميلاد؟".
- "كلا يا سيدي، لم يحدد والداي ذلك لي".

نظـر إلـيّ وقـال: "أعتقـد أنـك في الثامنة عشـرة. أعتقـد أنك اليوم أصبحت في الثامنة عشرة. أنت نسيت ذلك ليس إلا، أليس كذلك؟".

انحنيـت لـه: "هـذا صحيـح سـيدي. أنـا نسيت. اليـوم ذكـرى ميلادي".

- "ولد صالح".

ثم دوّن ذلك في دفتره، وطلب مني الانصراف. عليه، فقد علمت تاريخ مولدي من الحكومة.

كان لا بد لي من أن أكون في الثامنة عشرة. كلنا الذين نعمل في المقهى لا بد لنا من أن نكون في الثامنة عشرة، السن القانونية للانتخاب. هنالك انتخابات مقبلة، وقد أخبرنا صاحب المقهى من قبل أنه قد باع أصواتنا. بصمات الأصابع الحبرية التي يقوم بها الأشخاص الأميون على ورقة الانتخاب إشارة إلى تصويتهم. سمعت ذلك من أحد الزبائن. من المعتقد أنها انتخابات حامية التنافس؛ لقد قبض ثمناً جيداً عن كل واحد منا من حزب الاشتراكي الكبير.

كان الاشتراكي الكبير هو قائد من في (الظلام) منذ عقد من الزمن حتى جاء وقت هذه الانتخابات. كان رمز حزبه عبارة عن يدين تحطمان الأغلال - ليرمز بذلك إلى أن الفقراء يهزون عرش الأغنياء - والرمز مطبوع على ورق خفيف أسود ثبّت على جدران كل الدوائر في (الظلام). يقول بعض الزبائن إن الاشتراكي الكبير بدا رجلاً صالحاً. كان قد جاء ليجلي الأشياء، ولكن طين الأم غانغا قد امتصه. قال آخرون إنه فاسد منذ البداية، وكان قد خدع الجميع ولكنه الآن انكشف على حقيقته. مهما كان الحال، لم يبدُ أن أحداً كان يريد انتخابه لاستلام السلطة. لقد حكم الناس الذين في (الظلام)، بعد أن فاز في الانتخابات تلو الانتخابات، لكنّ حكمه الآن يضعف.

أنت ترى، إنّ ثلاثاً وتسعين جريمة - بين قتل، واغتصاب، وسرقات كبرى، وتهريب أسلحة، وقوادة، والكثير من الجنح الصغيرة - موضوعة أمام الاشتراكي الكبير ووزرائه في انتظار البت بها حالياً. ليس من السهل أن تحصل الإدانة ما دام القضاة يحكمون في منطقة (الظلام)، على أن ثلاث إدانات مُرِّرت، وأن ثلاثة وزراء في السجن الآن، ولكنهم بالرغم من ذلك ما زالوا وزراء! والاشتراكي الكبير نفسه اختلس مليار روبية من (الظلام) وحوّل المال إلى حساب مصرفي في بلد صغير أوروبي مليء بالناس البيض والمال الأسود.

إذ حان موعد الانتخابات، وأعلنوا ذلك عبر الراديو، بدأت تنتشر الحمى الانتخابية مرة أخرى. تواجهك الأمراض الثلاثة الكبرى لهذا البلد يا سيدي: التيفوئيد والكوليرا وحمى الانتخابات. المرض الأخير هو الأشد فتكاً؛ إنه يجعل الناس يتحدثون ويتحدثون عن أشياء ليس لديهم قول فيها. يبدو أن أعداء الاشتراكي الكبير أقوى في هذه الانتخابات من التي قبلها. لقد وزعوا الكتيّبات وساروا في الحافلات والشاحنات حاملين مكبرات الصوت معلنين أنهم سيطيحون به وسيخرجون نهر الغانغا وكل من يعيش على ضفتيه من (الظلام) إلى (النور).

ازداد أوار الثرثرة في المقهى. يرتشف الناس شايهم، ويناقشون الشيء نفسه مرة بعد أخرى.

هل سينجحون هذه المرة؟ هل سيطيحون بالاشتراكي الكبير ويفوزون بالانتخابات؟ هل جمعوا مالاً كافياً من أنفسهم، ورشوا الشرطة واشتروا بصمات الأصابع بما يكفي كي يربحوا؟ مثلما يناقش المخصيون فن الحب، كان المصوتون يناقشون الانتخابات في لاكسمانغار.

في صباح ما، رأيت شرطياً يكتب شعاراً على الجدار خارج المعبد بفرشاة حمراء:

هل تريدون شوارع معبدة وماءً صافياً ومستشفيات جيدة؟
انتخبوا الاشتراكي الكبير!

منذ سنوات عُقِدت صفقة بين الملاّكين والاشتراكي الكبير - جميع مَن في القرية يعرفها - ولكنْ، هذه السنة، شيء ما طرأ على هذه الصفقة، إن الحيوانات الأربعة اتحدوا معاً، وأنشأوا حزباً لأنفسهم.

كتب أسفل الشعار الذي كتبه الشرطي:

جبهة كل الهند الاجتماعية التقدمية
(الحزب اللينيني)

كان ذلك هو اسم حزب الملاّكين.

في الأسابيع التي سبقت الانتخابات جابت الشاحنات شارع لاكسمانغار القذر طولاً وعرضاً، محملة بالشباب الذين يحملون مكبرات الصوت: "تصدوا للأغنياء!".

كان فيجاي، سائق الحافلة، دائماً على واحدة من تلك الشاحنات. استقال من وظيفته السابقة ويعمل الآن في السياسة. هكذا هو فيجاي، في كل مرة تراه قد عمل لنفسه ما هو أفضل. كأنه وُلِد سياسياً. كان يلفّ شريطاً أحمر على رأسه ليبين أنه أحد أنصار الاشتراكي الكبير ويلقي بالخطابات كل صباح أمام المقهى. جلب الملاّكون شاحنات محملة بأنصارهم للانتقام. ومن تلك الشاحنات كان الرجال يصرخون: "الشوارع! الماء! المستشفيات! لا تصوتوا للاشتراكي الكبير!".

قبل أسبوع من الانتخابات، توقف الطرفان عن إرسال شاحناتهم. سمعت ما حدث بينما كنت أمسح طاولة. نجحت خدعة الحيوانات. وافق الاشتراكي الكبير على عقد صفقة معهم.

انحنى فيجاي، ولمس قدمي اللّقلق أمام المقهى وأمام حشد كبير من الناس. بدا أن كل الاختلافات قد سُوِّيت، وسمي اللّقلق رئيساً لفرع لاكسمانغار في حزب الاشتراكي الكبير، على أن يكون فيجاي نائبه.

انتهت التجمعات. واحتفل الكاهن الهندوسي بالصلاة لانتصار الاشتراكي الكبير؛ وتم توزيع طعام البرياني مع لحم الضأن بصحون ورقية أمام المعبد؛ وفي المساء توفر شراب مجاني للجميع.

في الصباح التالي غزا القرية غبار ورجال شرطة. قرأ أحد ضباط الشرطة تعليمات التصويت في السوق.

مهما حدث فقد حدث لصالحنا. سيحاول أعداء الاشتراكي الكبير سرقة الانتخابات منا، نحن الفقراء، وسلب السلطة منا، نحن الفقراء، وإعادة وضع تلك الأغلال حول معاصمنا وهي التي أزاحها الاشتراكي الكبير عنا. فهل نفهم؟ ثم رحل رجال الشرطة في غيمة من الغبار.

أخبرني أبي في إحدى الليالي: "هكذا هو الحال دائماً، لقد شهدت اثني عشر انتخاباً - خمسة انتخابات منها عامة وخمسة للولاية واثنان محليان - وقد انتخب عني شخص آخر في كل هذه الانتخابات. سمعت أن الناس في مدن أخرى من الهند يصوتون بأنفسهم؛ أليست هذه مبالغة؟".

جنّ واحد من الناس في يوم الانتخابات.

ويحدث هذا في كل مرة، في كل انتخابات تحدث في (الظلام).

أحد زملاء والدي، رجل داكن البشرة ونحيل لم يكن أحد قد انتبه إليه من قبل، كان محاطاً بحشد من ساحبي العربات، بمن فيهم أبي، وهم يحاولون ثنيه عن عزمه على التصويت بنفسه، ولكن من دون قناعة كاملة منهم. لقد رأوا مثل هذا من قبل. فلن يتمكنوا من إيقاف هذا الرجل الآن.

بين الحين والآخر، حتى في مكان مثل لاكسمانغار، كان شعاع من نور الشمس يخترق (الظلام). فلربما تدخل في عقل الإنسان كل هذه الشعارات والخطابات والإعلانات التي على الجدران. لقد أعلن أنه مواطن للديمقراطية الهندية، ويريد أن يدلي بصوته بنفسه. هذا ما عزم عليه ساحب العربة هذا. لقد أعلن أنه تخلص من (الظلام)؛ لقد حزم أمره في ذلك اليوم.

مشى باتجاه غرفة التصويت في المدرسة وصاح: "من المفترض أن أتصدى للأغنياء أليس كذلك؟ أليس هذا هو الذي ما فتئوا يدعوننا إليه؟".

عندما وصل إلى هناك كان أنصار الاشتراكي الكبير قد سجلوا من قبل عدد الأصوات على السبورة: لقد حسبوا 2341 صوتاً في تلك الغرفة. صوّت الجميع للاشتراكي الكبير. كان فيجاي سائق الحافلة واقفاً على

سلم، يثبّت بالمطرقة لافتةً تحمل رمز الاشتراكي الكبير (يدان تحطمان الأغلال). وكان الشعار الذي تحمله اللافتة مفاده:

تهنئة للاشتراكي الكبير على انتصاره المطلق
في لاكسمانغار

أسقط فيجاي المطرقة والمسامير واللافتة من يده عندما رأى ساحب العربة.

- "ما الذي تفعله هنا؟".

فرد عليه: "أريد أن أنتخب. أليس هذا يوم الانتخاب؟".

لا أستطيع أن أكتب عما حدث في ما بعد، بالرغم من أنني كنت على بعد بضع أقدام خلفه. إذ تجمع حشد كبير لمشاهدته عن بعد، ولكن حين جاء الشرطي حاملاً علينا فررنا جميعاً. لذلك لم أرَ ما فعلوه بذلك الرجل الشجاع والمجنون.

سمعت عنه في اليوم التالي، بينما كنت أتظاهر بأنني أزيل بقعة عن إحدى الطاولات. لقد طرح فيجاي والشرطي ساحب العربة أرضاً وطفقا يوسعانه ضرباً وحين قاومهما ركلاه. تبادلا ضربه. كان فيجاي يضربه والشرطي يدوس على رأسه، ويتبادلان المهمة، حتى توقف جسد ساحب العربة عن المقاومة، لكنهما ما فتئا يدوسان عليه حتى مسحا به الأرض.

لو أتيح لي، يا صاحب السعادة، أن أعود إلى ذلك الإعلان (المطلوب)، فلا اعتراض عندي على كوني قاتلاً. في الحقيقة: أنا مذنب، إنسان اقترف الخطيئة. ولكن أن أدعى بالقاتل من قبل الشرطة؟!

أي مزحة هذه!

هنا تذكار من زيارتك إلى الهند كي تحتفظ به. بالرام حلوي رجل مختفٍ، هارب، مجهول المسكن بالنسبة إلى الشرطة، صحيح؟

ها!

تعرف الشرطة أين تجدني بالضبط. سيجدونني أصوِّت مطيعاً في يوم الانتخابات في غرفة التصويت في المدرسة في لاكسمانغار في مقاطعة غايا، كما فعلت ذلك في كل انتخابات عامة ومحلية وانتخابات الولاية منذ أن أصبحت في الثامنة عشرة.

أنا مصوِّت الهند الوفي، ولم أرَ ما في داخل غرفة التصويت حتى الآن.

* * *

بالرغم من أن الانتخابات متوقعة قريباً في دانباد، فإن الحياة مستمرة كما كانت داخل جدران منزل اللّقلق العالية. شعر بالراحة ما إن أنزل رجليه في الماء الدافئ؛ لعبتا الكريكيت والريشة كانتا دائبتين حوله، وقد غسلت ونظفت الكلبين البومرانيين بإخلاص.

في أحد الأيام أطلّ عند البوابة وجه مألوف. كان ذلك هو وجه فيجاي سائق الحافلة من لاكسمانغار. كان بطل طفولتي يرتدي زياً خاصاً جديداً. كان زيه أبيض بالكامل، ويعتمر قبعة نهرو البيضاء، وثمة خواتم من الذهب الخالص في ثمانية من أصابعه!

يبدو أن الخدمة العامة قد درّت عليه الكثير.

كنت أنتظر عند البوابة وأشاهد. جاء إليه اللّقلق بنفسه ليقابله، وانحنى أمامه؛ ملاّك ينحني أمام ابن مربٍّ للخنازير! من أعاجيب الديمقراطية!

بعد يومين حضر الاشتراكي الكبير إلى البيت. وحدثت جلبة في المنزل كله بسبب تلك الزيارة. وقف السيد آشوك عند البوابة حاملاً إكليلاً من زهور الياسمين. كان أبوه وأخوه إلى جانبه.

وصلت سيارة إلى المنزل وحين انفتح بابها ظهر وجه كنت قد رأيته على مليون إعلان للانتخابات منذ أن كنت صبياً؛ رأيت الخدّين الريّانين، والشعر الأبيض المصفوف بنمط شائك، والقرطين الذهبيين السميكين.

في هـذا اليـوم كان فيجـاي يلـفّ رأسـه بشـريط أحمـر، ويحمـل العلم الذي رسـم عليه رمز القيود المحطمة. هتف: "ليعِش الاشـتراكي الكبير!".

جمـع الرجـل الكبيـر راحتيـه، وانحنـى محيياً جميع من حوله. كان وجهه لا يختلف عن كل وجوه ساسة الهند الكبار. يُبيّن لك ذلك الوجه أنه مسالم الآن؛ ويمكنك أن تكون بسلام أيضاً إن تتبعت تعاليم صاحب ذلـك الوجـه. لكـن الوجـه ذاتـه يمكن أن يبيّن لك أيضاً، مغيراً شـيئاً من ملامحه، أنه قد عرف ما هو عكس السلام؛ ومن الممكن أن يجعل من ذلك قدرك أيضاً إذا رغب في ذلك.

وضع السيد آشوك الإكليل على رقبة الرجل الكبير الضخمة كرقبة الثور.

قال اللّقلق: "هذا ولدي. عاد حديثاً من أميركا".

قرص الاشتراكي الكبير خد السيد آشوك وقال: "ممتاز. نحن نحتاج إلى المزيد من الشباب لبناء الهند كقوة عظمى".

ثـم دخلـوا إلـى المنـزل، وأغلقت الأبواب والنوافذ كافة. بعد قليل خـرج الاشـتراكي الكبيـر إلـى الباحـة، وتبعـه الرجل العجـوز ثم النمس والسيد آشوك.

كنت أحاول أن أسترق السمع، لذلك تظاهرت بكنس الأرض وأنا أقترب منهم شيئاً فشيئاً. كنت على مسافة تمكنني من سماعهم حين جاء الاشتراكي الكبير، وربت على ظهري.

سألني: "ما اسمك يا بني؟".

ثم قال: "إن مستخدميك يحاولون أن...، يا بالرام. ما قولك؟".

بدا على آشوك الاندهاش. وابتسم اللّقلق بتكلف.

– "مليون ونصف مبلغ كبير يا سيدي. سيسعدنا أن نصل إلى اتفاق معك".

لوّح الاشتراكي الكبير بيده كأنه كان يستبعد ذلك الرجاء.

- "هراء. أنتم تنهبون هنا نهباً؛ تحصلون على الفحم مجاناً من مناجم الحكومة. لم تكن إلا ملاّكاً صغيراً في القرية حين عثرت عليك - أنا جئت بك إلى هنا - صنعت منك ما أنت عليه الآن، وها أنت بحق الله تتجاوزني، وستعود إلى تلك القرية. أنا قلت مليون ونصف ملعون، وأعني بذلك مليوناً و...".

تحتم عليه أن يتوقف؛ فقد كان يمضغ البان وامتلأ فمه باللعاب الأحمر الذي بدأ يسيل من فمه. التفت إليّ، وأشار بيده أن آتيه بصحن ما. هرعت إلى الهوندا سيتي كي آتي بالمبصقة.

وحين جئته بالمبصقة التفت ببرود إلى النمس وقال: "هلا أمسكت بالمبصقة يا بني؟".

رفض النمس التحرك، فأخذ الاشتراكي الكبير المبصقة من يدي وحملها هو.

- "خذها يا بني".

أخذها النمس.

ثم بصق الاشتراكي الكبير في المبصقة ثلاث مرات.

كانت يد النمس ترتعش، واسودّ وجهه من العار.

قال الاشتراكي الكبير وهو يمسح شفتيه: "شكراً بني". ثم التفت إليّ واضعاً يده على جبهته. "أين كنتُ الآن؟".

هكذا كما ترى. تلك كانت الميزة الإيجابية للاشتراكي الكبير. إنه يهين كل سادتنا؛ ولهذا نستمر في التصويت له.

في تلك الليلة، وبذريعة كنس الباحة مرة أخرى، اقتربت من اللّقلق وأولاده؛ كانوا جالسين على أريكة طويلة، ويمسكون بكؤوسهم المليئة بذلك السائل الذهبي ويتحدثون.

كان سـيدي موكيش قد انتهى للتو من حديثه؛ هز الرجل العجوز رأسه.

- "لا يمكننا أن نفعل ذلك موكيش. نحن بحاجة إليه".

- "أقول لك يا أبي، لم نعد بحاجة إليه. يمكننا الذهاب مباشـرة إلى دلهي. تعرفنا إلى أناس هناك".

- "أنا أتفق مع موكيش يا أبي. يجب علينا ألاّ نسمح له بمعاملتنا هكذا بعد الآن؛ كأننا عبيده".

- "اسكت يا آشوك. دعنا نناقش ذلك أنا وموكيش".

كنسـت الباحة مرتين وأصغيت. ثم بدأت أشـد شـبكة لعبة الريشـة المتهدلة للسيدة بنكي كي أتمكن من البقاء قريباً منهم للاستماع.

لكن العيون المتشككة للنيبالي التقطتني: "لا تتسكع هنا في الباحة. اذهب واجلس في غرفتك وانتظر حتى يطلبك السادة".

- "حسناً".

حدّق إليّ رام باهادور، لذلك قلت: "حسناً سيدي".

(بالمناسبة، سيدي، يقلق الخدم حين يناديهم الخدم الآخرون بكلمة "سيدي").

في الصباح التالي كنت أجفف بدلز وكدلز بعد أن حممتهما حين جاءني رام باهادور وقال: "هل ذهبت مرة إلى دلهي؟".

هززت رأسي.

- "سـيذهبان إلى دلهي بعد أسـبوع. السـيد آشـوك والسـيدة بنكي. سيغادران لمدة ثلاثة أشهر".

ركعت على ركبتي، ووجهت المجفف تحت أقدام كدلز، متظاهراً بعدم الاهتمام، وتساءلت عرضاً بقدر ما أستطيع: "لماذا؟".

هز النيبالي كتفيه. "من يدري؟ لسنا غير خدم". هنالك شيء واحد لم يكن يعرفه بالرغم من ذلك.

- "سيأخذان سائقاً واحداً. وهذا السائق سيحصل على ثلاثة آلاف روبية شهرياً؛ هذا ما سيدفعانه له في دلهي".

سقط المجفف من يدي. "هل أنت جاد؟ ثلاثة آلاف روبية؟".

- "نعم".

- "هل سيأخذانني يا سيدي؟"، نهضت وتساءلت متوسلاً: "هل ستجعلهما يأخذانني؟".

قال لي ساخراً بشفتيه النيباليتين: "سيأخذان رام بيرساد، ما لم...".

- "ما لم؟".

طقطق بعملة معدنية بيده.

- "خمسة آلاف روبية وسيقتنع اللّقلق بأنك الرجل المناسب للذهاب إلى دلهي".

- "خمسة آلاف؟ من أين لي هذا المبلغ؟ لقد سرقت عائلتي شيك الراتب كله!".

- "حسناً. في هذا الحال، سيتحول الأمر إلى رام بيرساد. أما أنت..."، وأشار إلى بدلز وكدلز، "أخمن أنك ستبقى تنظف الكلبين لبقية حياتك".

* * *

حين استيقظت، كنت أشعر بأنفي يحرقني.

لا يزال الظلام سائداً.

كان رام بيرساد مستيقظاً. كان جالساً على فراشه، يقطع البصل على لوح خشبي؛ سمعت التك تاك تاك من ضربات السكين على الخشبة.

فكّرت في نفسي وأنا أتقلب مغمضاً عيني، لأي غرض يقطع البصل في هذا الوقت المبكر بحق الله؟ أردت العودة إلى النوم ولكن التك تاك تاك لضربات السكين على الخشبة كانت تلح.

ثمة سرّ في عقل هذا الرجل.

بقيت مستيقظاً بينما كان الرجل يقطع البصل على فراشه. حاولت أن أفكّر في الأمر.

ما الذي لاحظته بشأن رام بيرساد في الأيام القليلة الماضية؟

هنالك شيء واحد، صار يعاني من صعوبة في التنفس. وتذمرت منه حتى السيدة بنكي. وتوقف فجأة عن الأكل معنا، داخل البيت أو خارجه. حتى في أيام الآحاد، عندما يتوفر لنا لحم الدجاج، صار رام بيرساد يرفض الأكل معنا، متعللاً بأنه أكل من قبل أو أنه ليس جائعاً، أو...

استمر تقطيع البصل، وطفقت أضيف الفكرة إلى الفكرة في الظلام.

راقبته طوال اليوم. قبيل المساء، وكما توقعت، راح يقترب من البوابة.

علمت من حديثي مع الطباخ، أن رام بيرساد بدأ يخرج من المنزل في الوقت نفسه كل مساء. تتبعته عن بعد. ذهب إلى مكان في المدينة لم أره من قبل، وسار متلفتاً في بعض الأزقة. في أحد الأماكن رأيته ينظر خلفه متوجساً إن كان أحد ما يتبعه. ثم تحرك مسرعاً.

توقف أمام مبنى من طابقين. كان الحائط مسوراً بشبكة حديدية منقَسمة إلى وحدتين؛ هنالك صف من الصنابير تبرز من الجدار أسفل الشبكة الحديدية. انحنى على الصنبور، غسل وجهه وغرغر ثم بصق. ثم خلع نعليه. كانت هنالك أحذية ونِعال محشورة في مربعات الشبكة الحديدية، وقام هو الآخر بوضع نعليه هناك ثم دخل المبنى وأغلق الباب.

ضربت جبهتي.

أي أحمق كنت! إنه شهر رمضان! إنهم يصومون عن الأكل

والشرب خلال النهار".

عدت إلى المنزل مسرعاً والتقيت بالنيبالي. كان واقفاً عند البوابة، ينظف أسنانه بعود صغير اقتطعه من شجرة النيم؛ الأمر الذي يفعله الكثير من الفقراء في بلادي، سيدي الرئيس، عندما ينظفون أسنانهم.

- "ذهبت لمشاهدة فيلم، يا سيدي".

- "تباً".

- "إنه فيلم عظيم يا سيدي، فيه رقص كثير. كان بطل الفيلم مسلماً. اسمه محمد محمد".

- "لا تضيع وقتي أيها الفتى. تحرك لتنظيف السيارة إذا لم يكن لديك ما تفعله".

- "محمد محمد هذا رجل مسلم فقير ونزيه ومثابر، ولكنه أراد العمل في بيت أحد الأشرار، أحد الملاّكين المتكبرين الذي لا يحب المسلمين؛ لذلك، كي يحصل على العمل ويطعم عائلته التي تتضور جوعاً، ادعى أنه هندوسي! وسمى نفسه رام بيرساد".

سقط العود من فم النيبالي.

- "وهل تعلم كيف تدبر أمره؟ لأن الحارس النيبالي في ذلك البيت، الذي يثق به السادة على نحو مطلق، وهو الذي من المفترض أن يكون قد عرف خلفية رام بيرساد، كان داخلاً (في) تلك المؤامرة!".

أمسكت به من ياقته قبل أن يهرب. من الناحية التقنية، وفي مثل أمور الصراع بين الخدم هذه، كل ما تحتاج إليه هو أن تعلن: لقد ربحت. لكن إن أردت القيام بهذه الصراعات، فمن الأفضل أن تقوم بها على نحو صحيح، لذلك قمت بصفعه.

منذ ذلك الوقت غدوت الخادم رقم واحد في المنزل.

عدت إلى الجامع. لا بد من أن تكون الصلاة قد انتهت الآن. من المؤكد أن رام بيرساد - أو محمد أو أياً كان اسمه الحقيقي - قد

خرج من الجامع، وأخذ نعليه من مربّع الشبكة، وطرحهما على الأرض، وحشر قدميه داخلهما، وراح يمشي. رآني - فغمزت له بعيني - فعرف أن اللعبة قد بدأت.

قمت بالمطلوب بأقل الكلمات.

ثم عدت إلى المنزل. كان النيبالي يراقبني من وراء القضبان السوداء. أخذت سلسلة المفاتيح التي لديه ووضعتها في جيبي. وقرصت قميصه: "اجلب لي الشاي. والبسكويت. وأريد بذلتك كذلك، فبذلتي اهترأت".

نمت على السرير في تلك الليلة.

في الصباح التالي دخل أحد ما إلى الغرفة. كان ذلك هو السائق رقم واحد سابقاً. ومن دون أن يكلمني راح يجمع حاجياته. جمعها كلها في حقيبة صغيرة.

فكرت، أي حياة تعسة كان يعيشها إذ تحتم عليه أن يخفي دينه واسمه، فقط من أجل أن يحصل على وظيفة سائق؛ وهو سائق جيد، لا جدال في ذلك، أفضل مما سأكون أنا عليه بكل تأكيد. جزء مني كان يحثني على النهوض والاعتذار منه هناك بقولي: اذهب وكن السائق هناك في دلهي. فأنت لم تؤذني أبداً، سامحني يا أخي.

استدرت إلى الجهة الأخرى، أخرجت بعض الغازات من مؤخرتي، وعدت إلى النوم.

حين استيقظت كان قد غادر.

جاء النيبالي في المساء تعلو وجهه تكشيرة؛ هي التكشيرة المزيفة نفسها التي يبديها للّقلق طوال اليوم. أخبرني أنه ما دام رام بيرساد قد ترك خدمتهم من دون كلمة، فسأسوق السيارة التي ستأخذ السيد آشوك والسيدة بنكي إلى دلهي. وهو شخصياً - وبكل قوة - قد أوصى باسمي لدى اللّقلق.

عدت إلى سريري - كله لي الآن - تمددت عليه وقلت: "هلا أزلت لي شبكات العناكب عن السقف؟".

حملق بي ولكنه لم يقل شيئاً، وذهب ليجلب المكنسة. صحت به:

- "سيدي!".

منذ ذلك الحين، صار يأتيني الشاي النيبالي الساخن وأيضاً البسكويت المحلى في طبق من البورسلين.

جاء كيشان إلى البوابة في ذلك الأحد، وسمع مني الأخبار. تصورت أنه سيوبخني على تركي لهم بهذه الصورة المفاجئة في القرية، لكن الفرح قد غلبه؛ اغرورقت عيناه بالدموع. فأحد أفراد عائلته سيخرج من (الظلام) وسيذهب إلى دلهي!

- "هذا ما كانت أمي تقوله دائماً. كانت تعلم أنك ستنجح".

بعد يومين انطلقت بالسيارة مع السيد آشوك والنمس والسيدة بنكي في سيارة الهوندا سيتي. كان المرور شائكاً - وتحتم عليّ السير خلف الحافلات التي يزدحم الشارع بها مع سيارات الجيب وهي تكاد تنفجر من كثرة الركاب المنحشرين في داخلها والمتعلقين بأبوابها من الخارج وحتى الصاعدين على سقوفها. كانوا آتين كلهم من (الظلام) إلى دلهي. لكأنك تشعر أن العالم كله كان يهاجر.

في كل مرة أمر بواحدة من تلك الحافلات، كان عليّ أن أكشّر؛ وبودّي أن أنزل زجاج النافذة وأصيح بهم، أنا ذاهب إلى دلهي في سيارة صغيرة؛ سيارة مكيفة!

لكنني متيقن أنهم كانوا يرون الكلمات في عيني.

عند الظهر ربّت السيد آشوك على كتفي.

من خلال تلك البداية، سيدي، كانت هنالك طريقة تمكنني من أن أفهم ما الذي كان يريد أن يقوله، الطريقة التي تفهم بها الكلاب

سادتها. أوقفت السيارة، وتحولت إلى مقعد اليسار وتحول هو إلى اليمين، وتلاقينا (إلى درجة أن شعر لحيته حك وجهي مثل فرشاة الحلاقة التي أستعملها كل صباح، فهب عطر الفاكهة الزكي واقتحم أنفي مباشرة، بينما صدم عرق الخدم المنبعث مني وجهه)، وصار هو السائق وصرت الراكب إلى جنبه.

شغّل محركَ السيارة.

شاهد النمس الذي كان طوال ذلك الوقت يقرأ الجريدة ما حدث.

- "لا تفعل ذلك يا آشوك".

كان النمس مثل مدير مدرسة عتيق يعرف الصحيح من الخطأ.

قال السيد آشوك: "أنت محق؛ يبدو هذا غريباً".

توقفت السيارة. تبادلنا المواقع مرة أخرى، وعدت لأكون السائق والخادم، وعاد السيد آشوك ليكون الراكب والسيد.

وصلنا دلهي في آخر الليل.

لم تصبح الساعة الثالثة بعد، يمكنني أن أواصل أكثر قليلاً. لكنني أريد التوقف، لأنني أريد أن أخبرك بقصة من نوع جديد.

هل تتذكر، سيدي الرئيس، المرة الأولى، ربما حين كنت يافعاً، عندما فتحت غطاء محرك السيارة ونظرت إلى أحشائها؟ هل تتذكر الأسلاك الملونة التي تلتف من جزء من السيارة إلى جزء آخر؟ والصندوق الأسود المليء بالأغطية الصفراء والأنابيب الغريبة التي يخرج منها البخار والزيت والشحوم من كل مكان؟ هل تتذكر كيف بدا ذلك الشيء فاتناً؟ عندما أحدق إلى ذلك الجزء من قصتي في نيودلهي، أشعر بالأمر نفسه. لو تسألني كي أوضح لك كيف يرتبط كل حدث بالآخر، أو كيف أن أحد البواعث يقوّي أو يُضعِف الباعث الآخر، أو كيف أحول تفكيري في سيدي من هذه الفكرة إلى تلك؛ سأقول لك إنني لا أفهم

هذه الأشـياء. لا يمكنني أن أكون متيقناً أن تلك القصة، كما سـأخبرك بها، هي القصة الحقيقية التي حري بها أن تسرد. لا يمكنني التيقن من أنني أعرف بالضبط سبب موت السيد آشوك.

من الأفضل لي أن أتوقف هنا.

عندما نلتقي مجدداً، في منتصف الليل، أرجو أن تذكرني بأن أحول الثريا قليلاً، فالقصة أمست منذ الآن أشد عتمة.

الليلة الرابعة

لا بد لي من التحدث أكثر عن هذه الثريا.

لِمَ لا؟ فلم تعد لي عائلة. وليس لي غير الثريات.

لدي هنا ثريا، فوق رأسي في مكتبي، ولدي اثنتان في شقتي في راج متجر مسار فيلاس الثاني، وواحدة في غرفة الجلوس، وأخرى صغيرة في الحمام. ربما تكون هي الثريا الوحيدة في بنغلور الموجودة في حمام!

كنت قد رأيت كل هذه الثريات في أحد الأيام، وهي مشدودة إلى غصن شجرة بانيان قرب متنزهات لالباف؛ كان يعرضها للبيع صبي قروي، فاشتريتها. استأجرت عربة تجرها الثيران، يقودها شخص لجلبها إلى البيت، وذهبنا جميعاً عبر شوارع بنغلور، أنا وهذا الرجل والثريات الأربع، في ليموزين تقودها ثيران!

إن رؤية الثريا تجعلني سعيداً. لِمَ لا؟ فأنا رجل حر، ومن حقي أن أشتري كل الثريات التي أريدها. وذلك لشيء واحد أنها تطرد السحالي من هذه الغرفة. وهو أمر صحيح سيدي الرئيس. السحالي لا تحب النور، وهي حالما ترى ثريا تبقى بعيدة.

لا أفهم لماذا لا يشتري بقية الناس الثريات، ويضعونها في كل مكان. يبدو لي أن الناس الأحرار لا يعرفون قيمة الحرية، تلك هي المشكلة.

في بعض الأحيان أنير كلتا الثريتين، ثم أضطجع وسط كل ذلك الضياء، وأشرع بالضحك. رجُل متخفٍّ وهو محاط بالثريات!

هنا أكشف لك عن هروب ناجح. الشرطة تبحث عني في الظلام: وأنا أخفي نفسي في النور.

في بنغلور!

من بين الاستعمالات الكثيرة للثريا، هذا الشيء غير المرغوب فيه وغير المحبوب، وهو أنك عندما تنسى شيئاً، فكل ما عليك فعله هو أن تحدق إلى القطع الزجاجية المشعة في السقف لبعض الوقت، أو خلال خمس دقائق ستتذكر بالضبط ما تحاول تذكره.

ألا ترى؟ كنت قد نسيت إلى أين وصلنا في الليلة الماضية، لذلك كان عليّ أن أستمر في الكلام عن الثريات لبعض الوقت، كي أشغلك، وها أنا الآن تذكرت أين كنا.

عاصمة بلادنا الزاهرة، حيث مكان البرلمان والسيد رئيس الجمهورية وكل الوزراء ورئيس الوزراء. فخر خطتنا المدنية. خزانة جمهوريتنا. هكذا يسمونها.

اسمح لسائق بأن يخبرك الحقيقة. والحقيقة أن دلهي مدينة مجنونة.

اسمع، يقطن الأغنياء في مستعمرات سكنية كبيرة مثل مستعمرة ديفنس، أو كريتر كايلاش، أو فاسانت كونج، والمنازل التي داخل تلك المستعمرات لها ترقيم وحروف، لكن ذلك الترقيم وتلك الحروف لا تتبع نظاماً منطقياً معروفاً. فعلى سبيل المثال، في تسلسل الحروف الإنكليزية الحرف A يتبعه الحرف B وهو الأمر المعروف لدى الجميع، حتى للناس من أمثالي الذين لا يعرفون الإنكليزية. ولكن في مثل هذه المستعمرات، هنالك منزل مرقم A231 والذي إلى جانبه مرقم F378. لذلك حين كانت السيدة بنكي تريد مني أخذها إلى كريتر كايلاش E231، كنت أتتبع البيوت حتى E200، وما إن أعتقد أنني اقتربتُ، يختفي زقاق E كلياً. ويكون البيت التالي بحرف S أو شيء من هذا القبيل.

حتى صرخت السيدة بنكي: "قلت لك لا تأتِ بهذا القروي من القرية!".

هنالك شيء آخر. كل شارع في دلهي له اسم مثل: شارع

أورانكازب، أو شارع هومايون، أو شارع ماكاريوس آركيبيشوب. ولا أحد من السادة أو الخدم يعرف اسم الشارع. حين تسأل: "أين شارع نيكولاي كوبرنيكوس مارج؟".

قد يكون الشخص ساكناً في نيكولاي كوبرنيكوس مارج طوال حياته، ويفتح فمه ليقول: "ماذا؟".

أو يقول: "سر أمامك واستدر نحو اليسار"، حتى وإن لم تكن لديه فكرة.

كل الشوارع تبدو متشابهة، كلها تستدير وتستدير حول ساحة معشوشبة تجد فيها رجالاً إما نائمين أو يأكلون أو يلعبون الورق، فتتجه إلى شارع آخر لتصادف ساحة أخرى معشوشبة حيث الرجال فيها إما نائمون أو يلعبون الورق، ويستمر الحال لأربعة شوارع جديدة، لتظل تائهاً وتائهاً وتائهاً في دلهي.

آلاف الناس يعيشون على أرصفة الشوارع في دلهي. لقد جاؤوا هم أيضاً من (الظلام). ويمكنك أن تعرف ذلك من أجسادهم النحيلة، ووجوههم القذرة، ومن الحياة الحيوانية التي يعيشونها تحت الجسور الضخمة، والطرقات السريعة المتشابكة، يشعلون النيران ويستحمون ويفتشون عن القمل في شعرهم بينما تضجّ حولهم محركات السيارات. هؤلاء المشردون من المشاكل الكبيرة التي تواجه السواقين. فهم لا ينتظرون إشارة المرور الحمراء؛ بل ينطلقون عابرين الشارع غير عابئين بما يمكن أن يحدث. وفي كل مرة أكبح فيها جماح السيارة لأتفادى الاصطدام بواحد منهم، يتعالى عليّ الصياح من مقعد الراكب.

لكنني أسألك: من الذي بنى دلهي بهذه الطريقة المجنونة؟ أي عباقرة مسؤولون عن جعل الزقاق F يأتي بعد الزقاق A، وأن المنزل رقم 69 يأتي بعد المنزل رقم 12؟ من أولئك الذين كانوا مشغولين جداً بالحفلات، وشرب السائل الإنكليزي، وأخذ الكلاب البومرانية للتنزه

والاستحمام إلى درجة أنهم وضعوا أسماءً للشوارع لا يمكن لأحد أن يتذكرها؟

- "هل ضللت الطريق مجدداً أيها السائق؟".

- "لا تضايقه مرة أخرى".

- "لماذا تدافع عنه دائماً، آشوك؟".

- "أليس لدينا ما هو أهم من أمر السائق لنناقشه؟ لماذا تتحدث دائماً عن هذا السائق؟".

- "حسناً، دعنا نناقش الأشياء الأخرى. ليتنا نناقش أمر زوجتك أولاً ومزاجها الغاضب".

- "هل تظن حقاً أن ذلك أهم من الضرائب؟ أسألك دائماً عما يجب أن نفعله بشأنها، ولكنك دائماً تغيّر الموضوع. أعتقد أن ما يطلبون منا دفعه أمر جنوني".

- "قلت لك إن المسألة سياسية. إنهم يرهقوننا لأن أبانا يسعى لإبعاد نفسه عن الاشتراكي الكبير".

- "لا أدري لماذا هو متورط مع هذا الوغد".

- "تحتم عليه أن ينخرط في السياسة يا آشوك؛ ليس لديك اختيار في (الظلام). ولا تخف، يمكننا أن نرتب أمر هذه الضريبة. هذه هي الهند، وليست أميركا. هنالك دائماً مخرج. لدينا هنا من يعمل من أجلنا؛ رامانثان. وهو منظم جيد لهذه الأمور".

- "رامانثان غير نزيه وغبي. نحتاج إلى محامٍ للضريبة يا موكيش! علينا أن نذهب إلى الصحافة، ونخبرهم أننا اغتُصِبنا من قبل هؤلاء السياسيين!".

رفع النمس صوته: "اسمع، أنت قد عدت للتو من أميركا. حتى هذا الرجل الذي يسوق الآن يعرف عن الهند أكثر منك. نحن نحتاج إلى منظم. سينظم لنا مقابلة مع الوزير الذي نبتغي مقابلته. هكذا تجري

الأمور في دلهي".

مال النمس إلى الأمام، وربت على كتفي: "هل تهت مجدداً؟ هل تعتقد أنك ستجد طريقك إلى البيت هذه المرة من دون أن تتوه اثنتي عشرة مرة؟".

تنهد وعاد إلى جلسته. "ما كان حرياً بنا أن نأتي به إلى هنا. فلا أمل فيه. لقد أخطأ رام بهادور كثيراً بشأن هذا الشخص يا آشوك".

- "همم؟".

- "انظر في هاتفك لدقيقة. هل أخبرت بنكي أنكما عدتما نهائياً؟".

- "همم. بلى".

- "ماذا كان رد الملكة؟".

- "لا تنعتها بذلك. إنها زوجة أخيك يا موكيش. ستكون سعيدة في غوركون، إنها الجزء الأكثر أميركياً في المدينة".

كان تفكير السيد آشوك ذكياً. قبل عشر سنوات، كما يقال، لم يكن هنالك شيء في غوركون، لا شيء غير الجواميس والفلاحين البنجاميين البدناء. أما اليوم فهي الضاحية الأكثر تمدناً في دلهي. هنالك طريق سريعة أميركية ومايكروسوفت ومكاتب لكل الشركات الأميركية الكبيرة. الشارع الرئيسي مليء بالمتاجر الكبيرة؛ وكل متجر كبير فيه دار للسينما! لذلك إن اشتاقت السيدة بنكي إلى أميركا، فهذا هو أفضل مكان يمكن أن يعوضها عنها.

قال النمس: "انظر ماذا فعل هذا المتخلف؛ ها قد ضل الطريق مجدداً".

مدّ يده ولطمني بها على رأسي: "أنت أيها الأبله، اتجه إلى يسار النبع! ألا تعرف كيف تصل إلى البيت من هنا؟".

رحت أعتذر، ولكن صوتاً من الخلف كان يقول لي: "لا بأس

بالرام. أوصلنا فقط إلى البيت".

- "ها أنت تعود لتدافع عنه".

- "ضع نفسك مكانه، موكيش. هل يمكنك تخيل كم أن دلهي مربكة بالنسبة إليه؟ لا بد من أنه يشبه حالي حين وصلت إلى نيويورك للمرة الأولى".

غيّر النمس كلامه إلى الإنكليزية - فلم أفهم من كلامه شيئاً - ولكن السيد آشوك كان يرد بالهندية: "هذا هو رأي بنكي أيضاً. هذا هو الشيء الوحيد الذي تتفقان عليه أنت وهي، أما أنا فلا أرى ذلك، موكيش. نحن لا نعرف الناس في دلهي. أما هذا الشخص فيمكننا الوثوق به لأنه من بلدتنا".

في تلك اللحظة نظرت عبر المرآة، ولمحت عيني السيد آشوك تنظران إليّ: ورأيت في عيني السيد تلك العاطفة غير المتوقعة أبداً. إنها الشفقة.

* * *

- "كم يدفعون لك أيها الفأر القروي؟".

- "ما يكفي. أنا سعيد".

- "لا تريد أن تقول لي أيها الفأر القروي؟ ولد طيب. خادم وفيّ حتى النهاية. هل تحب دلهي؟".

- "نعم".

- "ها! لا تكذب علي يا... أعلم أنك ضائع هنا. لا بد من أنك تكرهها!".

حاول أن يضع يده عليّ فتراجعت متلوياً. كان مصاباً بمرض جلدي؛ اسمه فيتيليجو الذي جعل شفتيه تتخذان اللون الوردي وسط وجه أسود داكن. حري بي أن أوضح أمر هذا الوباء الذي يصيب الكثير

من الفقراء في بلادنا. لا أعرف سبب إصابتهم به، ولكن ما إن تصاب به حتى يتغير لون جلدك من الأسمر إلى الوردي. تسعة أعشار منه يكون علـى شـاكلة بقـع ورديـة صغيـرة علـى أنف الصبـي أو خديه، مثل نجمة متفجرة في وجهه أو طفح جلدي على الذراع، كأن أحداً ما قد أحرقه بماء مغلي. ولكن في بعض الأحيان يتغير لون جسم الشخص بكامله، ومـا إن تمـر بـه، حتـى تقـول: (أميركي)! وتقف لتنظر بدهشـة؛ بودك لو تقترب وتلمسه حتى تدرك أنه واحد منا، بتلك الحالة المرعبة.

بخصوص هذا السـائق، فإذ غيّر اللون الوردي الفاتح لون شـفتيه كلياً – ولا شيء غير ذلك – فقد بدا مثل مهرج سيرك مصبوغ الشفتين. تؤلمني معدتي ما إن أرى وجهه. ومع ذلك، كان الوحيد من بين السواقين الذي يعاملني بلطف، لذلك بقيت قريباً منه.

كنا خارج المتجر الكبير. ما يقارب الاثني عشـر سـائقاً ننتظر أن ينتهي سادتنا من التسوق. لم يسمح لنا بالدخول إلى المتجر؛ ولا حاجة إلى أن يقولوا لنا ذلك. وقفنا في حلقة عند جانب المرأب وكنا ندخن ونثرثـر؛ وبيـن الحيـن والآخـر كان أحـد منا يبصـق رذاذاً أحمر من البان من فمه.

بناءً على أنه هو الآخر قد تحدر من (الظلام) – فقد علم بجذوري في الحال – لقد أعطاني السائق المصاب بداء في شفتيه درساً في كيفية أن تعيش في دلهي متيقناً أنني لن أعود إلى (الظلام) على سطح إحدى الحافلات.

– "الشـيء الرئيسـي الـذي عليـك تعلمـه عـن دلهـي أن الشـوارع جيدة والناس سـيئون. الشـرطة فاسـدة (كلياً). لو رأوك لا تضع حزام الأمان سـيتحتم عليك أن ترشـوهم بمئة روبية. وسـادتنا بدورهم ليسـوا خيريـن البتـة. عندمـا يذهبـون إلـى حفلاتهم الليليـة المتأخرة يكون ذلك علينـا الجحيـم بعينـه. فأنـت تنام في السـيارة بينما تأكلك البراغيث حياً.

لو كانت من براغيث الملاريا، فلا بأس، فأنت تهذي لبضعة أسابيع لا غير، ولكن لو كانت من براغيث حمى الضنك، فأنت في أسوأ حال، وستموت حتماً. يأتيك في الثانية بعد منتصف الليل ويطرق على النافذة يناديك، ورائحة الشراب تفوح منه، ويطلق الغازات في السيارة طوال الطريق. في كانون الثاني يكون الطقس بارداً جداً. إن علمت أنه مدعو لحفلة ساهرة، فخذ معك بطانية لتغطي بها نفسك في السيارة. كما أنها تحميك من البراغيث. وسيصيبك الضجر من انتظاره في السيارة حتى يعود من حفلته - أعرف سائقاً اختل عقله من الانتظار - لذلك تحتاج إلى شيء ما تقرأه. يمكنك (القراءة) أليس كذلك؟ جيد. من المؤكد أن أفضل شيء تفعله هو القراءة في السيارة".

ناولني مجلة ذات غلاف فاتن؛ امرأة تضطجع على الفراش، مرتعدة من ظل رجل.

جريمة الأسبوع
الثمن 4.50 روبية
قصة حقيقية كاملة
«الجسد الطيب لا يرمى أبداً في النفايات»
جريمة. اغتصاب. انتقام.

أريد الآن أن أحدثك عن هذه المجلة، جريمة الأسبوع، ما دام رئيس وزرائنا لن يحدثك بشيء عنها بالتأكيد. إنها تباع في كل أكشاك الصحف في المدينة، بصحبة الروايات الرخيصة وهي واسعة الانتشار بين كل الخدم في المدينة؛ إن كانوا طباخين أو مربيات أطفال أو بستانيين. ولا يشذّ عن ذلك السائقون. عندما تصدر هذه المجلة في كل أسبوع وعلى غلافها صورة لامرأة تداري نفسها من القاتل المزعوم، يشتري أحد السواقين المجلة ومن ثم يعيرها إلى السواقين الآخرين.

لا تشعر بالذعر سيدي رئيس الوزراء، ولا حاجة إلى أن تتصبب قطرات من العرق البارد على جبينك الأصفر. فمجرد قراءة السواقين

والطباخين في دلهي لجريمة الأسبوع، لا يعني أنهم جميعاً على وشك أن يقطعوا رقاب أسيادهم. إنهم بالطبع يودون ذلك. بالطبع، إن ملياراً من الخدم يتخيلون في سرهم أنهم يخنقون رؤساءهم؛ ولهذا تنشر الحكومة الهندية هذه المجلة وتبيعها مقابل ثمن زهيد هو أربع روبيات ونصف كي يشتريها حتى الفقراء. أنت ترى أن القاتل في المجلة مختل عقلياً ومهووس جنسياً كي يتمنى القراء ألاّ يكونوا مثله؛ وفي النهاية يقبض عليه ضابط شرطة مثابر وشريف (ها!) أو يصيبه الجنون ويشنق نفسه بالشرشف بعد أن يكتب رسالة عاطفية إلى أمه أو إلى مدير مدرسته الابتدائية، أو يطارد ويضرب ويشنق بحبل من قبل أخ المرأة التي فعل بها ما فعل. لذلك استرخِ إن كان سائقك يقلب صفحات جريمة الأسبوع. على العكس، لا خطر عليك.

لكن حين يبدأ السائق بقراءة غاندي وبوذا، عندئذ يحين الوقت كي تبلل بنطالك، سيد جياباو.

بعد أن أراني ذو الشفتين الورديتين المجلة ووضعها وسط المكان الذي يتجمع فيه السائقون؛ تقاتلوا عليها، مثل عصبة كلاب تندفع نحو عظم. فغر فاه متثائباً ونظر إليّ.

- "كيف يكسب رئيسك عيشه يا فأر القرية؟".

- "لا أعلم".

- "هل هذا لكونك وفياً أم أبله، يا فأر القرية؟ من أين هو؟".

- "دانباد".

- "معنى هذا أنه يعمل بالفحم. من المحتمل أنه هنا لرشوة الوزراء. الفحم عمل فاسد". وعاد ليتثاءب. "كنت سائقاً لرجل يبيع الفحم. عمل فاسد فاسد. ولكنّ رئيسي الجديد يعمل في الفولاذ، وهو يجعل من يعملون بالفحم أشبه بالطاهرين الصالحين. أين يعيش؟".

أخبرته بزقاق شقتنا.

- "سيدي يعيش هناك أيضاً! نحن جيران".

مال إليّ مباشرة؛ من دون أن يبتعد - ما جعله يبدو فظاً - أبعدت جسدي عن شفتيه قدر استطاعتي.

- "يا فأر القرية؛ هل سيدك..."، ونظر حوله، وخفض من صوته ليهمس: "يحتاج إلى شيء؟".

- "ماذا تقصد؟".

- "هل يحب سيدك الشراب الفرنسي الأجنبي؟ لدي صديق يعمل سائقاً في سفارة أجنبية ولديه اتصالات هناك. أنت تعرف تهريب الشراب الفرنسي الأجنبي من السفارات؟".

هززت رأسي.

- "التهريب هو هكذا يا فأر القرية. الشراب الفرنسي الأجنبي غالٍ جداً في دلهي بسبب الضريبة، لكنّ السفارات تحصل عليه مجاناً. فمن المفروض أنهم يشربون شرابهم، ولكنهم يبيعونه في السوق السوداء. ويمكنني أن أحصل له على موادّ أخرى. هل يحتاج إلى كرات غولف؟ أعرف أناساً في القنصلية الأميركية يبيعون لي هذه الأشياء. هل يريد نساءً؟ يمكنني أن آتيه بهن كذلك. وإن رغب بالأولاد، فلا مشكلة لدي".

- "سيدي لا يفعل هذه الأشياء. إنه رجل صالح".

انفرجت الشفتان المريضتان عن ابتسامة: "أليسوا كلهم هكذا؟".

راح يردد أغنية من فيلم هندي. كان أحد السائقين قد بدأ يقرأ المجلة بينما سكت الآخرون لينصتوا إليه. نظرت إلى المتجر لبعض الوقت.

التفتّ إلى السائق ذي الشفتين الورديتين الفظيعتين وقلت له: "لدي سؤال أود طرحه عليك".

- "حسناً، اسأل. سأفعل أي شيء من أجلك، يا فأر القرية".

- "هذه البناية التي يسمونها المتجر الكبير، تلك التي تعلق عليها صور النساء، إنها للتسوق، صحيح؟".

- "صحيح".

- "وماذا عن تلك؟". أشرت إلى بناية زجاجية لامعة إلى اليسار. "هل هذه أيضاً عبارة عن متجر كبير؟ لا أرى أي صور للنساء معلقة؟".

- "هذه ليست متجراً كبيراً يا فأر القرية. هذه بناية دائرة رسمية. إنهم يتصلون من خلالها بأميركا".

- "أي نوع من الاتصالات؟".

- "لا أدري. ابنة سيدي تعمل في واحدة من تلك البنايات. آتي بها إلى هنا عند الساعة الثامنة وهي تعود عند الثانية بعد منتصف الليل. أدري أنها تكسب الكثير والكثير من المال في هذه البناية، لأنها تصرفه كله في المتاجر الكبيرة". ومال إليّ مقترباً؛ الشفتان الورديتان كانتا على بعد سنتيمترات مني. "الكلام بيننا، أعتقد أنه أمر غريب؛ البنات يدخلن البنايات في آخر الليل ويخرجن بنقد كثير في الصباح".

غمز بعينه. "أي شيء آخر يا فأر القرية؟ أنت شخص فضوليّ".

أشرت إلى واحدة من البنات كانت خارجة من المتجر.

- "ماذا بشأنها يا فأر القرية؟ هل أعجبتك؟".

شعرت بالخجل. قلت: "أخبرني، هل البنات في المدينة، مثلها، ليس لديهن شعر تحت آباطهن وعلى سيقانهن كما هو حال النساء في قرانا؟".

* * *

بعد نصف ساعة خرج سيدي موكيش والسيد آشوك والسيدة بنكي من المتجر يحملون أكياس التسوق؛ هرعت راكضاً وأخذت أكياسهم، ووضعتها في صندوق السيارة ثم أغلقته، وقفزت في مقعد السائق،

وأخذتهم إلى بيتهم الجديد الذي كان في الطابق الثالث عشر في بناية هائلة. كان اسم البناية أبراج باكنغهام B. كانت بجانب بناية كبيرة أخرى، بنيت من قِبَل شركة البناء نفسها، واسمها أبراج باكنغهام A. وإلى جانب تلك كانت وندسور مانور A. هنالك صفوف من الشقق مثل هذه، كلها لامعة وجديدة ولها أسماء إنكليزية كبيرة وجميلة، على مدّ البصر. كانت أبراج باكنغهام B واحدة من أفضلها، ففيها قاعة انتظار كبيرة وجميلة، وثمة مصعد في القاعة يوصلنا كلنا إلى الطابق الثالث عشر.

شخصياً، لم أحب الشقة كثيراً، فالمكان كله كان بحجم المطبخ في داناباد. كانت هنالك أرائك بيضاء ناعمة وجميلة في الداخل، وعلى الحائط فوق الأرائك صورة مؤطرة هائلة الحجم لكدلز ويدلز. لم يسمح اللّقلق بأن يأتيا معنا إلى المدينة.

لم أكن أطيق النظر إلى ذينك المخلوقين، حتى في الصورة، وبقيت أشيح بنظري عنهما نحو السجاد كلما كنت في الغرفة؛ الأمر الذي قدم لي فائدة مضافة لأبدو خادماً موثوقاً به.

- "ضع الأكياس أينما تشاء، بالرام".

قال النمس: "كلا. ضعها في الأسفل إلى جانب الطاولة. ضعها هناك بالضبط".

بعد أن وضعت الأكياس، ذهبت إلى المطبخ، لأرى إن كانت هناك حاجة إلى تنظيفات، كان هناك خادم عمله فقط العناية بالشقة، لكنه كان قذراً، وكما قلت، لم يكن لديهم في الحقيقة سائق، خادم مخصص لسياقة السيارة فحسب. كنت أعرف مسبقاً أن عليّ الاهتمام بالشقة علاوة على السياقة. لذلك قمت بأي تنظيفات مطلوبة، ثم عدت وانتظرت عند الباب معقود الذراعين حتى قال لي سيدي موكيش: "يمكنك الذهاب الآن. وكن حاضراً عند الساعة الثامنة صباحاً. غير مسموح لك بأي ألاعيب لكونك في المدينة، مفهوم؟".

هبطت بالمصعد، وخرجت من البناية، ثم نزلت السلالم إلى سكن الخدم في الطابق السفليّ.

لا أعلم كيفية تصميم البنايات في بلادكم، ولكن في الهند أي صف من الشقق وأي بيت وأي فندق يُبنى معه سكن للخدم؛ أحياناً في الخلف وأحياناً (كما هو حال أبراج باكنغهام B) تحت الأرض، ردهة ذات غرف متداخلة تجمع كل السواقين والطباخين والمنظفين في الشقق للراحة والنوم والانتظار. عندما يريدنا أسيادنا ثمة جرس كهربائي يرن في الردهة، فنندفع إلى اللوحة، ونجد ضوءاً أحمر متوقداً إلى جانب رقم الشقة التي تطلب الخادم إليها.

هبطت السلالم لطابقين، ودفعت الباب لينفتح على ردهة الخدم.

في لحظة وصولي صاح الخدم صارخين ضاجين بالضحك.

كان السائق ذو الشفتين الورديتين جالساً معهم، وهو أشدهم صخباً. لقد أخبرهم بالسؤال الذي سألته إياه. لم يستطيعوا مقاومة التسلية؛ لذلك كان على كل واحد منهم أن يأتي إليّ ويقحم أصابعه في شعري ويدعوني بالأبله القروي، ويضربني على مؤخرتي.

يحتاج الخدم إلى مضايقة الخدم الآخرين. وهو أمر جبلنا عليه، كما جبلت عليه كلاب الساتين في مهاجمة الغرباء. نحن نهاجم أي أحد مألوف لدينا.

منذ ذلك الوقت قررت ألاّ أخبر أحداًفي دلهي بما أفكر فيه. وخصوصاً من الخدم الآخرين.

ظلوا يسخرون مني طوال المساء، وحتى في الليل عندما توجهنا إلى النوم. شيء ما في وجهي وأنفي وأسناني، لا أعرف، كان يثيرهم. كانوا يسخرون حتى من زيي الخاص. فالسائقون في المدينة لا يرتدون زياً خاصاً. كانوا يقولون إنني كنت أبدو كالقرد في ذلك الزي. لذلك

ارتديت قميصاً وبنطلوناً قذرين كالبقية منهم، لكن السخرية استمرت طوال الليل.

في الصباح رأيت رجلاً يعمل منظفاً للمكان، فسألته إن كان هنالك مكان ما يمكن للإنسان أن يكون فيه بمفرده؟

أخبرني قائلاً: "ثمة غرفة منعزلة في الجانب الآخر من الردهة، ولكن لا أحد يريدها. من يريد العيش منعزلاً؟".

كانت غرفة في حالة فظيعة. لم يكن سقفها قد اكتمل بعد والجدران طليت بالجص حتى يمكنك أن ترى آثار اليد عليها. كان ثمة سرير خفيف وصغير بالكاد يكفيني، وعليه ناموسية لمنع الناموس.

كانت تنفعني.

لم أنم تلك الليلة في منام الخدم الجماعي؛ إذ ذهبت إلى تلك الغرفة. كنست الأرضية. ثبتُّ الناموسية بمسامير أربعة على الجدران ونمت. في منتصف الليل أدركت لماذا تُركت هنا الناموسية فقد أيقظتني ضوضاء. كان الحائط مغطى بالصراصير التي تأتي لتتغذى على المعادن أو الحجر الجيري في الجص؛ كان قضمها يحدث ضوضاء مستمرة، وكانت قرون استشعارها ترتعش من أي بقعة على الحائط. كانت بعض الصراصير تحط على الناموسية؛ وكنت أرى من داخل نسيج الناموسية أجسامها الداكنة. طويت الناموسية وسحقت أحدها. لكن الصراصير الأخرى لم تهتم بذلك، وظلت واقفة على الناموسية، ويتم سحقها. وفكرت، ربما تعوّد أي واحد يعيش في المدينة على أن يكون بطيئاً وبليداً بهذه الطريقة، ثم ابتسمت وعدت إلى النوم.

عندما جئت إلى الحمام الجماعي سخروا مني، "ليلة سعيدة بين الصراصير".

هنالك تلاشت أي فكرة للعودة إلى قاعة المنام. كانت الغرفة مليئة بالصراصير، ولكنها لي ولا أحد يضايقني فيها. إحدى السلبيات هنا أن

الجرس الكهربائي لا يصل رنينه؛ ولكن ذلك مفيد أيضاً، كما اكتشفت ذلك في ما بعد.

في الصباح، وبعد انتظار دوري عند الحمام، ثم دوري عند المغسلة، وبعد ذلك دوري عند المرحاض، صعدت سلماً واحداً، وفتحت الباب المؤدي إلى المرأب، ومشيت إلى موقع سيارة الهوندا سيتي. كان لا بد من تلميع السيارة بقطعة قماش ناعمة ورطبة من الداخل والخارج؛ ولا بد من وضع عود بخور عند التمثال الصغير لاكشمي، سيد الثروة، الذي كان موضوعاً على لوحة أجهزة القياس في السيارة، وهذا ما كانت له فائدة مزدوجة وهي طرد الناموس من السيارة التي تسلل إليها في الليل، ونشر رائحة عطرة في داخل السيارة. مسحت المقاعد؛ المقاعد الجلدية ذات النسيج المزأبر؛ مسحت الأقراص؛ رفعت القطع الجلدية التي توضع على الأرضية، ونظفتها من الغبار. كانت هنالك ثلاثة ملصقات ممغنطة تحمل صوراً لكالي(*) على لوحة أجهزة القياس؛ وضعتها هناك بعد أن رميت ملصقات رام بيرساد؛ مسحتها كلها. كانت هنالك أيضاً دمية معلقة بسلسلة على مرآة الرؤية الخلفية تمثل غولاً صغيراً ناعماً له لسان أحمر خارج من فمه. كان من المفترض أن يكون جالباً للحظ، وكان اللّقلق يحب أن يراه يتأرجح في أثناء حركة السيارة. قرصت الغول من فمه، ثم نفضته من الغبار. ثم جاء عمل التأكد من صندوق المناديل الورقية الموضوع على المقعد الخلفي للسيارة، كان منقوشاً بحرفية ولامعاً، مثل شيء ثمين تملكه عائلة ملكية، بالرغم من أنه مصنوع من الورق المقوى. تأكدت من وجود مناديل ورقية جديدة فيه. كانت السيدة بنكي تستعمل الكثير منها في كل مرة نخرج فيها؛ كانت تقول إن التلوث في دلهي سيئ جداً. كانت تترك المناديل المستعملة إلى جانب الصندوق، مما يحتم عليّ أن ألتقطها وأرميها.

(*) كالي أو كاليكا: الإلهة المرتبطة، بالموت والدمار في الهندوسية.

تردد صوت الجرس الكهربائي في المرأب. سمعت صوت مكبر الصوت في قاعة الانتظار ينادي "السائق بالرام. احضر رجاء إلى المدخل الرئيسي لباكنغهام B مع السيارة".

عليه، ركبت سيارة الهوندا سيتي، تجاوزت المنحدر، وخرجت لأرى أول ضياء للنهار.

كان الشقيقان يرتديان بذلتين أنيقتين ويقفان عند الباب الخارجي للبناية، كانا يتحدثان كأنهما يزقزقان؛ وحين ركبا السيارة، قال النمس: "إلى المقر الرئيسي لحزب المؤتمر بالرام. ذهبنا إليه أمس، آمل أن تتذكره ولا تضل الطريق مجدداً".

لن أخيب أملكما اليوم، سيدي.

كانت تلك هي ساعة الزحام في دلهي. سيارات، ودراجات أحادية للصبية، ودراجات هوائية ونارية، وعربات، وسيارات أجرة سوداء، كلها تتسارع للبحث عن مجال في الطريق. الهواء ملوث لدرجة أن راكبي الدراجات النارية ودراجات الصبية يلفون وجوههم بمناديل، وفي كل مرة تقف فيها عند إشارة المرور الحمراء ترى صفاً من الرجال الذين يضعون النظارات السوداء والأقنعة على وجوههم حتى لكأن المدينة بأكملها كانت تريد أن تسطو على مصرف في ذلك الصباح.

كان هنالك سبب وجيه لوضع الأقنعة؛ فيقال إن الهواء ملوث جداً في دلهي حتى إنه يختزل عشر سنوات من عمر الإنسان. بالطبع أولئك الأغنياء الذين في داخل السيارات الفارهة لا يتحتم عليهم تنفس الهواء الملوث في الخارج؛ بل يتنفسون هواءً نظيفاً وبارداً. تنزلق تلك السيارات في شوارع دلهي مثل بيوض داكنة. بين الحين والآخر تفقس بيضة؛ لتخرج منها يد امرأة متألقة بأساور الذهب ممتدة من النافذة المفتوحة، لتقذف في الشارع قنينة مياه معدنية فارغة ثم تنغلق النافذة.

كنت أنطلق ببيضتي الداكنة في قلب المدينة. إلى يساري كنت

أرى قباب قصر الرئيس؛ المكان الذي تقام فيه كل الأعمال المهمة التي تخص البلد. عندما يزداد التلوث في المدينة، يحتجب القصر كلياً عن الشارع؛ لكنه اليوم يبدو زاهياً وجميلاً.

وصلت إلى مقر حزب المؤتمر خلال عشر دقائق. فمن السهل الاستدلال على هذا المكان لوجود ثلاثة إعلانات عملاقة تحمل صوراً لوجه سونيا غاندي.

أوقفت السيارة، وخرجت مسرعاً، وفتحت الباب للسيد آشوك والنمس؛ قال لي السيد آشوك وهو يخرج: "سنعود بعد نصف ساعة".

أربكني الأمر؛ فلم يحدث أبداً في دانباد أنهم أخبروني عن موعد عودتهم. هو بالطبع أمر لا يعني شيئاً، فقد يستغرق الأمر ساعتين أو ثلاث حتى يعودا، ولكن كان ذلك نوعاً من اللياقة لا بد لهما من أن يتحليا به لأنهما في دلهي.

جاءت مجموعة من المزارعين إلى المقر الرئيسي للحزب ولم يسمح لهم بالدخول، مما دعاهم لرفع أصواتهم بكلام ما ثم غادروا. ثم جاءت شاحنة تابعة للتلفاز إلى المقر، فأدخلوها في الحال.

تثاءبت. قرصت الغول الأسود الصغير من فمه الأحمر وراح يتأرجح جيئة وذهاباً. وتلفتّ حولي من جهة إلى أخرى.

نظرت إلى الصورة الكبيرة لسونيا غاندي. كانت ترفع يدها، وكأنها كانت تلوّح لي؛ فلوّحت لها بدوري.

تثاءبت وأغمضت عيني، وانزلقت أسفل مقعدي. وبعين نصف مفتوحة نظرت إلى الملصق الممغنط لكالي التي كانت سيدة سوداء شرسة، تحمل سيفاً بتاراً وحلقة من الجماجم. كنت قد نويت أن أغير ذلك الملصق. هذه السيدة تشبه جدتي إلى حدٍّ بعيد.

عاد الأخوان بعد ساعتين إلى السيارة.

- "سنذهب إلى قصر الرئيس يا بالرام، في أعلى التل. أنت تعرف المكان؟".

- "نعم سيدي، لقد رأيته".

كنت قد رأيت من قبل أغلب المناطق الشهيرة في دلهي؛ قصر البرلمان، وجانتار مانتار وقطب، ولكنني لم أصل إلى هذا المكان؛ وهو المكان الأكثر أهمية. قدت السيارة نحو رايزينا هيل، ثم صعدت التل، متوقفاً بين الحين والآخر إذ يقوم أحد الحراس بالتأكد من الذين داخل السيارة، وبعد ذلك وقفت أمام بنايات ضخمة ذات قباب حول قصر الرئيس.

- "انتظر في السيارة يا بالرام. سنعود بعد ثلاثين دقيقة".

في نصف الساعة الأولى كنت خائفاً من الخروج من السيارة. فتحت السيارة، وخطوت خارجها، ونظرت حولي. في مكان ما داخل هذه القباب والأبراج التي من حولي، ثمة رجالات هذا البلد؛ رئيس الوزراء، ورئيس الجمهورية، والوزراء الكبار، والبيروقراطيون، كلّهم يناقشون الأمور ويدونونها ويصادقون على الأوراق. أحدهم كان يقول: "هاك خمسمئة مليون روبية لذلك السدا"، وآخر كان يقول: "حسناً، هاجم باكستان!".

وددت أن أركض صائحاً: "بالرام هنا أيضاً! بالرام هنا أيضاً!".

عدت إلى السيارة كي لا أفكر في ارتكاب حماقة وإلقاء القبض عليّ.

حل الظلام حتى عاد الأخوان من البناية؛ تمشى معهما رجل بدين، وتحدث إليهما لبعض الوقت خارج السيارة، ثم صافحهما ولوّح بيده مودعاً إيانا.

كان السيد آشوك متجهماً ومسوداً حين دخل السيارة. طلب مني النمس أن آخذهما إلى البيت "من دون أن تخطئ مرة أخرى، مفهوم؟".

- "نعم، سيدي".

جلسا صامتين وهذا ما أربكني. لو أنني كنت للتو في قصر الرئيس، لكنت أنزلت زجاج النوافذ، وصحت عالياً لكل من في الطريق!

- "انظرا إلى ذلك".

- "ما هو؟".

- "ذلك التمثال".

نظرت إلى الخارج لأرى تمثالاً برونزياً كبيراً لمجموعة من الرجال؛ إنه تمثال شهير، والذي من المؤكد أنك ستراه في دلهي؛ المهاتما غاندي في المقدمة مع عكازه، وخلفه الشعب الهندي وهو ينتقل من (الظلام) إلى (النور).

نظر النمس شزراً إلى التمثال.

- "ماذا عنه؟ لقد رأيته من قبل".

- "نحن نسوق سيارتنا مارين بتمثال غاندي، بعد أن قدمنا للتو رشوة لوزير. هذه مزحة لعينة، أليس كذلك؟".

قال النمس: "تبدو الآن مثل زوجتك. لا أحب السباب؛ إنه ليس من تقاليدنا هنا".

ولكن السيد آشوك الذي احمّر وجهه لم يستطع السكوت.

- "إن نظامنا السياسي هذا مزحة لعينة؛ وسأبقى أقولها متى أشاء".

- "تعقدت الأحوال في الهند آشوك. لسنا في أميركا. أرجوك احتفظ بتقييماتك".

* * *

كان هنالك زحام كبير في الطريق إلى غوركون. كل خمس دقائق ترتعش أنوار المرور؛ نتقدم قدماً واحدة آملين أن تتغير، فيضاء الضوء الأحمر فوق رأسي فنلصق مرة أخرى. تذمر الجميع. وبين الحين والآخر تسمع أصوات الأبواق المختلفة، كل بوق له نغمته، مندمجة مع عويل

مستمر بدا مثل خوار عجل أخذ من أمه. وملأ الدخان الهواء؛ خيوط زرقاء من العادم تتوهج أمام أضواء السيارات؛ وازدادت كثافة الدخان حتى عاد غير قابل لأن يرتفع أو يتلاشى، بل راح ينتشر أفقياً، بطيئاً ولامعاً، ليكوّن نوعاً من الضباب من حولنا. شرعت أعواد الكبريت بالاشتعال، إذ أشعل سواقو العربات سجائرهم، فأضافوا تلوث التبغ إلى تلوّث البترول.

وقف أمامنا رجل يسوق عربة يجرها جاموس؛ كان قد وضع في عربته حِملاً من صفائح زيت المحركات الفارغة بارتفاع خمس عشرة قدماً شده بحبل. يجرّ الجاموس المسكين هذا الثقل الكبير ويتنفس هذا الهواء!

طفق سائق العربة الذي إلى جانبي يسعل بقوة؛ والتفت جانباً وبصق ثلاث مرات متتالية. البعض من بصاقه كوّن بقعاً على سيارة الهوندا سيتي. استشطت غيظاً، فرفعت قبضتي. فانكمش، وتوسل معتذراً.

قال السيد آشوك ناظراً إلى سائق العربة: "لكأننا في كونشرتو للبصاق!".

فكرت: لو أنك في الخارج تتنفس ذلك الهواء الحمضي، لكنت تبصق مثله.

عادت السيارات إلى الحركة، تحركنا مرة أخرى ثلاث أقدام ثم عاد الضوء الأحمر، وعاد كل شيء ليتوقف.

- "من الواضح أنهم في بكين لديهم أكثر من عشر طرقات دوارة. أما هنا فلدينا طريق واحدة. فلا عجب أن تحدث الزحامات. لا تخطيط لدينا. فكيف لنا أن نلحق بالصينيين؟".

(بالمناسبة سيد جياباو لديكم أكثر من عشر طرقات دوارة؟ شيء مدهش).

أنوار الشارع الكابية كانت تتوهج بذبول على الرصيف في كلتا

الجهتين من الزحام؛ وعبر الضياء البرتقالي الشاحب كان يمكنني أن أرى أعداداً كبيرة من الناس الصغار والنحاف والكالحين يحتشدون بانتظار حافلة تأخذهم إلى مكان ما، وهناك من لا مكان لديهم ليذهبوا إليه فيفترشوا بساطاً وينامـوا على الرصيف. هـؤلاء الفقراء الأوغاد جاؤوا من (الظلام) إلى دلهي ليبحثوا عن شيء من الضوء، لكنهم لا يزالون في العتمة. يبدو أن المئات منهم جالسون على الرصيف علـى جهتـي حركـة المـرور، غيـر متأثرين إطلاقـاً بالزحام. هل كانوا متنبهين إلى الزحام؟ كنا مثل مدينتين منفصلتين؛ داخل وخارج البيضة المعتمة. كنت أعرف أنني في المدينة الحقيقية. بيد أن أبي، لو كان حياً، كان سيجلس على ذلك الرصيف، يطبخ بعض الأرز للعشاء، ويستعد بعدها ليستلقي كي ينام تحت مصباح شارع ما، وأنا ما فتئت أفكـر فـي ذلـك وأتعـرف إلـى ملامح وجهه في وجه أحد الشحادين هنـاك. لذلـك أنـا إلـى حـدٍّ ما خارج السيارة كذلك، حتى وإن كنت أسوقها.

بعد ساعة من التعذيب في حركة المرور، وصلنا إلى البيت عند باكنغهام B. لكن العذاب لم ينتهِ.

مـا إن نـزل النمـس مـن السيارة حتـى تحسـس جيبـه وبـدا عليـه الاضطراب لدقيقة ثم قال: "لقد ضاعت مني روبية".

وأشار بإصبعه إليّ.

- "اجثُ على ركبتيك وابحث عنها في أرضية السيارة".

جثوت على ركبتي. تشممت بين الأفرشة كالكلب، كل ذلك من أجل البحث عن روبية.

- "ماذا تعني أنها ليست هناك؟ لا تظن أن بإمكانك أن تسرقها منا لأنك في المدينة. أريد تلك الروبية".

- "لقـد دفعنـا للتـو نصـف مليـون روبية رشـوة، يا موكيش، والآن

نضغط على هذا الرجل بسبب روبية واحدة. دعنا نذهب لنشرب الشراب الاسكتلندي".

– "هكذا يفسد الخدم. يبدأ الأمر بروبية واحدة. دعنا من أساليبك الأميركية".

أين ذهبت تلك الروبية؟ بقي الأمر غامضاً بالنسبة إليّ حتى هذا اليوم، سيدي رئيس الوزراء. في النهاية أسقطت روبية معدنية من جيب قميصي على أرضية السيارة، ثم عدت لالتقاطها، وأعطيتها للنمس.

– "ها هي، تفضل يا سيدي، وأرجو أن تسامحني لأنني لم أجدها على عجل".

كانت هنالك فرحة طفولية على وجهه الداكن. وضع الروبية المعدنية في يده، وامتص أسنانه، كأن ذلك أفضل ما حصل له في ذلك اليوم.

بعد أن أوصلت الأخوين، ذهبت لأرى إن كان هنالك أي عمل لا بد من عمله في الشقة.

كانت السيدة بنكي جالسة على الأريكة تشاهد التلفاز؛ قالت حالما دخلنا: "لقد أكلت قبلكما"، ثم أوقفت عمل التلفاز، ودخلت إلى غرفة أخرى. قال النمس إنه لا يريد أن يتعشى، واضطر السيد آشوك إلى الجلوس وحده إلى المائدة ليتعشى. طلب مني أن أسخن له بعض الخضار من الثلاجة، فذهبت إلى المطبخ لأقوم بذلك.

إذ حانت مني نظرة إلى الخلف بينما كنت أفتح باب الثلاجة، رأيته على وشك أن يجهش بالبكاء.

* * *

لن ترى الصورة كاملة عندما تكون السائق. ليس أكثر من شذرات، قطع، مقتطفات من الحديث – حتّى إن وصل السادة إلى الجزء الحاسم من حديثهم – هذا ما يحدث دائماً.

شـخص متخلف يسـوق سـيارة جيب بيضاء كاد أن يصدمك بينما كنت تحاول أن تتفادى سيارة من الجهة المعاكسة. تنحرف جانباً، تحملق بالمتخلف وتلعنه (بصمت)، وحين تعود لتسترق السمع، يكون الحديث في المقعد الخلفي قد تغير ولن تعرف كيف انتهت الجملة.

كنت أعلم أن شـيئاً سـيئاً قد حدث، لكنني لم أعرف مدى ذلك حتى جاء صباح اليوم التالي حين قال لي السـيد آشـوك: "ستأخذ اليوم السيد موكيش إلى محطة القطار، بالرام".

- "نعم، سيدي"، كنت متردداً. أردت أن أسأله، هو فقط؟

هل كان ذلك يعني أنه سيعود نهائياً؟ هل كان ذلك يعني أن السيدة بنكي قد تخلصت منه بتلميحاتها اللاذعة وصفقها للباب؟

عند السـاعة السادسـة كنت أنتظر عند المدخل. أخذت الشـقيقين إلى محطة القطار. ولم تأتِ السيدة بنكي.

حملت حقائب النمس إلى مكانه في القطار، ثم ذهبت لأشتري له من أحد الأكشاك فطيرة محلاة ملفوفة بالورق التي يحب أكلها دائماً في القطار. لكنني أزلت الورق عن الفطيرة وأزلت البطاطا ورميتها على سكة القطـار، لأن البطاطـا تتخمـه بالغـازات وهـو لا يحب ذلك. على الخادم أن يعرف الجهاز الهضمي لسـيده من البداية إلى النهاية؛ من الفم حتى المخرج.

قال لي النمس: "انتظر. لدي تعليمات لك".

فقرفصت في زاوية عربة القطار.

- "بالرام، أنت لم تعد تعيش في (الظلام)".

- "أجل، سيدي".

- "ثمة قانون في الهند".

- "نعم، سيدي".

- "أنت تعرف تلك التماثيل البرونزية لغاندي ونهرو الموجودة في كل مكان؟ لقد وضعت الشرطة كاميرات في عيونها كي تراقب السيارات. إنهم يرون كل ما تفعله، هل تفهم ذلك؟".

- "نعم، سيدي".

ثم قطب حاجبيه وكأنه يتساءل ما الذي يريد قوله أكثر من ذلك. قال: "لا بد من أن توقِف المكيف عن العمل حين تكون وحدك".

- "حسناً، سيدي".

- "لا تشغّل الموسيقى حين تكون وحدك".

- "حسناً، سيدي".

- "في نهاية كل يوم عليك أن تعلمنا بقراءة مقياس الكيلومتر للسيارة كي نتأكد من أنك لم تستخدم السيارة لنفسك".

- "نعم، سيدي".

التفت النمس إلى السيد آشوك ومسكه من ذراعه: "اهتم بهذا الأمر أخي آشوك، عليك أن تدقق في أعمال السائق خلال فترة غيابي".

لكن السيد آشوك كان يلعب بهاتفه الخلوي. ثم وضعه وقال: "السائق نزيه. إنه من لاكسمانغار. رأيت عائلته عندما ذهبت إلى هناك"، وعاد إلى هاتفه.

فرد النمس: "لا تتكلم هكذا. لا تسخر من كلامي".

لكنه لم يعبأ بكلام أخيه، وظل يضغط على أزرار هاتفه: "دقيقة، دقيقة، أريد التحدث إلى صديق من نيويورك".

يحب السائقون أن يقولوا إن بعض الرجال هم من نوع ناقل الحركة الأول في السيارة. وكان السيد آشوك رجلاً من نوع ناقل الحركة الأول الكلاسيكي. إنه يحب أن يبدأ الأشياء، ولكن لا شيء يجذب انتباهه لفترة طويلة.

اكتشفت أمرين وأنا أنظر إليه، كل واحد منهما ملأني بالدهشة.

أولاً، إن بإمكانك أن "تتحدث" عبر الهاتف الخلوي إلى شخص آخر في نيويورك فقط من خلال الضغط على أزرار الهاتف. إن أعاجيب العلم الحديث لا تكفّ عن إدهاشي!

ثانياً، أدركت أن ذلك الرجل الطويل وعريض المنكبين والوسيم ذا الثقافة الأجنبية، والذي سيكون سيدي الوحيد بعد بضع دقائق، عندما تطلق الصافرة الطويلة ويتوجه هذا القطار إلى دانباد، كان ضعيفاً ويائساً وشارد الذهن وغير محميّ تماماً من الغرائز العادية التي تجري في دماء الملاّكين.

لو أنك عدت إلى لاكسمانغار لكنا قد سميناك الحَمَل.

ونهشني النمس فجأة: "لماذا تكشّر كالحمار؟"، وأوشكت أن أسقط إلى الأرض طالباً الاعتذار منه.

عند الساعة الثامنة من ذلك المساء استدعاني السيد آشوك ليقول لي: "استعد بعد نصف ساعة يا بالرام. سنخرج أنا والسيدة بنكي".

وهبط كلاهما فعلاً بعد ثلاثة أرباع الساعة.

أُقسِم إنه في اللحظة التي غادر فيها النمس صارت التنانير أكثر قصراً.

عندما كانت تجلس في الخلف، كان يمكنني أن أرى نصف نهديها يتدليان خارج ثيابها في كل مرة أضطر فيها إلى النظر عبر مرآة الرؤية الخلفية.

ذلك ما كان يضعني في موقف محرج جداً يا سيدي. وذلك لسببين؛ الأول هو أن ذلك كان يثيرني، وهو أمر طبيعي لشاب صحيح البدن مثلي. والثاني، كما تعرف، إن السيد والسيدة هما لك كالأب والأم، فكيف تستثار من سيدتك؟

تحاشيت ببساطة النظر إليها عبر المرآة، وإن كان ثمة تصادم، فسيكون ذلك خطأي.

سيدي رئيس الوزراء، ربما وأنت تسوق، في لجة الزحام، أوقفت سيارتك وأنزلت زجاج النافذة؛ ثم شعرت بدخان العادم الساخن الذي يقطع النفس من الشاحنة التي إلى جانبك. انتبه الآن، سيدي رئيس الوزراء، ثمة محرك ديزل ساخن يقطع النفس أمام أنفك بالضبط.

إنه أنا.

في كل مرة تدخل بذلك الرداء القصير الأسود، استثار. أكره أن تلبس ذلك الرداء؛ لكنني كرهت إثارتي أيضاً.

* * *

في نهاية الشهر، صعدت إلى الشقة. كان جالساً وحده على الأريكة تحت صورة الكلبين البومرانيين المؤطرة.

- "سيدي؟".

- "همم. ماذا لديك، بالرام؟".

- "مضى شهر".

- "وماذا يعني ذلك؟".

- "أجري... سيدي".

- "صحيح. ثلاثة آلاف، أليس كذلك؟". أخرج محفظته - كانت محشوة بالنقود - ووضع ثلاثة آلاف روبية على الطاولة. التقطت المبلغ وانحنيت محيياً. لا بد من أنه تذكر شيئاً مما كان يقوله أخوه لأنه قال: "أنت ترسل جزءاً من هذا المبلغ إلى قريتك، أليس كذلك؟".

- "أرسله كله سيدي. لا آخذ غير ما أحتاج إليه للأكل والشرب هنا؛ والباقي يذهب إلى الأهل".

- "أحسنت يا بالرام. أحسنت. العائلة شيء حسن".

عند الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم سرت إلى السوق الذي عند زاوية أبراج باكنغهام B. ذهبت إلى المتجر الأخير في السوق؛ عُلِّقت فوقه لافتة كتب عليها بالحروف الهندية الكبيرة:

متجر التأثير للمشروبات الإنكليزية
تباع هنا مشروبات أجنبية صنعت في الهند

كانت هي الحرب الأهلية المعتادة التي تجدها عند متجر المشروبات في أوقات المساء؛ رجال يتدافعون بالمناكب أمام منضدة طويلة ممدودي الأيدي صارخين بأعلى أصواتهم. ولم يستطع الفتيان الذين خلف المنضدة من سماع ما يقال في تلك الجلبة، مما يجعلهم يخلطون بين الطلبات، مما قاد إلى المزيد من الصراخ والعراك. اندفعت عبر الحشد حتّى وصلت إلى المنضدة، ضربت بقبضتي وصرخت، "شراب اسكتلندي! أرخص نوع! في الحال... وإلا أُقسِم أن أحداً ما سيجرح!".

لم أحصل على الزجاجة إلا بعد ربع ساعة. حشرتها تحت بنطالي، فلا شيء لدي لأخفيها فيه، وعدت إلى باكنغهام.

* * *

- "بالرام. استرحت".
- "أرجو المعذرة سيدتي".
- "يبدو أنك مريض يا بالرام. هل تعاني من شيء؟".
- "أجل سيدتي. رأسي يؤلمني. لم أنم جيداً ليلة أمس".
- "حضّر الشاي. آمل أن تكون في عملك في المطبخ أفضل من عملك في السيارة؟".
- "نعم، سيدتي".
- "سمعت أنك حلوي، وأن أهلك طباخون. هل تعرف كيف تحضّر شاي زنجبيل أصيل من النوع الخاص؟".
- "نعم، سيدتي".
- "إذاً، اذهب وحضّر الشاي".

لم تكن لدي فكرة عما تريده السيدة بنكي، ولكن على الأقل كان

نهداها مستورين؛ ذلك ما أشعرني بالراحة.

هيـأت الغلايـة، وبـدأت بتحضيـر الشـاي. وما إن بدأ الماء بالغليان حتى امتلأ المطبخ بالعطر. كانت تراقبني من الباب.

كنت لا أزال أعاني من الغثيان من أثر الشـراب الاسـكتلندي ليلة البارحة. وكنت ألوك اليانسـون طوال الصباح حتى لا يشـم أحد رائحة الشـراب في نفَسـي، لكنني لا أزال قلقاً، لذلك ابتعدت عنها بينما كنت أغسل قطعة من الزنجبيل بماء الصنبور.

صاحت: "ماذا تفعل؟".

- "أغسل الزنجبيل، سيدتي".

- "هذا باليد اليمنى. ماذا تفعل باليد اليسرى؟".

- "سيدتي؟".

نظرت إلى الأسفل.

- "توقف عن حك أعلى فخذيك بيدك اليسرى!".

- "لا تغضبي سيدتي. سأتوقف".

لكن لا فائدة. لم تتوقف عن الصياح:

- "أنت قذر جداً! انظر إلى أسنانك، انظر إلى ثيابك! هنالك لبان أحمر على كل أسنانك، وهنالك بقع حمراء على قميصك. شيء مقزز! اخرج، نظف الفوضى التي أحدثتها في المطبخ واخرج".

أعدت قطعة الزنجبيل إلى الثلاجة، وأطفأت النار عن الماء المغلي. وهبطت السلم.

وقفت أمام المرآة العامة وفتحت فمي. كانت الأسنان حمراء، وقد تآكلت بسبب البان. غسلت فمي ولم تزل شفتاي حمراوين.

كانت محقة. فالبان الذي كنت أمضغه لسنوات، كما كان يفعل أبي وأخي كيشان وكل من أعرفهم، يلون أسناني ويأكل لثتي.

في المساء التالي نزل السيد آشوك والسيدة بنكي إلى المدخل وهما

يتشاجران، ودخلا السيارة وهما يتشاجران، وظلا يتشاجران طوال الطريق من أبراج باكنغهام حتى صرنا وسط الشارع الرئيسي.

سألت في لحظة عمّ الهدوء فيها: "هل تقصدان \الماتجر الكبير يا سيدي؟".

أطلقت السيدة بنكي ضحكة مدوية قصيرة.

كنت أتوقع أشياء مثل هذه منها ولكن ليس منه، لكنه مع ذلك انضم إليها.

قال لي: "إنه ليس ماتجر، إنه متجر. قلها مجدداً".

بقيت أقول ماتجر، وظلا يطلبان مني أن أكرر قولها، ثم يقهقهان بهستيرية في كل مرة أفعل ذلك. في النهاية تماسكت أيديهما مجدداً. حصل أمر حسن بسبب جهلي، وكنت سعيداً بذلك، على الأقل.

نزلا من السيارة، وصفقا الباب، ودخلا المتجر؛ حياهما الحارس حين اقتربا، ثم انفتح الباب الزجاجي ذاتياً وابتلعهما.

لم أخرج من السيارة: فذلك كان يساعدني في تركيز ذهني. أغمضت عيني.

مااتجر.

كلا ليست كذلك.

موتجر.

ماتجار.

- "فأر القرية! اخرج من السيارة وتعالَ إلى هنا!".

جثمت مجموعة صغيرة من السائقين على شكل دائرة في مرأب المتجر. وبدأ أحدهم بالصياح في وجهي، ملوحاً بنسخة من مجلة في يده.

كان ذلك هو السائق مريض الشفتين. رسمتُ ابتسامة عريضة على وجهي، وذهبت نحوه.

بادرني بالسؤال: "أي سؤال آخر حول حياة المدينة، يا فأر القرية؟". وانطلقت رشقات من الضحك حوله.

وضع يده حولي وهمس: "هل فكرت في ما قلته لك أيتها الفطيرة المحلاة؟ هل يحتاج سيدك إلى أي شيء؟ مخدرات؟ فتيات؟ أولاد؟ كرات غولف؟ أنواع جيدة من كرات الغولف الأميركية، من السوق الحرة؟".

قال سائق آخر: "لا تعرض عليه كل هذه الأشياء الآن، فهذا الشخص يجثو على ركبتيه، حاملاً سلسلة المفاتيح وذاهباً إلى سيارة سيده مثل طفل يحمل لعبته. إنه لا يزال قروياً خاماً، لا يزال نقياً. دع الحياة في المدينة تفسده أولاً". والتقط المجلة - جريمة الأسبوع بالطبع - وراح يقرأ بصوت عالٍ. توقف السائقون عن الثرثرة، واقتربوا منه أكثر.

- "كانت ليلة ممطرة. اضطجع فيشال في فراشه، تفوح منه رائحة الشراب، وعيناه تحدقان خارج النافذة. كانت جارته قد وصلت إلى بيتها، وأوشكت أن تخلع...".

صاح ذو الشفتين الورديتين: "انظروا هناك! ها هو الحادث يتكرر مجدداً...".

انزعج الرجل الذي يقرأ المجلة من هذه الجلبة، وعاد للقراءة، لكنّ الآخرين وقفوا وتوجهوا بأبصارهم صوب جهة المتجر الكبير.

الذي حدث، سيدي رئيس الوزراء هو واحد من تلك الحوادث الشائعة في الأيام الأولى للمتجر الكبير، وهذه الحوادث غالباً ما يكتب عنها في الصحف اليومية تحت عنوان "أليس هناك أي مجال في متاجر الهند الجديدة للفقراء؟".

فُتح الباب الزجاجي، ولكن الرجل الذي كان يزمع الدخول منع من ذلك. أوقفه الحارس. أشار بعصاه إلى قدمي الرجل وهز رأسه؛ كان

الرجل ينتعل نعلاً خفيفاً. نحن السـائقون كلنا ننتعل هكذا نعالاً. ولكن لا يسمح لأحد بالدخول إلا بانتعال حذاء.

بدلاً من أن يتراجع ويبتعد - مثلما يفعل تسعة من عشرة من أمثاله - انفجر الرجل الذي ينتعل النعل الخفيف: "ألست بشرياً أيضاً؟".

رفع صوته صارخاً حتى أن اللعاب تطاير من فمه كالينبوع وارتعشت ركبتاه. وأطلـق أحـد السـائقين صافـرة. وتوقف الرجل الذي يعمل على كنس خارج المتجر ووضع مكنسته جانباً وراح يراقب المشهد.

في لحظة بدا فيها أن الرجل الذي عند الباب كان مستعداً لضرب الحارس؛ تراجع عن ذلك وابتعد.

قـال سـائق: "هـذا الشـخص لـه خصيتـان. لو كنا جميعـاً مثله لكنا حكمنا الهند، ولكانوا يمسحون أحذيتنا".

ثـم عـاد السـائقون إلـى حلقتهم. واسـتؤنفت قـراءة القصة. ورأيت المفاتيـح تـدور فـي سلاسـلها والدخـان يرتفع من السـجائر. رأيت البان يلطخ الأرض بدوائر حمراء.

أسـوأ ما في كونك سـائقاً هي السـاعات التي تنتظر فيها سـيدك. يمكنـك أن تمضـي الوقـت بالثرثـرة وحـكّ... ويمكنك أن تقرأ مجلات الجريمـة والاغتصـاب. ويمكنـك أن تطـور عـادة السـائق؛ وهي نوع من اليوغـا، حقـاً، بوضـع إصبعـك في أنفك وتصفية ذهنك لسـاعات (حري بهـم أن يسـموها عـادة السـائق المملـة). ويمكنـك أن تخفي زجاجة من الشراب الهندي؛ فالضجر يجعل الكثير من السائقين النزيهين ثملين.

لكن إن رأى السـائق أن وقته الحر هو فرصة له، ولو اسـتفاد منه بالتفكير، فعند ذاك يصبح الشيء السيئ هو الأفضل.

فـي ذلـك المسـاء، بينمـا كنـت عائـداً بالسـيارة إلى الشـقة، نظرت إلـى السـيد آشـوك عبـر مـرآة الرؤيـة الخلفيـة. كان يرتـدي قميصاً قصير الكميـن. لـم يكـن يشـبه القميـص الـذي يختاره غالباً. الجـزء الأكبر منه

أبيض اللون وهنالك تصميم صغير في الوسط. أما أنا فكنت أشتري شيئاً ملوناً جداً وفيه مختلف الكلمات والتصميمات. فهذا النوع هو الأعلى قيمة عندي.

في إحدى الليالي، بعد أن صعد السيد آشوك والسيدة بنكي، ذهبت نحو السوق المحلية. ورأيت رجالاً جالسين على الطريق تحت الضوء الأصفر، يبيعون سلالاً ملئت بالأساور المصنوعة من الزجاج والستيل، والدمى، وأغطية الرأس، والأقلام، وسلاسل المفاتيح. وعثرت على الشخص الذي يبيع القمصان قصيرة الأكمام.

بقيت أقول له على كل قميص يعرضه لي: "كلا"؛ حتى وجدت واحداً لونه أبيض كتبت عليه كلمة إنكليزية واحدة في الوسط. ثم ذهبت للبحث عن رجل اشتري منه حذاءً أسود.

اشتريت في ذلك المساء أول معجون أسنان لي. اشتريته من الرجل الذي عادة ما يبيع لي البان. فله عمل آخر وهو إزالة آثار البان.

مبيض شاكتي
بالفحم والقرنفل لتنظيف أسنانك
بروبية وخمسين بيزة فقط

بينما كنت أنظف أسناني بإصبعي، انتبهت إلى ما كانت تفعله يدي اليسرى...

قرصت الجلد السميك بين الإبهام والسبابة، حيث يمكن أن يكون أشد إيلاماً، وبقيت قارصاً لدقيقة كاملة. وحين حررت يدي، تجمعت ندبة حمراء على جلد الكف.

هذا هو عقابك من الآن فصاعداً على حك...

كان معجون الأسنان قد تكثف في فمي في رغوة حليبية، وطفق يسيل من جوانب شفتيّ. بصقته.

أنظف أسناني. أنظف أسناني. أبصق.

أنظف أسناني. أنظف أسناني. أبصق.

لماذا لم يحذرني أبي من حك...؟ لماذا لم يعلمني أبي غسل أسناني بالرغوة الحليبية؟ لماذا رباني لأعيش كالحيوان؟ لماذا كل الفقراء وسط هذه القذارة، وهذا القبح؟

أنظف أسناني. أنظف أسناني. أبصق.

أنظف أسناني. أنظف أسناني. أبصق.

آه لو قدر للإنسان أن يبصق ماضيه بهذه السهولة.

* * *

في الصباح التالي، بينما كنت أقلّ السيدة بنكي إلى المتجر، شعرت بحزمة قطنية صغيرة عند قدميّ اللتين حشرتهما في الحذاء. وبعد أن غادرت وهي تغلق الباب بقوة؛ انتظرت عشر دقائق ثم أخرجت الحزمة وغيرت ملابسي في السيارة.

ذهبت إلى مدخل المتجر بقميصي الجديد الأبيض، ولكنني حالما تواجهت مع الحارس، استدرت وعدت إلى الهوندا سيتي. دخلت السيارة، وقرصت الغول ثلاث مرات. ولمست ملصقات كالي ولسانها الأحمر الطويل من أجل حسن الطالع.

في هذه المرة ذهبت إلى المدخل الخلفي.

كنت متيقناً أن الحارس الذي عند البوابة سينهرني قائلاً، لا يسمح لك بالدخول، بالرغم من أنني كنت أنتعل حذاءً أسود وأرتدي قميصاً قصير الكمين أبيض إلا من كلمة إنكليزية عليه. كنت متأكداً، حتى تلك اللحظة، أنني سأُمسك وأُطرد وأُضرب وأُهان.

حتى وأنا أمشي في المتجر، كان لدي شعور أكيد أن أحداً ما سيقول، ها! ذلك سائق أجير! ما الذي يفعله هنا؟ كان هنالك حراس يرتدون زياً رمادياً موحداً في كل طابق بدا لي أنهم يراقبونني جميعاً. كانت تلك هي تجربتي الأولى في حياة الهروب.

تنبهت إلى العطر الذي ينتشر في الهواء والضياء الذهبي والبرودة في الهواء الصادر من المكيّفات، والناس الذين يرتدون القمصان قصيرة الأكمام وسراويل الجينز وينظرون إليّ باستغراب. رأيت مصعداً يصعد ويهبط كأنه قد صنع من الزجاج الذهبي الصافي. رأيت متاجر ذات جدران زجاجية، وصوراً لرجال أوروبيين أنيقين ولنساءٍ أنيقات بأحجام كبيرة معلقة على كل جدار. ليت السائقين الآخرين يرونني الآن!

كان الخروج مطباً كالدخول، ولكن أحداً من الحراس لم يكلمني بكلمة. عدت إلى مرأب السيارة، دخلت فيها، وعدت لأرتدي قميصي الغني بالألوان، ووضعت القميص الأبيض في صرة بالقرب من قدميّ.

هرعت إلى حيث يتواجد بقية السائقين. لم يلحظ أحد منهم دخولي وخروجي من المتجر. كانوا مشغولين بشيء آخر. أحد السائقين – وهو الرجل الذي دائماً ما يبرم سلسلة مفاتيحه -كان معه هاتف نقال، وأجبرني على إلقاء نظرة عليه.

– "هل تتصل بزوجتك بهذا الشيء؟".

– "لا يمكنك التحدث مع أي أحد به أيها الأحمق؛ إنه هاتف يلتقط فقط!".

– "فما فائدة الهاتف الذي لا يمكنك أن تكلم عائلتك من خلاله؟".

– "الغرض منه أن يتصل بي سيدي ليرشدني إلى مكانه كي أذهب إليه. ليس عليّ إلا أن أضعه هنا في جيبي حيثما ذهبت".

استعاد الهاتف مني، ومسحه لينظفه ويضعه في جيبه. حتى ذلك المساء كان وضعه في حلقة السائقين هابطاً؛ فليس لدى سيده إلا سيارة ماروتي سوزوكي زين، وهي سيارة صغيرة. أما اليوم فهو يترأس عليهم كما يشاء. مرروا هاتفه النقال من واحد إلى آخر يحدقون إليه مثل قرود

يحملقون بشيء لامع. ملأت الجو رائحة أمونيا زنخة لأن أحدهم كان يتبول ليس بعيداً عنا.

كان ذو الشفتين الورديتين يراقبني من الزاوية.

قال: "يا فأر القرية تبدو كمن يريد أن يقول شيئاً".

فهززت رأسي نافياً.

* * *

يزداد الزحام سوءاً خلال النهار. وفي كل مساء تزداد السيارات أكثر فأكثر. وكلما ازداد الزحام سوءاً، يسوء كذلك حال مزاج السيدة بنكي. في إحدى الأمسيات بينما كنا نزحف زحفاً أسفل شارع أم جي نحو غوركون، فقدت أعصابها كلياً وراحت تصرخ:

- "لماذا لا نعود آشوكي؟ انظر إلى هذا الزحام اللعين. هكذا هو الحال دوماً".

- "أرجوك لا تبدأي ذلك مجدداً، أرجوك".

- "لِمَ لا؟ أنت وعدتني آشوكي أننا سنبقى في دلهي لثلاثة أشهر لترتب بعض الأوراق ومن ثمّ تعود. لكنني صرت أعتقد أنك جئت إلى هنا لتعمل على حل مشكلة ضريبة الدخل. هل كنت تكذب عليّ طوال هذا الوقت؟".

أُصر حتى أمام أي محكمة بأن ما حدث بينهما لم يكن خطأه. كان زوجاً طيباً، ودائماً ما يأتيها بخطط لإسعادها. ففي ذكرى ميلادها، على سبيل المثال، ألبسني ملابس مهراجا مع عمامة حمراء ونظارة سوداء، وقدمت لهما الطعام بتلك الثياب. لا أتحدث عن طعام منزلي عادي، بل؛ جعلني آتيهما من ذلك الطعام المتعفن الذي يوضع في علب ورقية وهو ما يجعل كل الأغنياء مجانين على نحو مطلق.

كانت قد ضحكت وضحكت حين رأتني في ذلك الزي، منحنياً لها مقدماً الطعام بالعلب الورقية. خدمتهما ووقفت، كما طلب مني السيد

آشوك، عند صورة كدلز وبدلز عاقد الذراعين منتظراً.

قالت: "آشوك، اسمع هذا. ما الذي نأكله يا بالرام؟".

كنت أعلم أن ذلك فخ، ولكن ما بيدي حيلة. فأجبت. وانفجرا ضاحكين.

- "قلها مجدداً يا بالرام؟".

فضحكا مجدداً.

- "إنها ليست بيجا. إنها بيتزا. صحِّح ما تقوله".

- "انتظر، أنت تخطئ لفظها أيضاً. هنالك حرف ت في الوسط. بيت زا".

- "لا تصحّح إنكليزيتي آشوك. ليس هنالك حرف ت في كلمة بيزا. انظر العلبة".

كان عليّ أن أحبس نَفَسي بينما كنت واقفاً بانتظار أن ينتهيا. كانت رائحة الطعام مروعة.

- "لقد قسّم البيتزا على نحو سيئ. لا أفهم كيف يتحدّر من أسرة طباخين".

- "لقد طردت لتوك الطباخ. أرجوك لا تطردي هذا الشخص، إنه شخص نزيه".

بعد أن انتهيا، رميت الطعام المتبقي من الصحون وغسلتها. وعبر نافذة المطبخ رأيت شارع غوركون يسبح بضياء المتاجر الكبيرة. ثمة متجر جديد قد فتح قريباً في نهاية الشارع، وكانت السيارات تحتشد عند بواباته.

أغلقتُ النافذة وعدتُ إلى غسل الصحون.

- "بيجا".

- "بزيجا".

- "زيبجا".

- "بيزجا".

مسحت الحوض بكفي، وأطفأت الضوء.

ذهبا إلى غرفة النوم. سمعت صياحاً من الداخل. سرت على أصابع قدميّ، واقتربت من الباب، ووضعت أذني على الخشب.

ارتفع الصياح من الطرفين وقد تبع ذلك صراخ... إنهما في انسجام.

توشك أن تتحمل المسؤولية، أيها الحمل الذي ولد من بذرة ملاّك. أغلقت الباب خلفي ونزلت بالمصعد. بعد نصف ساعة، وبينما كنت على وشك النوم، جاء أحد الخدم منادياً على اسمي. كان الجرس يرن! ارتديت بنطلوني، وغسلت يدي المرة بعد الأخرى تحت ماء الصنبور العام، وقدت السيارة إلى مدخل المبنى.

- "خذنا إلى المدينة".

- "أجل سيدي. إلى أي مكان في المدينة؟".

- "إلى أي مكان تريدين الذهاب إليه بنكي؟".

لم تقل شيئاً.

- "بالرام، خذنا إلى موقع كونوت".

لم ينبسا ببنت شفة بينما كنت أقود السيارة. كنت لا أزال أعتمر عمامة المهراجا. كان السيد آشوك ينظر بانفعال إلى السيدة بنكي لست مرات تقريباً.

قال بصوت أجشّ: "أنت محقة بنكي لم أقصد أن أتحداك في ما قلته. لكنني قلت لك، هنالك خطأ واحد في هذا المكان؛ لدينا هذا النظام اللعين الذي يسمونه الديمقراطية البرلمانية. وإلا، لكنا مثل الصين تماماً".

- "آشوك. أشعر بالصداع، أرجوك".

- "سنتمتع الليلة. هنالك مطعم .T.G.I(*) جيد يوم الجمعة. ستحبينه".

حين وصلنا إلى كونوت بلاس، جعلني أقف أمام ضوء نيون أحمر كبير.

- "انتظر هنا، بالرام. سنعود بعد عشرين دقيقة".

ذهبا لأكثر من ساعة بينما بقيت في مكاني داخل السيارة، أراقب أضواء كونوت بلاس.

قرصت الغول الناعم الأسود لأكثر من عشر مرات. نظرت إلى الملصقات الممغنطة لكالي مع جماجمها ولسانها الطويل الأحمر؛ وألصقت لساني بالساحرة العجوز. تثاءبت.

تجاوز الوقت منتصف الليل وكان الجو بارداً.

كان يعجبني أن أشغل بعض الموسيقى لتمضية الوقت، ولكن كان النمس يرفض بالطبع.

فتحت باب السيارة: كانت هنالك رائحة لاذعة في الهواء. أوقد بقية السائقين ناراً ليدفئوا أنفسهم وجعلوها تستمر في قذف قطع من البلاستيك.

يحتفظ أغنياء الهند بمدافئ كهربائية في الشتاء أو مدافئ غازية، أو لديهم حتى مواقد يرمون فيها القطع الخشبية، بينما يعمد المشردون أو الخدم من الحرس أو من السائقين الذين يُجبرون على البقاء في الخارج وقت الشتاء إلى حرق ما يقع في أيديهم من أشياء منتشرة على الأرض ليتدفأوا. أحد أفضل الأشياء التي ترمى في النار هو السلوفان، من ذلك النوع الذي يستخدم في لف الفاكهة والخضار، وكذلك كتب رجال

(*) مطعم TGI: سلسلة مطاعم أميركية شهيرة تنتشر في حوالى خمسين دولة حول العالم، وقد جاء هذا الاختصار من عبارة Thank God Its Friday وتعني حمداً لله إنه يوم الجمعة.

الأعمال، فهي تغير طبيعتها وتذوب في وقود صافٍ. المشكلة الوحيدة أنها بينما تحترق ينطلق منها دخان أبيض تتفحم بسببه معدتك.

كان ذو الشفتين الورديتين يغذي النار بأكياس السلوفان؛ بينما يلوّح لي بيده الأخرى.

- "لا تجلس هناك وحيداً يا فأر القرية! فذلك سيؤدي بك إلى الأفكار السيئة!".

كان الدفء مغرياً.

لكن لا. فإن اقتربت سيثرثر فمي، وسأطلب باناً(*).

- "انظر إلى النفّاج! إنه حتى يرتدي ثياب المهراجا اليوم!".

- "تعال انضم إلينا يا مهراجا باكنغهام!".

لكنني سرت بعيداً عن الدفء، بعيداً عن الإغراء، في مسالك كونوت بلاس، حتى ملأت رائحة الطين المتفحم الهواء.

ثمة بناء في أي اتجاه تنظر إليه في دلهي. هياكل زجاجية ارتفعت كي تكون متاجر أو مكاتب؛ صفوف هائلة من الدعامات الكونكريتية مثل صف من السندانات الحديدية حيث تعلو الجسور والمعابر؛ حفر هائلة تحفر لبناء أسس جديدة لقصور الأغنياء. وهنا في قلب كونوت بلاس، حتى في منتصف الليل، يستمر العمل تحت الأضواء الكاشفة العالية. سمعت هدير الآلات وهي تحفر حفرة هائلة.

سمعت عن هذا العمل. إنهم يؤسسون لقطار تحت الأرض في دلهي. كانت هذه الحفرة كبيرة إلى درجة أنها تشبه أنفاق مناجم الفحم التي رأيتها في دانباد. كان هنالك رجل آخر يراقب الحفرة معي؛ رجل أنيق يرتدي قميصاً وسروالاً مثنيّ الساقين ويضع ربطة عنقٍ. ورجل مثله

(*) البان: يعود استخدام البان إلى عهد الإمبراطورة نورجهان، الذي طلب زوجها من أطباء عصره مادة تقتل رائحة فم زوجته. للبان الكثير من المنافع، لكن متعاطيه هذه الأيام، يضيفون إليه الملون الأحمر والكلس والتوباكو وجوزة الطيب، ويلوكونه في الفم للتمتع بمذاقه ثم يبصقونه لاحقاً.

لا يتحدث معي، ولكن قد يخدعه رداء المهراجا الذي ألبسه.

- "ستغدو هذه المدينة مثل دبي خلال خمس سنوات، أليس كذلك؟".

فقلت بازدراء: "خمس؟ بل خلال سنتين!".

- "انظر إلى تلك الرافعة الصفراء. إنها وحش".

كانت وحشاً، يجلس على أعلى الحفرة بفم فاغر يملأ ويفرغ بين الحين والآخر كميات كبيرة من الطين. ومثل المخلوقات المهيمنة، كان الرجال يعتمرون الخوذ الطينية ويتحركون حول الرافعة في دوائر. كانوا لا يبدون أكبر من فئران. وبالرغم من أن الوقت شتاءً إلا أن قمصانهم كانت تلتصق بأجسادهم السوداء اللامعة.

كان الجو بارداً جداً حين عدت إلى السيارة. وقد غادر السائقون كلهم. وليس ثمة من إشارة لسيديّ. أغمضت عيني، وحاولت أن أتذكر ما تناولته عند العشاء. توابل حارة لذيذة وقطع لحم صغيرة ناضجة مع إناء كبير من المرق الأحمر.

لذيذ.

أيقظاني بالنقر على النافذة. فاندفعت إلى الخارج وفتحت لهما الباب. كانا فرحين، وتفوح منهما رائحة الشراب الإنكليزي؛ أو أي شراب لم أجربه بعد من متجر المشروبات.

أقول لك، اندفعا إلى بعضهما بينما كنت أقود بهما السيارة خارج كونوت بلاس... كانت تقهقه. راقبتهما للحظة بدت طويلة. فرآني عبر المرآة.

شعرت وكأنني طفل يشاهد والديه في غرفة النوم عبر فتحة صغيرة. راح قلبي ينبض بشدة وتعرقت؛ توقعت منه أن يمسك بي من ياقتي، ويرميني أرضاً، ويدوسني بحذائه طويل الساق بالطريقة ذاتها التي اعتاد والده أن يفعلها مع الصيادين في لاكسمانغار.

لكن هذا الرجل، كما قلت لك، كان مختلفاً؛ كان مؤهلاً أن يكون أفضل من أبيه. انتبهت إليه؛ قَرَصَ السيدة بنكي وقال لها: "لسنا وحدنا كما تعرفين".

فتعكر مزاجها في الحال، والتفتت جانباً. ومرت خمس دقائق من الصمت. وفاحت منها رائحة الشراب وهي تميل نحوي.

- "أعطني مقود السيارة".

- "كلا بنكي، أنت ثملة، دعيه".

- "أي مزحة لعينة هذه! كل من في الهند يسوقون وهم ثملون. ولكنك لا تدعني أفعل ذلك؟".

- "آه، أكره هذا الأمر". واسترخى في مقعده. "تذكر يا بالرام، لا تتجاوز".

- "هل يتوقف عند إشارة المرور؟ لماذا تتوقف بالرام؟ انطلق".

- "إنها إشارة المرور بنكي، دعيه يقف. أطع قواعد المرور، آمرك أن تقف بالرام".

- "آمرك بأن تنطلق بالرام، انطلق".

ارتبكت هذه المرة، حاولت أن أعمل حلاً وسطاً، تقدمت بالسيارة لخمس أقدام ثم وقفت.

فقال السيد آشوك: "هل رأيت ما الذي فعله؟ كانت تلك حركة ذكية".

- "نعم آشوك. إنه عبقري لعين".

كان مقياس الزمن الموضوع إلى جانب الضوء الأحمر يشير إلى أنه بقيت ثلاثين ثانية حتى تتحول الإشارة إلى الضوء الأخضر. كنت أراقب مقياس الزمن حين تجسد لي العملاق بوذا على يميني. جاء طفل يتسوّل حاملاً ملصقين جميلين لتمثال بوذا. في كل ليلة في دلهي يبيع الشحادون شيئاً ما على الطريق، كتباً أو تماثيل أو ملصقات أو توتاً في

علب؛ ولسبب ما، ربما بسبب أن أعصابي كانت مستفزة، حدقت إلى بوذا لوقت أطول مما يجب.

... لم تكن أكثر من التفاتة لرأسي، مجرد شيء يحدث لنصف ثانية، ولكنها أمسكت بي.

قالت: "بالرام يقدر قيمة التمثال".

ضحك السيد آشوك بصوت خافت.

- "من المؤكد أنه خبير بالفنون الجميلة".

أنزلت زجاج النافذة لتنفتح البيضة، وقالت للطفل الشحاد، "دعنا نراه".

دفع أو دفعت - لا تستطيع أن تميز جنس الأطفال الشحادين - تمثال بوذا إلى داخل الهوندا.

- "هل تريد أن تشتري التمثال أيها السائق؟".

- "كلا، سيدتي. أنا آسف".

- "بالرام حلوي، صانع الحلويات، سائق السيارات، خبير النحت".

- "آسف سيدتي".

كلما اعتذرت كلما انشرحا لذلك. أخيراً تحولت الإشارة إلى الأخضر لتنهي معاناتي فابتعدت عن بوذا بأسرع ما أمكنني.

انحنت إلى الأمام وضغطت على كتفي: "أوقف السيارة، بالرام". ونظرت إلى تعابير وجه السيد آشوك؛ لم يقل شيئاً.

أوقفت السيارة.

- "اخرج بالرام. سنتركك هنا كي تمضي الليل مع بوذاك. المهراجا وبوذا سوية مع الليل".

خرجتُ لتجلس هي خلف المقود، شغّلت محرك السيارة، وابتعدت بها بينما كان السيد آشوك الثمل قد قهقه ولوّح لي بيده. لو

لم يكن ثملاً لما سمح لها أبداً أن تعاملني هكذا؛ أنا متيقن من ذلك. كان الناس دائماً ما يستفيدون منه. لو أننا أنا وهو وحدنا، فلا مكروه يحدث لأي منا.

كانت هناك أرض صغيرة (جزيرة) تفصل جهتي الشارع وقد زرعت فيها الأشجار. فجلست تحت إحداها.

كانت الطريق مقفرة؛ مرت بي سيارتان، الواحدة بعد الأخرى. كانت أضواؤهما العالية تُحدثُ تموجات مستمرة على الأوراق، كتلك التي تراها بين أغصان الأشجار التي تنمو عند بحيرة ما. آلاف من تلك الأصوات الجميلة ستسمعها حتماً في دلهي لو تهيأت لك الفرصة وتجوّلت بحرية وفعلت ما تشاء.

اقتربت مني سيارة على نحو مباشر، ترسل ضوءاً عالياً تارة، ومنخفضاً تارة أخرى، وتصخب ببوقها. استدارت سيارة الهوندا سيتي بالاتجاه المعاكس - أذكرك بأن ذلك مخالف للقانون - واتجهت نحوي مباشرة كأنها كانت تريد سحقي. رأيت السيدة بنكي خلف المقود مكشرة وإلى جانبها السيد آشوك مبتسماً.

هل رأيتُ علامات على جبهته تبين أنه قد قلق على مصيري؛ هل رأيتُ يده تمسك المقود بقوة وتحرف مسار السيارة كي لا تصدمني؟

بودي أن أعتقد ذلك.

توقفت السيارة على بعد نصف قدم مني وعلا صرير احتراق للمطاط. انكمشتُ: كم عانت عجلات سيارتي المسكينة من هذه المرأة.

فتحت السيدة بنكي باب السيارة، وأخرجت وجهها المكشر.

- "اعتقدتَ أنني تركتك خلفي فعلاً، يا سيد مهراجا؟".

- "كلا، سيدتي".

- "لستَ غاضباً، أليس كذلك؟".

- "كلا، مطلقاً". وأضفت كي أجعل الأمر معقولاً: "أصحاب العمل هم مثل الأب والأم، فكيف لي أن أغضب منهم؟".

جلست في الخلف. استدارت السيارة مجدداً عكس الاتجاه وسط الشارع ثم انطلقت بأقصى سرعتها، متجاوزة الإشارات الحمراء الواحدة بعد الأخرى. كانا يصرخان فرحاً ويقرصان بعضهما بعضاً ويقهقهان عالياً بينما كنت جالساً في المقعد الخلفي لا حول لي ولا قوة أراقب المشهد عندما قفز شيء أسود صغير كان في طريقنا فصدمناه ودهسناه وسحقته العجلات.

من الطريقة التي سحقته بها العجلات كلياً ومن الصمت الذي ساد حين توقفت السيارة، لم نسمع نباحاً ولا أنيناً، وأدركت ما الذي حصل للشيء الذي صدمناه.

كانت ثملة جداً بحيث لم تستطع أن تضغط على المكابح في الحال؛ وما إن فعلت، كنا قد ابتعدنا مئتين إلى ثلاثمئة ياردة، ثم توقفنا كلياً في وسط الشارع. كانت لا تزال تتشبث بالمقود فاغرة فاها.

تساءل السيد آشوك: "كلب؟ كان ذلك كلباً، أليس كذلك؟".

أومأت برأسي. كان الشارع معتماً جداً، وكان الشيء - كتلة سوداء كبيرة - بعيداً خلفنا ولا نكاد نراه بوضوح. لم نرَ أي سيارة أخرى. ولا أحد هناك.

كأنها حركت يديها ببطء وأبعدتهما عن المقود لتسدّ بهما أُذنيها. "لم يكن كلباً! لم يكن...".

من دون أن نتفوّه بكلمة أنا والسيد آشوك تحركنا كفريق. سحبها واضعاً يده على فمها وأخرجها من مقعد السائق؛ واندفعت أنا من المقعد الخلفي. أغلقنا الأبواب معاً؛ شغلت محرك السيارة، وقدتها بأقصى سرعة عائداً إلى غوركون.

في منتصف الطريق كانت قد هدأت، ولكنها عادت بعد حين، وما

إن اقتربنا من الشقة، عادت لتقول: "علينا أن نرجع".

- "لا تكوني مجنونة بنكي. سيوصلنا بالرام إلى الشقة بعد بضع دقائق. انتهى الأمر".

قالت بأرق صوت: "لقد صدمنا شيئاً ما آشوكي، علينا أن نأخذ ذلك الشيء إلى المستشفى".

- "كلا".

فغرت فاها مرة أخرى، وكادت أن تصرخ في ثانية لولا أنه لحق بها ووضع يده على فمها. مدّ يده إلى علبة المناديل الورقية، وأقحم بعضاً منها في فمها، وبينما كانت تحاول أن تبصق المناديل، سحب الوشاح الذي لفّ عنقها وشده بقوة على فمها ودس رأسها في حضنه وبقي ضاغطاً عليه.

حين وصلنا الشقة، سحبها إلى المصعد، وفمها مشدود بالوشاح.

أتيت ببعض الماء، وغسلت السيارة بأكملها، ومسحت أي آثار للدم واللحم إذ وجدت بقعاً من الدم وأجزاء من اللحم على العجلات.

حين عاد إليّ كنت أغسل العجلات للمرة الرابعة.

- "ماذا لدينا؟".

أريته قطعة النسيج الخضراء المدماة التي التصقت بالعجلة.

قلت له وأنا أمسح مادة خشنة بأصابعي: "هذا القماش الأخضر من النوع الرخيص سيدي. عادة ما يلبسه الأولاد".

- "وهل تعتقد أن الولد..."، ولم يستطع أن يزيد كلمة.

- "لم نسمع صوتاً سيدي. لا صوت على الإطلاق. ولم يتحرك الجسم".

- "يا الله، ما الذي سنفعله الآن يا بالرام؟ ما الذي سنفعله؟"، وصفق بيده على فخذه. "ما الذي يفعله هؤلاء الأولاد وهم يتسكعون في دلهي عند الواحدة بعد منتصف الليل من دون أن يرعاهم أحد؟".

حين قال ذلك كانت عيناه قد التمعتا.

- "آه، كان واحداً من أولئك الناس".

- "أظن أيضاً أنه من أولئك الذين يعيشون تحت الطرقات السريعة والجسور يا سيدي".

- "هل سيفتقده أحد في هذه الحالة...؟".

- "لا أعتقد سيدي. أنت تعرف حال أولئك الناس الذين في (الظلام)؛ لديهم ثمانية أو تسعة أو عشرة أولاد، وفي بعض الأحيان لا يعرفون أسماء أولادهم. إن والديه؛ إن كانا في دلهي وإن حدث وعلما بمصيره الليلة؛ فلن يذهبا إلى الشرطة".

وضع يده على كتفي مثلما كان يضعها على كتف السيدة بنكي في أول هذه الليلة.

ثم وضع إصبعاً على شفتيه.

أومأت برأسي. "بالطبع سيدي. اذهب ونم بسلام، كانت ليلة صعبة عليكما أنت والسيدة بنكي".

خلعت رداء المهراجا، ثم توجهت لأنام. كنت مرهقاً بشدة، ولكن كانت على شفتي ابتسامة كبيرة وكأنني مثل من قام بخدمة سيده في أكثر اللحظات حرجاً.

في الصباح التالي، مسحت مقاعد السيارة كالمعتاد؛ مسحت الملصقات وكذلك أشعلت عود بخور ووضعته في الداخل كي تكون رائحة المقاعد زكية. وغسلت العجلات مرة أخرى كي أتأكد أنني لم أغفل عن أي بقعة دم ليلة أمس.

وعدت إلى غرفتي أنتظر. في المساء جاءني سائق آخر يحمل رسالة مفادها أنني مطلوب في قاعة الانتظار؛ من دون السيارة. كان النمس بانتظاري هناك. لم أعرف كيف وصل إلى دلهي بهذه السرعة، لا بد من أنه استأجر سيارة طوال الليل. ابتسم لي مرحباً وربت على كتفي.

وصعدنا إلى الأعلى بالمصعد.

جلس إلى الطاولة وقال: "اجلس، اجلس، أرح نفسك، بالرام. أنت جزء من العائلة".

امتلأ قلبي بالفخر. جثمت على الأرض مثل كلب، وانتظرت أن يقول لي ذلك مجدداً. دخّن سيجارة، وهو الأمر الذي لم أره يفعله من قبل. ونظر إليّ مضيقاً عينيه.

- "من الضروري أن تبقى هنا في أبراج باكنغهام B ولا تذهب إلى أي مكان آخر، ولا حتى إلى A لبضعة أيام، ولا تقل أي شيء لأي أحد عما حدث".

- "نعم سيدي".

نظر إليّ لبعض الوقت وهو يدخن. ثم عاد ليقول، "بالرام، أنت جزء من العائلة".

- "نعم سيدي".

- "اذهب الآن إلى الأسفل إلى ركن الخدم وانتظر هناك".

- "نعم سيدي".

بعد مرور ساعة استُدعِيت إلى الأعلى مجدداً.

في هذه المرة كان هنالك رجل يرتدي معطفاً أسود يتناول العشاء إلى جانب النمس. كان يحدق إلى قصاصة ورقية ويقرأها صامتاً بشفتيه المحمّرتين من البان. كان السيد آشوك يتحدث عبر الهاتف في غرفته؛ سمعت صوته عبر الباب المغلق. كان الباب المؤدي إلى غرفة السيدة بنكي مغلقاً أيضاً. كأن المنزل برمته قد سُلِّم إلى النمس.

- "اجلس بالرام. أرح نفسك".

- "نعم سيدي".

جثمت وجعلت نفسي غير مستريح مرة أخرى.

سألني النمس: "هل تريد بعضاً من البان بالرام؟".

- "لا سيدي".

ابتسم. "لا تستحِ، بالرام. أنت تمضغ البان، أليس كذلك؟"، ثم التفت إلى الرجل ذي المعطف الأسود. "أعطِه شيئاً يمضغه، أرجوك".

مددت ذراعي، وأسقط البان في يدي من دون أن يلمسها.

- "ضعها في فمك بالرام، إنها لك".

- "أجل سيدي. إنها طيبة جداً. شكراً لك".

قال الرجل ذو المعطف الأسود: "دعنا نبحث هذا الأمر ببطء وبوضوح، مفهوم؟". كانت العصارة الحمراء تكاد تخرج من فمه وهو يتكلم.

- "حسناً".

- "سيعتني القاضي بالأمر. إن قام رجلكم بما عليه، ليس ثمة ما يثير القلق".

- "سيقوم رجلي بما هو مطلوب منه لا شك في ذلك. إنه جزء من العائلة. إنه فتى طيب".

- "حسناً، حسناً".

نظر الرجل ذو المعطف الأسود إليّ وأخرج قصاصة ورق.

- "هل يمكنك أن تقرأ أيها الشاب؟".

- "نعم سيدي". أخذت الورقة من يده وقرأت:

إلى من يهمه الأمر

أنا بالرام حلوي، ابن فكرام حلوي من قرية لاكسمانغار في مقاطعة غايا، أقدم إفادتي بكل حرية وإرادة ورغبة:

كنت أقود السيارة التي صدمت شخصاً مجهولاً، أو أشخاصاً، أو شخصاً وأشياء، في ليلة 23 كانون الثاني من هذه السنة، وشعرت بالرعب ورفضت تأدية الواجب إزاء الجرحى بأخذهم إلى صالة الطوارئ في المستشفى القريب. لم يكن هنالك أي أحد في السيارة في أثناء وقوع الحادث لأنني كنت وحدي في

السيارة وأتحمل وحدي مسؤولية كل ما حدث.

أقسم إنني قدّمت إفادتي هذه من دون أي تهديد ومن دون أي إملاءات من أي أحد.

التوقيع أو بصمة الإبهام:

(بالرام حلوي)

كُتبت الإفادة بحضور الشهود التالية أسماؤهم:

قَسَم حلوي، من قرية لاكسمانغار، مقاطعة غايا.

المحامي شامانداس فارما، المحكمة العليا في دلهي.

قال النمس وهو يبتسم لي بكل ود: «كنا قد تحدثنا مع عائلتك حول الأمر. جدتك، ما اسمها؟».

- «...».

- «لم أسمع».

- «... م».

- «نعم هو ذاك، قَسَم. نزلتُ إلى لاكسمانغار؛ الطريق إليها وعرة أليس كذلك؟ وشرحت لها الأمر شخصياً. إنها امرأة هادئة».

حكّ ساعديه، وكشّر بملءِ فمه كي أدرك أنه كان صادقاً.

- «قالت إنها فخورة بك أن تفعل ذلك ووافقت أن تكون شاهدة على هذا الاعتراف. وهذه هي بصمتها على الورقة يا بالرام، تماماً تحت المكان الذي ستوقع فيه».

قال الرجل ذو المعطف الأسود: «إن يكن أمياً يمكنه أن يبصم هكذا»، وضغط بإصبعه في الهواء.

- «إنه متعلم. أخبرتني جدته أنه أول واحد في العائلة يقرأ ويكتب. قالت إنك كنت دائماً ولداً ذكياً بالرام».

نظرت إلى الورقة متظاهراً بقراءتها مجدداً، وراحت ترتعش في يدي.

ما أصفه لك هنا، سـيدي، هو ما يحدث للسـائقين في دلهي كل يوم. أنت لا تصدقني، تظن أنني أختلق كل ذلك، سيد جياباو؟

حيـن تأتـي إلـى دلهـي أعـد رواية قصتي التي أرويها لك لأحد من وجهاء المدينة من الطبقة الوسطى الطيبين. قل له إنك سمعت هذه القصة الوحشية والغريبة والمستحيلة من سائق كان على وشك أن يُقحَم بجريمة قتل اقترفتها سيدته على الطريق. راقب شحوب وجه صديقك الطيب من وجهاء المدينة من الطبقة الوسطى. راقب كيف يبتلع ريقه بصعوبة، راقبه كيف يلتفت نحو النافذة، راقبه كيف يغير الموضوع في الحال.

إن سـجون دلهـي مليئـة بالسـائقين الذيـن يقبعـون خلـف القضبان متحملين مسؤولية وزر أسيادهم الطيبين من الطبقة الوسطى. لقد تركنا القرى، ولكن السادة لا يزالون يمتلكون أجسادنا وأرواحنا...

نعم، صحيح: نحن نعيش هنا في أعظم ديمقراطية عالمية.

أي مزحة لعينة؟

ألا يحتـجّ أهالـي السـائقين؟ إنهـم بعيـدون عـن ذلـك. لا بل إنهم يتجولون متفاخرين أن ابنهم بالرام تحمّل المسؤولية، وذهب إلى سجن تيهار بدلاً من سيده. إنه وفيّ كالكلب. إنه خادم مثالي.

القضاة؟ ألا يلاحظون أن ذلك اعتراف إجباري؟ هؤلاء أيضاً ضمن عمليـة الابتـزاز. يأخـذون رشـوتهم ويتجاهلـون التناقضـات في القضية. وتمضي الحياة بالنسبة إلى الجميع إلا السائق.

هذا يكفي الليلة، سيدي رئيس الوزراء. لم تبلغ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ولكن لا بد لي من أن أتوقّف هنا سيدي. حتى لو فكرت في ذلك مرة أخرى، فإنه يجعلني أستشيط غضباً وقد أخرج لأقطع رقبة أي رجل غني فوراً.

الليلة الخامسة

سيد جياباو.

سيدي.

عندمــا تصــل إلــى هنــا، سـيقولون لك إننا نحــن الهنود اخترعنا كل شيء، من الإنترنت إلى البيض المسلوق إلى سفن الفضاء قبل أن يسرقها البريطانيون منا.

هــذا كلام فــارغ. أعظــم شــيء أنتجته هــذه البلاد في تاريخها الذي يمتد إلى عشرة آلاف سنة هو قن الدجاج.

اذهــب إلــى دلهــي القديمــة، وانظــر إلى الطريقــة التي يحتفظون بها بالدجاج في السوق. المئات من الدجاج الشاحب والديوك لامعة الريش حشــرت بقوة في أقفاص من الأســلاك المشـبكة وكأنها حشــرات، تنقر بعضها بعضاً، وتتبول على بعضها بعضاً، وتمد بأعناقها كي تتنفس؛ وتشم رائحــة عفنــة مــن القفــص، عفونة مرعبــة للدجاج المذعور. يجلس جزّار شــاب متجهم إلى مكتب خشــبي فوق ذلك القن، عارضاً لحم وأعضاء الدجاج الذي ذبحه للتو، والذي لا يزال ملطخاً بطبقة من الدم الأسود. الديكة تجدها تشم رائحة الدم من الأعلى وهي تنظر إلى أعضاء إخوانها المرميــة حولهــا مدركــةً أن دورهــا ســيأتي. لكنهــا لا تحتــجّ، ولا تحاول الخروج من القن.

الشيء نفسه يحدث للبشر في هذه البلاد.

انظــر إلــى الشــوارع عنــد المســاء فــي دلهــي؛ عاجلاً أم آجلاً ســترى رجلاً يقود دراجة هوائية تجر عربة تسـير في الشــارع وعليها ســرير هائل الحجم أو طاولة مربوطة إلى عربة كبيرة يجرها الرجل بدراجة هوائية. في كل يــوم ينقــل هــذا الرجــل الأثاث إلــى بيوت الناس؛ وهو يُدعى الموزّع. يكلف السرير خمسة آلاف أو ربما ستة آلاف. أضف إلى ذلك الكراسي

وطاولات القهوة، تصل إلى عشرة أو خمسة عشر ألفاً. يأتيك رجل على عربة تقاد بعجلة هوائية لينقل لك هذا السرير والطاولة والكراسي ويحصل على خمسمئة روبية في الشهر. يفرغ لك حمولة الأثاث وتعطيه المال نقداً. كمية ضخمة من النقد بحجم صخرة. يضعها في جيب سرواله أو قميصه أو حتى جيب ملابسه الداخلية، ويعود بدراجته إلى رئيسه ليسلمه المبلغ من دون أن يلمس روبية واحدة منه! بيده راتب سنة أو سنتين ولا يأخذ روبية واحدة منه أبداً.

في كل يوم على طرقات دلهي، تجد سائقاً يسوق سيارة وحده وثمة حقيبة سوداء على المقعد الخلفي. داخل تلك الحقيبة مليون أو مليونا روبية؛ أموال لا يستطيع أن يرى أكثر منها طوال حياته. ولو اختلس هذه الأموال سيمكنه الذهاب إلى أميركا أو أستراليا أو أي مكان يبتغيه ويبدأ حياة جديدة. سيمكنه الدخول إلى فنادق الخمس نجوم الكبيرة التي كان يحلم بالدخول إليها دائماً والتي لم يستطع إلا النظر إليها من الخارج. يمكنه أن يأخذ عائلته إلى جاوا أو إنكلترا. لكنه بالرغم من ذلك يأخذ تلك الحقيبة إلى حيث يريد سيده. يضعها في المكان المطلوب ولا يلمس أبداً روبية واحدة منها. لماذا؟

ألأنّ الهنود هم من أشرف الناس في العالم، كما يعلمك ذلك كتيّب رئيس الوزراء؟

كلا، السبب الحقيقي هو أن 99.9 بالمئة منا محجوزون في قفص الدجاج، تماماً مثل تلك الدجاجات المسكينة في سوق الطيور الداجنة.

لا يعمل قفص الدجاج بالمبالغ الصغيرة جداً دائماً. فلا تختبر سائقك بروبية معدنية واحدة أو اثنتين؛ فقد يسرق ذلك المبلغ كله. لكن، اترك مليون دولار أمام خادم ولن يمدّ يده إلى فلس. حاول أن تترك حقيبة سوداء فيها مليون دولار في سيارة أجرة في مومباي،

فسيسلمها السائق إلى الشرطة في نهاية اليوم. أضمن لك ذلك. (وفيما إذا سيسلمك إياها رجال الشرطة أو لا فتلك مسألة أخرى، سيدي!) يؤمّن السادة ماسهم لدى خدمهم في هذه البلاد! هذا صحيح. وفي كل مساء في القطار الخارج من سورات، حيث تدار هناك أكبر عمليات صقل وتلميع الماس في العالم، يحمل خدم تجار الماس حقائب محملة بالماس المصقول ويتوجب عليهم تسليمه إلى شخص ما في مومباي. لماذا لا يسرق الخادم الحقيبة المليئة بالماس؟ إنه ليس غاندي، إنه بشر، إنه مثلك ومثلي. ولكنه في قفص الدجاج. إن أمانة الخدم هي أساس الاقتصاد الهندي برمته.

قفص الدجاج الهندي الكبير. هل لديكم شيء مثل هذا في الصين؟ أشك في ذلك، سيد جياباو. وإلا لما كنتم بحاجة إلى أن يرمي الحزب الشيوعي الناس أو تداهم الشرطة السرية منازلهم في الليل وتودعهم في السجون، كما سمعت أنكم تفعلون ذلك هناك. لا توجد دكتاتورية هنا في الهند. ولا شرطة سرية.

ذلك لأنه لدينا قفص الدجاج.

لم يحدث في التاريخ البشري أبداً أن امتلك هذا العدد القليل ذلك العدد المهول، سيد جياباو. زمرة من الرجال، سيد جياباو، في هذه البلاد قد دربوا 99.9 بالمئة، بهذه القوة وبهذه الموهبة وهذا الذكاء بكل الطرائق ليوجدوا خدمة أبدية؛ خدمة قوية حتى إنك تضع مفتاح تحرر ذلك الخادم في يده ويعيده إليك لاعناً.

لا بد لك من أن تأتي إلى هنا لترى ذلك بنفسك كي تصدق. في كل يوم يستيقظ الملايين عند الفجر ليقفوا في حافلات قذرة ومزدحمة، وليهبطوا منها بعد ذلك منطلقين نحو بيوت أسيادهم فائقة الثراء؛ ينظفون الأرض ويغسلون الصحون ويعملون في حدائقهم ويطعمون أولادهم ويدلكون أقدامهم، كل ذلك مقابل أجر زهيد. لن أحسد الأغنياء في

أميركا وإنكلترا، سيد جياباو، فليس لديهم خدم هناك. ولا يستطيعون حتى أن يبدأوا بفهم ماهية الحياة المرفهة.

الآن لأنك رجل مفكر، سيد جياباو، لا بد من أنك ستسأل سؤالين:

لماذا ينجح قفص الدجاج؟ كيف يُوقِع في فخه هذا العدد الكبير من ملايين الرجال والنساء وبهذه الفعالية؟

وثانياً هل يمكن لأحد أن يكسر هذا القفص ويخرج منه؟ ماذا لو، على سبيل المثال، أن سائقاً قد أخذ أموال مستخدمه وهرب؟ كيف ستكون حياته؟

سأجيبك عن هذين السؤالين سيدي.

جواب السؤال الأول هو أن فخر ومجد بلادنا هما مستودعا حبنا وتضحيتنا، الموضوع الذي له المجال الواسع في الكتيّب الذي سيقدمه إليك رئيس الوزراء، العائلة الهندية، هو السبب الذي يوقعنا في الفخ ويربطنا بالقفص.

وجواب السؤال الثاني هو أنه ليس إلا الرجل الذي يريد لعائلته أن تدمر - وتصاد وتجلد وتحرق حية من قِبَل السادة - يمكنه أن يكسر القفص. ذلك ما يتطلب كائناً غير عادي، بل شخصاً منفلتاً، ضالاً عن الطبيعة.

يتطلب ذلك، في الواقع، نمراً أبيض. أنت تستمع إلى قصة رجل أعمال اجتماعي، سيدي.

فلنعد إلى قصتي.

هنالك لافتة في حديقة الحيوانات في نيودلهي، قرب قفص النمر الأبيض، تقرأ عليها: تخيل نفسك في القفص.

عندما رأيت تلك اللافتة، فكّرت، يمكنني أن أفعلها، يمكنني أن أفعل ذلك من دون أي معوّقات أبداً.

كنت في غرفتي القذرة والمظلمة طوال اليوم، ساقاي مسحوبتان إلى صدري، جالساً داخل تلك الناموسية خائفاً من الخروج من الغرفة. لم يطلب مني أحد أن أسوق له السيارة، ولم يأتِ أحد لرؤيتي.

لقد كُتِبَ على حياتي الانتهاء. ويتحتم عليّ أن أسجن بسبب جريمة قتل لم أرتكبها. كنت مذعوراً، ولكنني بالرغم من ذلك لم يَدُر في خاطري أن أهرب. ولم تخطر ببالي مرة فكرة أن أخبر القاضي بالحقيقة. كنت قد وقعت في فخ قن الدجاج.

كيف سيكون السجن؟ هذا ما كنت أفكر فيه. أي خطط سأتبعها لأهرب من أولئك الرجال الكبار، طويلي الشعر، والقذرين الذين سأجدهم هناك؟

تذكرت قصة من مجلة جريمة الأسبوع التي أُودع فيها رجل في السجن مدعين أنه مصاب بالأيدز كي لا يعتدي عليه أحد من الناحية الجنسية. أين نسخة تلك المجلة؟ آه لو أجدها الآن، لعملت على تطبيق كل كلمة فيها، كل إشارة! ولكن إن قلت إنني مصاب بالإيدز، فهل سيفترضون أنني شاذ محترف وسيعتدون عليّ أكثر؟

كنت قد وقعت في الفخ. من خلال الثقوب الصغيرة لناموسيتي، جلست أحدق إلى آثار اليد المجهولة التي عملت الجص الأبيض لحيطان الغرفة.

- "يا فأر القرية!".

جاء ذو الشفتين الورديتين ليقف عند عتبة غرفتي.

- "رئيسك يقرع الجرس كالمجنون".

وضعت رأسي على المخدة.

دخل الغرفة وقرّب وجهه الأسود وشفتيه الورديتين من الناموسية. "هل أنت مريض يا فأر القرية؟ هل أنت مصاب بالتيفوئيد؟ أم الكوليرا؟ أم الحمى؟".

هززت رأسي. "أنا بخير".

- "جميل أن أسمع ذلك".

غادر بابتسامة عريضة من شفتيه المصابتين.

صعدت إلى الأعلى كأنني أصعد إلى المشنقة. صعدت السلالم المؤدية إلى البناية، ومن ثم دخلت المصعد الذي أوصلني إلى الطابق الثالث عشر.

فتح النمس الباب. لم أرَ ابتسامة على وجهه هذه المرة؛ وليس ثمة إشارة إلى ما ينوي فعله بي.

- "تأخرت بالمجيء. أبي هنا. يريد أن يتكلم معك".

تسارعت دقات قلبي. اللّقلق هنا! سينقذني! لم يكن عديم الفائدة مثل ولديه. إنه سيد من الطراز القديم ويعرف أن عليه حماية خدمه.

كان جالساً على الأريكة وكانت ساقاه الشاحبتان ممدودتين. حالما رآني كشف وجهه عن ابتسامة عريضة، وفكرت، إنه يبتسم لأنه أنقذني! ولكنه لم يكن يفكر فيّ على الإطلاق. كلا، كان يفكر في أشياء أكثر أهمية من حياتي. وأشار إلى ذينك الشيئين المهمين.

- "آه يا بالرام، قدماي تحتاجان فعلاً إلى تدليك جيد. كانت رحلة طويلة بالقطار".

ارتعشت يدي وهي تشعل غلاية الماء في الحمام. ملأ الماء الوعاء وفاض على رجلي وحين نظرت إلى الأسفل رأيتهما تطقطقان وثمة خيط من البول يجري عليهما.

بعد دقيقة، جئت وابتسامة ترتسم على وجهي إلى حيث كان اللّقلق جالساً ووضعت وعاء الماء بالقرب منه.

- "ضع قدميك في الماء سيدي".

قال: "آه"، وأغمض عينيه؛ وانفرجت شفتاه، وبدأ يئن قليلاً، يا

سيدي رئيس الوزراء، ودفعني أنينه إلى أن أضغط أكثر فأكثر؛ وبدأ رأسي يهتز بينما أفعل ذلك واحتك رأسي بركبتيه.

كان النمس والسيد آشوك جالسين أمام التلفاز ويلعبان معاً لعبة على الحاسوب.

فُتح باب غرفة النوم، وظهرت السيدة بنكي. لم تكن تضع مساحيق التجميل على وجهها الذي بدا مضطرباً، ورأيت ثمة بقعتين سوداوين تحت عينيها وقد ظهرت تجاعيد على جبهتها. حالما رأتني استشاطت غيظاً.

- "هل أخبرتم السائق يا جماعة؟".

لم يقل اللّقلق شيئاً. واستمر النمس والسيد آشوك في اللعب.

"ألم يخبره أحد؟ أي مزحة لعينة! أليس من المفترض أن يذهب هو إلى السجن؟".

قال السيد آشوك: "أظن يجدر بنا إخباره". ونظر إلى أخيه الذي لا يزال ينظر إلى شاشة الحاسوب.

قال النمس: "حسناً".

التفت السيد آشوك إليّ.

- "اتصلنا بالشرطة؛ وأخبرونا أن لا أحد قد بلّغ عن وقوع أي حادثة. لذلك لم نعد بحاجة إلى مساعدتك، بالرام".

شعرت براحة مهولة، حتى إنني حركت يدي فجأة وفاض الماء الدافئ ثم تعثرت لأعدّل وضع الوعاء. فتح اللّقلق عينيه، ولطمني على رأسي بيده، ثم أغمض عينيه.

شاهدت السيدة بنكي ذلك؛ فتغيّرت تعابير وجهها وهرعت إلى غرفتها، وأغلقت الباب بقوة. (من كان يظن، سيد جياباو، أن من بين العائلة كلها كانت السيدة ذات التنورة القصيرة هي من لديه الضمير؟).

راقبها اللّقلق تدخل إلى غرفتها وقال: "ستجن هذه المرأة، إنها تريد أن نبحث عن عائلة الطفلة وندفع لها تعويضاً؛ هذا جنون. وكأننا كلنا هنا قتلة". نظر بصرامة إلى السيد آشوك. "من الأفضل لك أن تكبح جماح تلك الزوجة يا بني. كما نفعل في القرية".

ثم ربت على رأسي قائلاً: "بدأ الماء يبرد".

كنت أدلك قدميه كل صباح في الأيام الثلاثة التي تلت. في أحد الصباحات أحس بألم قليل في بطنه، لذلك طلب مني النمس أن آخذه إلى ماكس، التي فيها أحد أشهر المستشفيات الخاصة في دلهي. وقفت في الخارج وراقبت النمس والرجل العجوز يدخلان تلك البناية الجميلة المصنوعة من الزجاج. كان الأطباء يتحركون داخلين وخارجين بمعاطفهم البيضاء والسماعات في جيوبهم. وحين اختلست النظر من الخارج إلى قاعة الانتظار كانت تبدو نظيفة مثل قاعات الانتظار في الفنادق ذات الخمس نجوم.

في اليوم الذي تلا ذلك أخذت اللّقلق والنمس إلى محطة القطار، واشتريت لهما الطعام السريع الذي يحتاجان إليه في سفرهما وهما يعودان إلى البيت، وانتظرت مغادرة القطار ثم عدت بالسيارة، ومسحتها، وذهبت إلى معبد هانومان لأقدم صلاة الشكر ثم عدت إلى غرفتي، وسقطت تحت ناموسيتي، أكاد أموت من التعب.

حين استيقظت، كان هنالك شخص في غرفتي يطفئ الضوء ويضيئه.

كانت السيدة بنكي.

- "استعدّ، ستأخذني بالسيارة".

قلت لها وأنا أفرك عيني: "نعم سيدتي، كم الساعة الآن؟".

وضعت إصبعها على شفتيها. لبست قميصي، ثم أخرجت السيارة، وقدتها إلى مدخل البناية. كانت تحمل حقيبة في يدها.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فسألتها: "إلى أين؟".

أخبرتني بالمكان وعدت لأسألها: "ألن يأتي سيدي؟".

- "سر وحسب".

أخذتها إلى المطار، ولم أسأل أي سؤال.

حين نزلت عند المطار، دفعت مظروفاً بنياً من النافذة؛ ثم أغلقت الباب بقوة وذهبت.

هكذا، يا صاحب السعادة، انتهى زواج مستخدمي.

السائقون الآخرون لديهم أساليب أخرى لإطالة زواج أسيادهم. فقد أخبرني أحدهم أنه حين يسوء العراك كان يسوق بسرعة كي يصلا إلى البيت سريعاً؛ وحين يكونان في جو رومانسي كان يبطئ. وحين يصرخان على بعضهما كان يسألهما عن المكان الذي يتوجهان إليه؛ وحين يقبلان بعضهما كان يشغل الموسيقى. وأنا أشعر أن جزءاً من المسؤولية يقع على عاتقي في فشل زواجهما حين كنت سائقاً لهما.

في الصباح التالي، استدعاني السيد آشوك إلى الشقة. وعندما طرقت الباب أمسك بي من ياقة قميصي، وسحبني إلى الداخل.

قال وهو يشد ياقتي بقوة حتى كاد يخنقني: "لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم توقظني في الحال؟".

- "سيدي... قالت... قالت...".

سحبني ودفعني إزاء شرفة الشقة. فلم يمت الملاّك في داخله على أي حال.

- "لماذا أخذتها إلى هناك يا أخا...؟".

التفتُّ، ورأيت خلفي الأبراج المنيرة والمتاجر الكبيرة لغوركون.

- "هل كنت تريد تشويه سمعة عائلتي؟".

دفعني بقوة أكثر إزاء الشرفة؛ أمسى رأسي وصدري على الحافة الآن، وإن دفعني أكثر قليلاً سأوشك على السقوط. جمعت رجلي وركلته

في صدره؛ فترنح متراجعاً واصطدم بالباب الزجاجي الذي يفصل الشرفة عن الشقة، وانزلقت أسفل حافة الشرفة؛ وجلس هو أمام الباب الزجاجي. كنا نلهث.

صحت: "لا يمكنك أن تلومني، يا سيدي، لم أسمع بامرأة هجرت زوجها إلى الأبد! أعني، بلى، عبر برامج التلفاز، ولكن ليس في الحقيقة! أنا فعلت ما أمرتني هي به".

حط غراب على الشرفة ونعق. وشخصنا إليه بأنظارنا.

عند ذاك تلاشى جنونه. فغطى وجهه بيديه وراح ينتحب.

هرعت إلى غرفتي. دخلت تحت ناموسيتي، وجلست على فراشي. رحت أعد إلى العشرة كي أتأكد أنه لم يتبعني. ثم مددت يدي تحت الفراش، وأخرجت المظروف البني وفتحته.

كان مليئاً بالعملات النقدية من فئة المئة روبية.

سبعة وأربعون ورقة.

دفعت المظروف تحت الفراش إذ سمعت خطوات تتجه نحو غرفتي. ثم دخل أربعة سائقين الغرفة.

- "أخبرنا بالأمر يا فأر القرية".

- "أخبركم بماذا؟".

- "لقد أفشى البواب بالأمر، فلا أسرار هنا. لقد أخذت المرأة إلى مكان ما في الليل وعدت وحدك. هل هجرته؟".

- "لا أعلم عمَّ تتحدثون".

- "نحن نعلم بأنهما كانا يتشاجران يا فأر القرية. وأنت أخذتها إلى مكان ما في الليل. المطار؟ لقد رحلت، أليس كذلك؟ إنه الطلاق؛ كل الأغنياء اليوم يطلقون زوجاتهم. يا لهؤلاء الأغنياء..."، وهز رأسه. ولوى شفتيه احتقاراً، عارضاً لثته المحمرة المتآكلة التي أفسدها البان. "ولا يحترمون الزواج، ولا العائلة... لا شيء".

- "لقد خرجت لتشم بعض الهواء النقي ليس إلا. وقد عدت بها. لقد أصيب البواب بالعمى".

- "ابقَ وفياً حتى النهاية. لن يجدوا خادماً مثلك".

انتظرت الجرس طوال الصباح ولكنه لم يرن. وعند العصر صعدت إلى الطابق الثالث عشر، وضغطت الجرس منتظراً. فتح الباب وكانت عيناه محمّرتين.

- "ماذا؟".

- "لا شيء سيدي. جئت... لأطهو العشاء".

- "لا أحتاج إليه". اعتقدت أنه سيعتذر لمحاولته قتلي، ولكنه لم يقل شيئاً.

- "لا بد لك من أن تأكل يا سيدي. ستتردى صحتك إن بقيت جائعاً... أرجوك دعني يا سيدي".

سمح لي بالدخول متنهداً.

الآن وبعد أن رحلت زوجته، كنت أعلم أن من واجبي أن أكون مثل زوجته. كان عليّ التأكد من أنه يتغذى جيداً وينام جيداً ولا ينحف. طهوت عشاءً، وقدمته له، ثم قمت بالتنظيف. ثم نزلت إلى الأسفل بانتظار الجرس. عند الثامنة دخلت المصعد مرة أخرى ووضعت أُذني على الباب وأصغيت.

لا شيء. لا صوت هناك.

قرعت الجرس: لا أحد يستجيب. كنت أعلم أنه لم يخرج، فأنا سائقه على كل حال. أين يمكنه الذهاب من دوني؟

كان الباب مفتوحاً. فدخلت.

كان مضطجعاً تحت الصورة المؤطرة للكلبين البومرانيين، مغمض العينين وهنالك زجاجة على طاولة الماهاجوني التي أمامه.

شممت الزجاجة. شراب اسكتلندي. تكاد تكون فارغة. رفعتها،

وأفرغت ما بقي فيها في جوفي.

ناديته: "سيدي". لكنه لم يستيقظ. دفعته ثم لطمته برفق على خده. لعق شفتيه ومص أسنانه. بدأ يستيقظ، ولكنني لطمته برفق مجدداً على خده. (التاريخ المشرّف لتراث الخدم. اصفع سيدك عندما يكون نائماً. وهو مثل القفز على المخدات عند غياب السادة، أو التبول على مزروعاتهم أو ركل كلابهم. المتع البريئة للخدم).

سحبته إلى غرفة نومه، وغطيته، ثم أطفأت الضوء، ونزلت. يبدو أن ليس ثمة سياقة الليلة، لذلك ذهبت إلى متجر بيع المشروبات. كان أنفي لا يزال يشم رائحة الشراب الاسكتلندي للسيد آشوك.

تكرر حدوث الأشياء نفسها في الليلة التالية.

في الليلة الثالثة كان صاحياً ولكنه ثمل.

قال: "خذني بالسيارة إلى أي مكان تريده، إلى المتاجر، إلى الفنادق. إلى أي مكان".

تجولت به حول المتاجر المنيرة والفنادق في غوركون، وكان جالساً بترهل في المقعد الخلفي؛ ولم يتحدث حتى عبر الهاتف ولا لمرة واحدة.

عندما تكون حياة السيد في فوضى، كذلك يكون حال الخادم. فكّرت في أنه ربما يكون قد ملّ من دلهي الآن. فهل سيعود إلى دانباد؟ بطني تختض. فكّرت في أنني ربما أتبرز هنا على مقعدي.

أمرني: "توقف هنا".

فتح الباب، ووضع يده على بطنه، وتقيأ على الأرض. مسحت فمه بيدي وساعدته ليجلس على جانب الطريق. سمعنا ضجيج السيارات المتزاحمة المارة بنا. ربتُّ على ظهره.

- "أنت تشرب كثيراً جداً يا سيدي".

- "لماذا يشرب الناس يا بالرام؟".

- "لا أعلم سيدي".

- "بالطبع أنتم لا تعلمون في طائفتكم... دعني أخبرك يا بالرام. يشرب الناس لأنهم سئموا الحياة. اعتقدت أن الطائفة والدين لم تعد لهما أي أهمية في عالم اليوم. قال لي أبي: لا، لا تتزوجها، إنها من... أنا...".

أدار السيد آشوك وجهه إلى الجهة الأخرى، فربّتُّ على ظهره مجدّداً ظاناً أنه سيتقيأ مرة أخرى، ولكن النوبة مرت.

- "أتساءل أحياناً، بالرام. أتساءل عن مغزى الحياة. أتساءل فعلاً...".

مغزى الحياة؟ راح قلبي يخفق بعنف. مغزى حياتك أنك لو مت، فمن سيدفع لي ثلاثة آلاف وخمسمئة روبية كل شهر؟

- "يجب أن تؤمن بالله سيدي، ويجب أن تستمر في الحياة. تقول جدتي إن آمنت بالله، فستكون حياتك طيبة".

فقال منتحباً: "هذا صحيح، صحيح. لا بد من أن نؤمن".

- "مرة كان ثمة رجل كفّ عن الإيمان بالله، فهل تعرف ما الذي حصل له؟".

- "ماذا؟".

- "توفيت جاموسته في الحال".

فضحك: "فهمت، فهمت".

- "أجل سيدي، هذا ما حدث بالفعل. في اليوم التالي قال: عفوك يا الله، إنني مؤمن بك، فاحزر ما الذي حصل؟".

- "هل عادت جاموسته إلى الحياة؟".

- "بالضبط".

عاد ليضحك. فرويت له قصة أخرى، وهذه جعلته يضحك أكثر.

هـل كان ثمـة علاقـة بيـن سـيد وخادمـه بهذا الشـكل؟ كان مشـتّتاً وضائعاً مما كان يفطر قلبي. مهما كان الغضب الذي في داخلي بشـأنه إثـر محاولتـه تثبيـت جريمـة القتـل التي اقترفتها السـيدة بنكي عليّ، فقد انقشع في ذلك المساء. كانت تلك غلطتها. ليست له أي علاقة. وسامحته تماماً.

حدثته عن الحكمة في قريتي؛ مرة أعيد سرد ما كانت تقوله جدتي ومرة أخرى أسرد ما كنت أختلقه وهو يومئ لي برأسه. إنه المشهد الذي يضعك في الممر المؤدي إلى باغافاد جيتا، عندما كان كريشنا - وهذه من التاريخ المشهور للسائقين - يوقف عربته التي يسوقها ويهدي عابر السـبيل أثمـن النصائـح عـن الحياة والموت. وتفلسـفت مثل كريشـنا... ومزحت... وحتى إنني غنيت أغنية؛ كل ذلك من أجل أن يشعر السيد آشوك بالتحسن.

فكّرت، وأنا أربّتُ على ظهره حينما عاد للتقيؤ، حبيبي، أنت أيها الحبيب الكبير الحزين. مددت يدي، ومسـحت القيء عن فمه، وهدأته بكلمات طيبة. رؤيته وهو يعاني هكذا كانت تعصر قلبي؛ ولكن، أين كان قلقي الحقيقي عليه ينتهي وأين تبدأ مصلحتي الشخصية؟ ليس بإمكاني أن أحدد؛ فليس ثمة خادم يمكنه أن يخمن الدوافع التي في داخله.

هل نشمئز من سادتنا خلف واجهة من الحب؛ أم أننا نحبهم خلف واجهة الاشمئزاز؟

نحـن نصنـع القصـص الغامضـة عن أنفسـنا من خـلال قن الدجاج الذي نُحبس فيه.

فـي اليـوم التالـي، ذهبـت إلـى معبـد علـى الطريـق فـي غوركون. وضعت روبية وتضرّعت أن يُجمع شـمل السـيدة بنكي والسـيد آشـوك ويعيشا بسعادة في دلهي.

* * *

مر أسبوع على هذا الحال، وبعد ذلك جاء النمس من دانباد فذهبنا أنا والسيد آشوك كي نأتي به من المحطة.

في اللحظة التي أتى فيها، تغير كل شيء معي. وتلاشت الحميمية بيني وبين السيد آشوك.

وعدت لأكون مجرد سائق. وعدت كذلك لأختلس السمع ليس إلا.

- "تحدثت إليها أمس. لن تعود إلى الهند. والداها مسروران لقرارها هذا. ليس لهذا إلا طريق واحدة".

- "لا تقلق بشأن ذلك آشوك. لا بأس. ولا تتصل بها مجدداً. سأتولى الأمر من دانباد. إن قامت بأي ضجة حول أموالك، فسأسوي برفق قضية اضرب واهرب هذه، هل تفهمني؟".

- "ليس الأمر أمر المال يا موكيش، أنا قلق بشأن...".

- "أعرف، أعرف".

وضع النمس يده على كتف آشوك، مثلما كان كيشان يضع يده على كتفي لمرات عديدة.

مررنا بحي للفقراء؛ حي من سلسلة الأحياء المؤقتة المكونة من الخيم التي يعيش فيها عمال مواقع البناء. كان النمس يقول شيئاً ما، ولكن السيد آشوك لم يكن منتبهاً إليه، بل كان ينظر إلى ما هو خارج النافذة.

تتبعت عيناي عينيه. رأيت أشباح سكان الحي متقاربين من بعضهم بعضاً داخل الخيم؛ ويمكنك أن تلاحظ عائلة كاملة من زوج وزوجته وطفل، متحاضنين كلهم قرب موقد النار في إحدى الخيم التي يضيئها مصباح ذهبي. كانت الحميمية واضحة بينهم، إلى حدّ كبير. أدركت ما الذي كان يفكّر فيه السيد آشوك.

رفع يده، فاستعددت للمسته، ولكنه لفها حول كتف النمس.

- "عندما كنت في أميركا، لا أنكر أنني كنت أعتقد أن العائلة عبءٌ. عندما حاولتما أنت وأبي أن تمنعاني من الزواج من بنكي لأنها لم تكن هندوسية كنت حانقاً عليكما، لا أنكر ذلك. ولكن الإنسان لا يساوي شيئاً من دون العائلة. لا يساوي شيئاً مطلقاً. لم يكن لي غير هذا السائق الذي أمامك خلال خمس ليالٍ. وفي النهاية، لدي شخص إلى جانبي حقاً: أنت".

صعدت إلى الشقة معهما؛ طلب مني النمس أن أطهو لهما طعاماً، فطهوت الدال والشاباتيس وطبقاً من البامية. قدّمت لهما الطعام، ثم غسلت الأواني والصحون.

خلال العشاء، قال النمس: "إذا كنت تشعر بالكآبة آشوك لماذا لا تجرب اليوغا والتأمل؟ هنالك أستاذ يوغا يُعرض برنامجه على التلفاز، وهو ممتاز في هذا المجال؛ هذا ما يفعله كل صباح في برنامجه". وأغلق عينيه، تنفس بعمق، ثم أطلق زفيراً وهو يقول: "أوووووووم".

حين خرجت من المطبخ أمسح يدي بسروالي، قال النمس: "انتظر".

أخرج قصاصة ورق من جيبه، ولوّح بها بتكشيرة كبيرة كأنه كان يحمل جائزة لي.

- "لديك رسالة من جدتك. ما اسمها؟"، وراح يفتح الرسالة بإصبعه السميك الأسود.

- "قَسَم، سيدي".

قال: "امرأة متميزة". وحكّ ساعديه من الأعلى والأسفل.

قلت: "لا تزعج نفسك سيدي. أستطيع القراءة".

فتح الرسالة. وراح يقرأ بصوت عالٍ.

تكلم السيد آشوك بالإنكليزية، وخمنت أنه قال: أليس من حقه أن يقرأ رسائله الخاصة؟

أجابه أخوه بالإنكليزية، وخمنت أيضاً أكثر مما فهمت مغزى كلامه: إنه لا يمانع في أشياء كهذه، فليس لديه إحساس بالخصوصية. في منازل القرية ليست هنالك غرف منفصلة، لذلك ينامون جميعاً في مكان واحد ويتضاجعون فيه. صدقني، إنه لا يكترث.

التفت نحو الضوء الذي كان خلفه وراح يقرأ بصوت عالٍ:

"حفيدي العزيز. هذه الرسالة كتبها السيد كريشنا، معلم المدرسة. إنه يذكرك بحب ويشير إليك بلقبك، النمر الأبيض. أمست الحياة صعبة هنا. وقد هطلت الأمطار. هل يمكنك أن تطلب من سيدك بعضاً من المال لعائلتك؟ وتذكّر أن ترسله إلى البيت".

وضع النمس الرسالة جانباً.

- "هذا كل ما يريده الخدم. المال، المال، المال. يسمون خدمك، ولكنهم يمتصون دمك، أليس كذلك؟".

ثم عاد لتكملة قراءة الرسالة:

«أخوك كيشان قلت له: حان الوقت، وفعلها وتزوج. أما أنت، فلا آمرك. أنت تختلف عن الآخرين. أنت عميق، كأمك. حتى في طفولتك كنت كذلك؛ تقف قرب البركة وتحدق إلى القلعة السوداء وفمك مفتوح، في الصباح والمساء والليل. لذلك لا آمرك بالزواج. ولكنني أشير عليك بمباهج الحياة الزوجية. إنها خير للمجتمع. ففي كل مرة تتم فيها مراسم زواج يهطل المطر في القرية وتسمن جاموسة الماء، وتدر المزيد من الحليب. هذه حقائق معروفة. نحن فخورون بك لكونك في المدينة. ولكن عليك أن تكفّ عن التفكير في نفسك وفكر فينا أيضاً. عليك أولاً أن تزورنا وتأكل دجاجي بالكاري. جدتك المحبة. قَسَم».

كان النمس قد أوشك أن يسلمني الرسالة، لكن السيد آشوك أخذها منه وأعاد قراءتها.

قال قبل أن يرمي الرسالة على الطاولة كي ألتقطها: «القرويون

يعبّرون عن أنفسهم على نحو مؤثر أحياناً».

في الصباح، أخذت النمس إلى محطة القطار وجئته بالطعام السريع المفضل لديه، ومرة أخرى، أزلت منه البطاطا، ورميتها على سكة القطار قبل أن أسلمه إياه. ونزلت على الرصيف منتظراً. أكل طعامه بتلذذ ونهم بينما كان جالساً في مقعده، وهناك في الأسفل راح فأر يقضم البطاطا المرمية على السكة.

أخذت السيارة عائداً إلى الشقة. وصعدت بالمصعد إليها في الطابق الثالث عشر. كان الباب مفتوحاً.

صرخت، عندما رأيت ما الذي يجري في غرفة المعيشة: «سيدي، سيدي هذا جنون!».

كان قد وضع قدميه في الوعاء البلاستيكي وراح يدلكهما.

قلت صائحاً: «حري بك أن تطلب مني أن أدلكهما لك!»، ومددت يديّ إلى قدميه.

فصرخ: «كلا».

قلت: «بلى سيدي، يجب عليك... أنا أفشل في واجبي إن كنت أدعك تدلك قدميك بنفسك!»، وأقحمت يدي في الماء القذر في الوعاء، وضغطت قدميه.

- «كلا!».

ركل السيد آشوك الوعاء، وانسكب الماء على الأرضية.

- "كم أنتم أغبياء أيها الناس". وأشار إلى الباب.

- "اخرج! هل يمكنك أن تتركني وحدي لخمس دقائق في اليوم؟ هل تعتقد أنك تستطيع ذلك؟".

* * *

كان عليّ أن أقله إلى المتجر في ذلك المساء. بقيت داخل السيارة بعد أن خرج؛ ولم أختلط بأي من السائقين.

يستمر العمل في البناء حتى في الليل في غوركون، وتشع الأضواء من الأبراج، ويتعالى الغبار من الحفر، وتنصب السقالات، بينما يتمايل الرجال والحيوانات من النعاس والأرق والعيون الرطبة وهم يدورون ويدورون حاملين الكونكريت والحصى والحجارة.

كان أحد الرجال الذين في مواقع البناء تلك يقود حماراً، وقد وضع عليه سرجاً أحمر لامعاً وعلى السرج وضع وعاءً حديدياً كبيراً مليئاً بالحصى. خلف ذلك الحمار اثنان آخران وقد وُضِع على سرجيهما أيضاً وعاءان حديديان مليئان بالحصى. كان الحماران الصغيران يسيران ببطء بينما كان الحمار الذي يتقدمهما يقف كل حين ليلتفت إليهما، بطريقة تشعرك أنها أمهما.

لم أكن أريد أن أطيع قَسَم. إنها تبتزني؛ وفهمت لماذا أرسلت الرسالة عبر النمس. لو أنني رفضت، فستطلق الصافرة عليّ؛ لتخبر السيد آشوك أنني لم أعد أرسل إليهم نقوداً.

الآن سيدي، مضى عليّ وقت طويل لم أقارب أي فتاة، وقد تراكم الضغط عليّ.

كانت الفتاة شابة جداً - سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً - وأنت تعلم أي طعم لذلك العمر، إنها تشبه البطيخة. ستشفى من أي مرض في الجسم أو العقل حين تخترق عذراء. هذه حقائق معروفة. وهنالك أيضاً المهر الذي ستستله قَسَم من عائلة الفتاة. كل ذلك الذهب من العيار أربعة وعشرين، وذلك النقد الجديد الذي صرف من المصرف تواً. كنت سآخذ قسماً منه على الأقل. كل هذه الأشياء كانت حججاً قوية في صالح الزواج.

ولكن من الناحية الأخرى.

أنت ترى أنني مثل ذلك الحمار الآن. وكل ما سأفعله، إن حدث وصار عندي أطفال، هو أن أعلمهم كيف سيكونون حميراً مثلي،

ويحملون الحصى من أجل الأغنياء.

وضعت يدي على المقود، وتمسكت أصابعي به بقبضة قوية.

استغربت من الطريقة التي اندفعت بها لتدليك قدمي السيد آشوك، واللحظة التي رأيتهما فيها، بالرغم من أنه لم يطلب مني ذلك! لماذا كان لدي شعور بأنه يتحتم عليّ أن أكون قريباً من قدميه، وأن ألمسهما وأدلكهما وأجعلهما تشعران بالراحة؟ لماذا؟ لأنني تربيت على الرغبة بأن أكون خادماً: كانت تلك التربية مثل مطرقة على جمجمتي، وهي تدق مسماراً بعد مسمار، وسارت في الدم، بالطريقة نفسها التي تسير فيها المجاري والسموم الصناعية في النهر؛ الأم غانغا.

تسكنني ذكرى رؤية قدم شاحبة متصلّبة تقحم في النار.

قلت: "لا".

سحبت ساقيّ على المقعد في وضع اللوتس وقلت "أووم"، مرة بعد أخرى. لا أعلم كم من الوقت جلست في ذلك المساء وعيناي مغمضتان وساقاي متصالبتان مثل بوذا، لكن القهقهة وصوت الخربشة جعلاني أفتح عيني. كان السائقون كلهم قد تجمعوا حولي؛ كان أحدهم يخربش على الزجاج بأظافره. ورآني البعض في وضع اللوتس في سيارة مقفلة ففغروا أفواههم وكأنني كنت شيئاً ما في حديقة الحيوانات.

فغيرت وضع اللوتس في الحال. واصطنعت ابتسامة عريضة، خرجت من السيارة، لأتلقى وابلاً من الضربات الخفيفة والصفعات وصرخات الضحك التي تقبلتها راضخاً، بينما أتمتم: "كنت فقط أحاول تجربة تمرين اليوغا الذي دائماً ما يعرضونه على شاشة التلفاز".

كان قن الدجاج يفعل فعله. لا بد للخدم من أن يمنعوا الخدم الآخرين من أن يصبحوا مبدعين أو عمليين أو رجال أعمال.

هذه هي الحقيقة الحزينة، سيدي رئيس الوزراء. فالقن محروس من الداخل.

عليك أن تعذرني سيدي رئيس الوزراء؛ الهاتف يرن. سأعود بعد دقيقة.

* * *

واحسرتاه، لا بد لي من أن أوقف سرد هذه القصة لبعض الوقت. الساعة الآن 1:32 بعد منتصف الليل ليس إلا، ولكن يتحتم علينا التوقف هنا. سيحدث شيء ما، سيدي، شيء طارئ. سأعود، ثق بي.

الصباح السادس

أرجو المعذرة، يا صاحب السعادة، عن هذا الانقطاع الطويل. إنها الساعة 6:20 صباحاً لقد ذهبت لمدة خمس ساعات. لسوء الحظ حدث أمر هدد سمعة شركة للتعاقدات الثانوية أعمل معها.

حادثة خطرة فعلاً، سيدي. فقد رجل حياته في هذه الحادثة. (كلا: لا تُسِيء فهمي. ليس لي علاقة بموته! ولكنني سأوضح ذلك في ما بعد...).

الآن، اسمح لي بدقيقة ريثما أشغّل المروحة، لا أزال أتعرق سيدي. ودعني أجلس على الأرض وأراقب المروحة وهي تقطع الضياء المنبعث من الشرور.

سيتعلق حديثي في بقية اليوم بالقصة المحزنة لتحولي من قروي أحمق بريء وطيب إلى ابن مدينة مليء بالفساد والانغماس في الملذات والشرور.

كل هذه التغييرات حدثت لي لأنها حدثت للسيد آشوك. لقد عاد من أميركا رجلاً بريئاً، لكن الحياة في دلهي هي التي أفسدته، وحين يفسد السيد صاحب سيارة الهوندا سيتي، فكيف يمكن للسائق أن يبقى بريئاً؟

كنت أعتقد، يا سيدي، أنني أعرف السيد آشوك. لكن هذا افتراض يفترضه الخادم.

فقد تغير ما إن غادر شقيقه. راح يرتدي قميصاً أسود مفتوح الصدر، وغيّر عطره.

- "إلى المتجر سيدي؟".

- "نعم".

- "أي متجر سيدي، ذلك الذي اعتادت السيدة الذهاب إليه؟".

لم ينتبه السيد آشوك إلى ما كنت أعنيه. كان يضغط على أزرار هاتفه النقال ثم نخر: "متجر صحارى، بالرام".

- "ذاك الذي كانت السيدة تحب الذهاب إليه سيدي؟".

- "لا تعد الكلام عن السيدة كل حين".

جلست خارج المتجر أتساءل ما الذي يفعله هناك؟ كان ثمة ضوء أحمر يسطع من الطابق الأعلى، وخمنت أن ذلك هو الديسكو. طوابير من الشبان والشابات وقفوا في الخارج بانتظار الصعود إلى حيث الضوء الأحمر. ارتعشت من الخوف وأنا أرى ما تلبسه بنات المدينة.

لم يبقَ السيد آشوك لفترة طويلة هناك، وخرج وحده، فتنفست الصعداء.

- "هل نعود إلى باكنغهام سيدي؟".

- "ليس بعد. خذني إلى فندق شيراتون".

وأنا أقود السيارة في المدينة، انتبهت إلى أن هناك شيئاً ما مختلفاً في دلهي تلك الليلة.

ألم يحدث أبداً أن رأيت نسوة متبرجات يقفن على جوانب الطرقات؟ ألم يحدث أن رأيت كم من الرجال أوقفوا سياراتهم هناك وسط الزحام ليتفاوضوا على التسعيرة مع أولئك النسوة؟

أغمضت عيني؛ وهززت رأسي. ما الذي يحدث لك الليلة؟ في هذا المكان حدث شيء جلا الغموض لي، ولكن تبين أنه أمر محرج لي وللسيد آشوك. أوقفت السيارة عند إشارة المرور؛ وعبرت الشارع فتاة ترتدي قميصاً قصير الكمين ضيّقاً، وكان صدرها المنتفخ يعلو ويهبط مثل ثلاثة كيلوغرامات من الباذنجان في كيس. شخص بصري إليها عبر مرآة الرؤية الخلفية، وكانت عينا السيد آشوك تعلوان وتهبطان شاخصتين كذلك.

فكرت، آه! أمسكت بك أيها الوغد!

والتمعت عيناه، لأنه رأى عينيّ، وكان يفكر في الأمر نفسه: آه!

أمسكت بك أيها الوغد!

لقد أمسكنا ببعضنا بعضاً.

(لم يلاحظ أحد من قبل كيف تكون هذه المرآة التي داخل السيارة، سيد جياباو، محرجة. كيف بين الحين والآخر، عندما يرى السيد والسائق عيونهما في تلك المرآة، تنفتح مثل باب يطل على غرفة لتبديل الثياب، ويرى الاثنان فجأة بأن كل واحد منهما عارٍ!).

كنت خجلاً. وأُنقذت حين تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر، فانطلقت بالسيارة.

أقسَمت ألاّ أنظر عبر المرآة في تلك الليلة. وأدركت الآن لماذا بدت المدينة مختلفة هكذا؛ ولماذا...

داخل تلك السيارة محكمة الإغلاق، أضحى السيد والسائق إلى حدٍّ ما جسداً واحداً في تلك الليلة.

شعرت بالراحة حين أدخلت الهوندا من بوابة فندق موريا شيراتون، وانتهيت من تلك الرحلة الموجعة.

الهند الآن مليئة بالفنادق الفخمة، وكذلك بأنابيب المجاري والشوارع الدوارة التي قد تكون موجودة في بكين، ولكن لا مدينة تجاري ما في دلهي من الأبهة والرفاهية. لدينا الشيراتون والأمبريال وتاج بلاس وتاج مانسنا والأوبروي والإنتركونتيننتال والمزيد المزيد. أعرف الآن الفنادق ذات الخمس نجوم في بنغلور من الداخل والخارج، بعد أن صرفت آلاف الروبيات في أكل كباب الدجاج ولحم الغنم والبقر في مطاعمها والتقطت من بنات الهوى من مختلف الجنسيات، إلا أن فنادق الخمس نجوم في دلهي لا تزال سراً بالنسبة إليّ. ذهبت إليها ولكنني لم أدخل أبداً باب واحدٍ منها. لم يكن يسمح لنا بدخولها؛ وثمة في العادة حارس ضخم عند البوابة الزجاجية الأمامية، رجل ذو شاربين طويلين ولحية طويلة ومعتمراً عمامة سيرك حمراء مثيرة للضحك ويظن

نفسه مهماً لأن السياح الأميركيين يرغبون بالتقاط الصور معه. وإن شاهد سائقاً قرب الفندق سيحملق فيه بغضب وكأنه معلم مدرسة، وسيشير إليه بإصبعه طارداً إياه.

هذا هو قدر السائق. أي خادم آخر يمكن أن يترأس عليه.

ثمة قواعد صارمة لفنادق الخمس نجوم بشأن المكان الذي يوقف فيه السائقون سياراتهم حين يكون سادتهم في الداخل. في بعض الأحيان يضعونك في مرأب في الأسفل، وفي أحيان أخرى في الخلف، وفي أخرى في الأمام، قرب الأشجار. تجلس هناك تنتظر لساعة أو ساعتين أو ثلاث أو أربع ساعات، تتثاءب ولا تفعل شيئاً حتى يتمتم البواب الذي عند الباب، ذلك الذي يعتمر العمامة، منادياً بمكبر الصوت، السائق الفلاني، يسمح لك بالحضور عند الباب الزجاجي بسيارتك. سيدك بانتظارك.

كان السائقون الذين ينتظرون في مرأب الفندق كثراً، يداعبون سلاسل المفاتيح أو يمضغون البان أو يثرثرون بالشائعات، مكونين حلقة لإطلاق غاز الأمونيا. يقرفصون ويثرثرون كالقرود.

كان السائق ذو الشفتين الورديتين جالساً وحده، منشغلاً بمجلته. على غلاف عدد هذا الأسبوع ثمة صورة لامرأة مضطجعة على الفراش، ويقف عشيقها إلى جانبها رافعاً سكيناً فوق رأسها.

جريمة الأسبوع
4.50 روبية
قصة حقيقية كاملة:
كان يرغب بزوجة سيده
حب؛ اغتصاب؛ انتقام

سألني وهو يقلّب صفحات المجلة: "هل فكرت في ما قلته لك يا فأر القرية؟ في شأن جلب شيء يوده سيدك؟ حشيش أو فتيات أو كرات غولف؟ كرات غولف أصلية من القنصلية الأميركية؟".

- "ليس من هذا النوع".

أظهرت الشفتان الورديتان ابتسامة. "هل تريد أن تعرف سراً؟ سيدي يحب ممثلات الأفلام. يأخذهن إلى فندق في جانكبورا".

وذكر لي ثلاثاً من الممثلات الشهيرات اللواتي كن مع سيده.

- "لكنه بالرغم من ذلك يبدو مهذباً ونظيفاً. لا أحد يعرفه إلا أنا، أقول لك، السادة كلهم متشابهون. وستصدقني ذات يوم. الآن تعالَ لتقرأ تفاصيل الجريمة معي".

قرأنا بصمت. وبعد قصة الجريمة الثالثة ذهبت جانباً، نحو أجمة أشجار، لآخذ استراحة أمونيا. وسار معي.

تبولنا على لحاء الشجرة وليس بيننا غير بضع بوصات.

- "لدي سؤال لك".

- "بشأن فتيات المدينة مجدداً؟".

- "كلا. بشأن ما يحدث للسائقين في شيخوختهم".

- "ماذا؟".

- "أعني ما الذي سيحدث لي بعد القليل من السنوات. هل جمعت مالاً يكفي لشراء بيت وبعد ذلك أؤسّس لعمل خاص بي؟".

عاد ليقول: "السائق في حال جيد حتى يصل إلى الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره. ثم يضعف بصره ويطردونه خارجاً، أليس هذا صحيحاً؟ بعد ثلاثين سنة من الآن يا فأر القرية، لو أنك تدخر منذ اليوم، ستجمع ما يكفي لشراء بيت صغير في حي للفقراء. ولو كنت أكثر ذكاء وادخرت مالاً إضافياً جانباً، سيكون لديك ما يكفي لأن تضع ابنك في مدرسة جيدة. يمكنه فيها أن يتعلم الإنكليزية، ويمكنه الدراسة في الجامعة. هذا هو السيناريو في أحسن الأحوال. منزل في حي للفقراء وابن في الجامعة".

- "في أحسن الأحوال؟".

- "من ناحية أخرى يمكن أن تصاب بالتيفوئيد من الماء الملوث. أو يطردك سيدك من دون سبب. أو تتعرض لحادث؛ العديد من السيناريوهات السيئة".

كنت لا أزال أتبول، ولكنه وضع يده على كتفي: "ثمة شيء أريد أن أسألك بشأنه، فأر القرية. هل أنت على ما يرام؟".

نظرت إليه ملتفتاً: "أنا بخير، لماذا تسأل هذا السؤال؟".

- "آسف لأخبرك بهذا، ولكن البقية من السائقين يتحدثون عن ذلك بصراحة. يرونك تجلس منفرداً في سيارة سيدك طوال الوقت، تحدث نفسك... هل تعرف ما الذي تحتاج إليه؟ امرأة. هل رأيت حي الفقراء الذي خلف المتاجر؟ ثمة نساء لا بأس بهن، لطيفات وريانات. البعض منا يذهبون إلى هناك مرة في الأسبوع. يمكنك أنت كذلك الذهاب".

- **«السائق بالرام، أين أنت؟»**.

كان ذلك النداء الصادر من مكبر الصوت عند بوابة الفندق. السيد عمامة يحمل مكبر الصوت ويتكلم بكل ما أوتي من غرور شديد وفارغ: **«السائق بالرام، نداء فوري من البوابة. لا تتأخر. سيدك يريدك»**.

أغلقت زمّام السروال وهرعت، ومسحت يدي الرطبة بسروالي من الخلف.

حين أتيت بالسيارة إلى البوابة كان السيد آشوك يتمشى خارج الفندق يلف ذراعه حول خصر فتاة.

كانت حولاء، ترتدي تنورة صفراء. أجنبية من النيبال. ليست حتى من طائفته أو في منزلته. تشممت المقاعد - المقاعد التي نظفتها - وقفزت عليها.

وضع السيد آشوك يديه على كتفيها العاريتين. وأبعدت نظري عن المرآة.

لا أوافق على الفسق في السيارات، سيد جياباو.

كان يمكنني أن أشم اختلاط عطريهما؛ وكنت أعلم تماماً ما يجري خلفي.

اعتقدت أنه سيطلب مني أن آخذهما إلى الشقة الآن، ولكن لا، استطال الاحتفال واستطال. أراد مني الذهاب إلى بيي في أر ساكت.

بيي في أر ساكت هي مسرح لسينما كبيرة يُعرض فيها عشرة أو اثنا عشر فيلماً في الوقت نفسه، وأجرة الدخول إليها مئة وخمسون روبية لكل فيلم. نعم هذا صحيح، مئة وخمسون روبية! ليس هذا فحسب، فثمة أماكن عديدة لشرب الشراب والتقاط النساء والرقص وما إلى ذلك. شيء من أميركا في الهند.

بعد المتجر المنير الأخير هنالك بيي في أر ثانية. كل سوق كبيرة في دلهي هي سوقان في سوق واحدة، وهنالك دائماً صورة صغيرة كالحة في المرآة للسوق الحقيقية مدسوسة في مكان ما في الأزقة.

هذه هي سوق الخدم. عبرت إلى البيي في أر الثانية، فثمة صف من المطاعم النتنة، ومقاعد وقدور هائلة الحجم يقلى فيها الخبز بالزيت. الناس الذين يعملون في السينما والذين ينظفونها يأتون إلى هنا لتناول الطعام. حتى الشحادون يسكنون هنا.

اشتريت شاياً وبطاطا فادا، وجلست تحت شجرة تين البنغال لآكل.

جاءت امرأة عجوز نحيفة وبائسة ومدت يدها: "أعطني ثلاث روبيات يا أخي".

- "لست واحداً من الأغنياء أيتها الأم؛ اذهبي إلى ذلك الجانب واطلبي منهم".

- "أخي...".

- "هلاّ تركتني آكل؟ اتركيني وحدي!".

فذهبت. جاء رجل يشحذ السكاكين، ووضع مقعده إلى جانب

شجرتي تماماً. كان يحمل سكينين في يده، جلس إلى آلته - كانت ذات دواسة واحدة تدير حجراً للشحذ - وبدأ يشحذ السكين. طفقت الشرارات تئز قريباً جداً مني.

- "أليس لديك مكان آخر تعمل فيه يا أخي؟ ألا ترى أن إنساناً يريد أن يأكل؟".

توقف عن الشحذ، ورمش بعينيه، ثم عاد إلى عمله كأنه لم يسمع كلمة مما قلته له.

فرميت بطاطا فادا عند قدميه:

- "كم أنتم أغبياء أيها الناس؟".

عبرت العجوز الشحادة معي إلى البيي في أر الثانية. رفعت طرف ثوب الساري، وتنفست ثم بدأت لازمتها: "أختي، أعطيني ثلاث روبيات فقط. لم آكل شيئاً منذ الصباح...".

أكوام هائلة من الكتب القديمة تكومت في وسط السوق، مرتبة في مربعات كبيرة فارغة، كما يكون رمز الماندالا في الأعراس ليحتوي النار. جلس رجل صغير الحجم على كومة مجلات في وسط مربع الكتب، كما يفعل الكاهن المسؤول عن هذه الماندالا. جذبتني الكتب كالمغناطيس، ولكن الرجل حالما رآني قال فجأة: "كل الكتب بالإنكليزية".

- "وماذا يعني؟".

فرد وكأنه ينبح: "هل تقرأ بالإنكليزية؟".

فأجبته متسائلاً: "هل تقرأ بالإنكليزية؟".

هكذا. أغضبته. فتغيرت نغمة كلامه معي من خادم لخادم إلى رجل لرجل. توقف ونظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل.

فقال: "لا". وتحول إلى الابتسامة، كأنه عرف قيمتي.

- "إذاً، كيف تبيع الكتب من دون أن تعرف الإنكليزية؟".

فأجاب: "أعرف نوعية الكتاب من غلافه، أعرف أن هذا هو هاري

بوتـر"، وأخـرج الكتـاب ليرينـي إيـاه. "أعـرف أن هذا هو جيمس هادلي تشيس". والتقط الكتاب. "وهذا جبران خليل جبران، وهذا أدولف هتلر، ديزموند باغلي؛ متعة الجنس. وفي إحدى المرات غير الناشرون غلاف هتلر ليبدو مثل هاري بوتر، مما جعل حياتي كالجحيم بعد أسـبوع من ذلك".

- "أريـد أن أقـف حـول الكتـب فحسـب. كان عنـدي مـرة كتاب. عندما كنت يافعاً".

- "لا بأس".

وعليه فقد وقفت وحولي الكتب. إن الوقوف بين الكتب يا صاحب السعادة، حتى الكتب باللغة الأجنبية، يجعلك تشعر بنوع من الكهربائية تسـري فيك. هذا ما يحدث لي، كما لو أنني واقف بين فتيات يرتدين الجينز الضيق.

فليس إلا هنا يبدأ عقلك بالمهمة.

سـبع وأربعون ورقة من فئة المئة روبية في المظروف البني الذي تحت فراشي.

مبلغ رقمه مفرد؛ أليس كذلك؟ ثمة سـر لا بد من حله هنا. لنرَ. ربما أرادت أن تعطيني خمسة آلاف روبية، وبعد ذلك، ولكونها رخيصة، كمـا هـو حـال الأغنيـاء جميعـاً - أتذكر كيـف جعلني النمس أركع على ركبتي من أجل تلك الروبية المعدنية؟ - اقتطعت منها ثلاثمئة.

لا يفكّر الأغنياء هكذا أيها المتخلف. ألم تتعلم بعد؟

لا بـد مـن أنهـا أخرجـت عشـرة آلاف فـي البداية. ثـم فصلتها إلى نصفين وأبقت لنفسـها نصفاً. ثم اقتطعت مئة ثم مئة ثم مئة. هكذا هم رخيصون.

ذلـك يعنـي أنهـم مدينـون لـك فعلاً بعشـرة آلاف روبية. ولكن لو أنها اعتقدت أنها مدينة لك بعشرة آلاف، فما هو المبلغ الحقيقي الذي

تدين لك به، ما هو؟ عشرة أضعاف؟

- «كلا، مئة ضعف».

ألقى الرجل صغير الحجم الجريدة التي كان يقرأها جانباً، والتفت إليّ من داخل رمز الماندالا في الكتب.

قال صائحاً: "ماذا قلت؟".

- "لا شيء".

عاد ليصيح: "ما هو عملك؟".

أمسكت بعجلة افتراضية وأدرتها مئة وثمانين درجة.

- "آه، كان لا بد لي من أن أعرف. السائقون رجال أذكياء، السائقون رجال أذكياء. إنهم يسمعون الكثير من الأشياء الممتعة، صحيح؟".

- "ربما غيري. أما أنا فأكون أطرش في السيارة".

- "بالتأكيد، بالتأكيد. أخبرني، لا بد من أنك تجيد الإنكليزية. مما لا شك فيه أن ما يتكلمون حوله يتناهى إلى سمعك قسراً".

- "قلت لك إنني لا أصغي إليهم، فكيف يتناهى إلى سمعي؟".

- "ما الذي تعنيه هذه الكلمة التي في الصحيفة؟ Pri-va-see".

شرحتها له، فابتسم شاكراً. "كنا قد بدأنا للتو بتعلم الحروف الإنكليزية عندما أخرجتني عائلتي من المدرسة".

ها هو شخص آخر نصف مخبوز من طائفتي.

مرة أخرى عاد ليصيح: "اسمع، هل تريد قراءة البعض من هذه؟"، وناولني مجلة على غلافها صورة امرأة أميركية؛ من ذلك النوع الذي يقتنيه الأولاد الأغنياء. "فيها موضوعات جيدة".

قلّبت صفحات المجلة. كان محقاً، فهي تحتوي على موضوعات جيدة.

- "كم سعر هذه المجلة؟".

- "ستون روبية. هل تصدق ذلك؟ ستون روبية لمجلة مستعملة. وهنالك شخص في سوق الخان يبيع مجلات من إنكلترا ثمنها خمسمئة وثماني روبيات! هل تصدق ذلك؟".

رفعت رأسي إلى السماء وصفرت، ثم قلت بصوت عالٍ وكأنني أكلم نفسي: "أعجب كم لديهم من المال، ومع ذلك يعاملوننا كالحيوانات".

كأنني قلت شيئاً يقلقه، لأنه أخفض ورفع جريدته مرات عدة؛ ثم جاء إلى حافة الماندالا، وأخفى وجهه جزئياً بالجريدة ليهمس بشيء ما.

وضعت يدي خلف أُذني. "قل ذلك مجدداً".

نظر حوله، وقال بصوت أعلى هذه المرة: "لن يبقى الوضع هكذا إلى الأبد بسبب الموقف الحالي".

اقتربت من الماندالا: "لِمَ لا؟".

همس من فوق الكتب: "هل سمعت عن الناكساليين؟ صار لديهم سلاح الآن. لديهم جيش متكامل. إنهم يزدادون قوة كل يوم".

"حقا؟".

- "اقرأ الصحف لتعرف. الصينيون يريدون حرباً أهلية في الهند، هل تفهم؟ وصلت القنابل الصينية إلى بورما وإلى بنغلادش، ثم إلى كلكوتا. وهم يمضون جنوباً حتى أندرا براديش، ويتوجهون إلى (الظلام). حتى يحين الوقت، الهند كلها سوف...".

فتح كفيه.

تحدثنا كذلك لبعض الوقت، ثم انتهت صداقتنا مثلما يجب أن تنتهي صداقات الخدم مع الخدم: عندما يجأر سادتنا في طلبنا. أراد جماعة من الصبيان الأغنياء أن يروا مجلة أميركية خليعة، وجاء السيد

آشوك مترنحاً خارجاً من المشرب، تفوح منه رائحة الشراب ومعه تلك الفتاة النيبالية.

في طريق العودة كانا يتحدثان بصوتٍ عالٍ؛ ثم بدأ التقبيل والغزل. يا الله، إنه رجل لا يزال من الناحية القانونية متزوجاً من امرأة أخرى!

كنت حانقاً حتى إنني تجاوزت أربع إشارات حمراء، وكدت أصطدم بعربة يجرها ثور تسير حاملة علباً من الكيروسين، ولكنهما لم يلاحظا ذلك أبداً.

صاح السيد آشوك وهو يخرج من السيارة يده بيدها: "تصبح على خير، بالرام".

وصاحت هي: "تصبح على خير، بالرام".

أسرعا إلى الشقة، وتبادلا الضغط على الأزرار التي تطلب المصعد.

حين دخلت غرفتي، بحثت تحت الفراش. لا يزال هناك، رداء المهراجا الذي أعطاني إياه، والعمامة والنظارة داكنة اللون أيضاً.

قدت السيارة خارج المبنى، ولبست ثياب المهراجا، ووضعت النظارة الداكنة. لم تكن لدي أي فكرة عن وجهتي؛ كنت أقود السيارة فقط حول المتاجر. كلما مررت بفتاة جميلة أطلق لها ولصديقاتها بوق السيارة.

شغلت الموسيقى، ومكيف الهواء بأقصى طاقته.

بعد ذلك عدت إلى المبنى، أخذت السيارة إلى المرأب، طويت النظارة في جيبي، وخلعت الرداء.

بصقت على مقاعد الهوندا سيتي ونظفتها.

* * *

في الصباح التالي، لم ينزل من الشقة ولم يناديني إلى غرفته. دخلت المصعد ووقفت عند الباب. كنت أشعر بالذنب عما فعلته الليلة الماضية.

كنت أتساءل إن كان عليّ أن أعترف بكل شيء. مددت يدي إلى الجرس مرات عديدة، ثم أتنهد وأمتنع عن رنه.

بعد قليل، سمعت ضوضاء منخفضة من الداخل. وضعت أذني على خشب الباب وأصغيت.

- "لكنني تغيرت".

- "لا تعتذر كل حين".

- "لقد استمتعت الليلة الماضية أكثر مما فعلت خلال زواج أربع سنوات".

- "حين سافرت إلى نيويورك، ظننت أنني لن أراك مجدداً. وها أنا أراك. هذا هو المهم بالنسبة إليّ".

ابتعدت عن الباب، وضربت جبهتي. تفاقم شعوري بالذنب خلال دقيقة. كانت حبيبته القديمة، أيها الأحمق، وليست عاهرة.

ما كان أبداً لينحدر إلى مستوى العاهرة. كنت أعرف دائماً أنه رجل صالح: إنه نوع من الناس أعلى مني مقاماً.

قرصت كفي اليسرى عقاباً.

عدت لأضع أذني على الباب.

بدأ الهاتف يرن من الداخل. ران صمت لبعض الوقت، بعدها قال: "هذا بدلز وذاك كدلز. هل تتذكرينهما؟ دائماً ما ينبحان في طلبي. هاك الهاتف، اسمعي...".

سمعت صوتها بعد دقائق: "هل هناك أخبار سيئة، تبدو منزعجاً".

- "لا بد لي من مقابلة وزير في مجلس الوزراء. أكره عمل هذه الأشياء. كلهم قذرون. العمل الذي أعمل فيه... عمل قذر. تمنيت أن أقوم بشيء آخر نظيف، كالمقاولات الثانوية. أتمنى ذلك دائماً".

- "إذاً، لماذا لا تقوم بشيء آخر؟ الأمر نفسه حين مُنِعت من

الزواج بي. فلم تستطع أن تقول لا حينذاك".

- "الأمر ليس بهذه البساطة أوما. إنهما أبي وأخي".

- "أتساءل إن كنت قد تغيرت فعلاً آشوك. من أول مكالمة من دانباد عدت إلى ذاتك الأولى".

- "دعينا لا نتشاجر مجدداً. ستعودين بالسيارة الآن".

- "آه كلا، لن أعود مع سائقك. أعرف من هم على شاكلته من القرويين. إنهم يعتقدون أن أي امرأة غير متزوجة عاهرة. ربما ظن أنني نيبالية، بسبب عيني. أنت تعرف ما يعنيه ذلك بالنسبة إليه. سأعود وحدي".

- "هذا الشخص لا بأس به. إنه جزء من عائلتي".

- "لا تكن واثقاً منه إلى هذه الدرجة آشوك. سائقو دلهي فاسدون كلهم. إنهم يبيعون المخدرات وقوادون، والله وحده يعلم ما هو أكثر من ذلك".

- "ليس هذا الشخص. إنه بليد، ولكنه شريف. سيعيدك بالسيارة".

- "كلا آشوك. سأستقل سيارة أجرة. سأتصل بك في المساء".

أدركت حينذاك أنها تتجه نحو الباب، لذلك استدرت، وأسرعت مبتعداً بصمت.

لم أسمع منه كلمة حتى المساء. عندها نزل من أجل السيارة. جعلني أدور من مصرف إلى آخر. وفيما أنا جالس وراء المقود، كنت أشاهده بطرف عيني؛ كان يجمع المال من الآلات النقدية؛ أربع آلات مختلفة. ثم قال: "اتجه إلى المدينة، بالرام. أنت تعرف البيت الكبير الذي في شارع أشوكا، حيث ذهبنا مع السيد موكيش مرة".

- "نعم سيدي. أتذكر. لديهم هناك كلبان ألزاسيان كبيران يحرسان".

رأيت عبر المرآة المتجسسة أن السيد آشوك يضغط على أزرار هاتفه المحمول بينما كنت أسوق. ربما كان يخبر خادم الوزير بقدومه مع النقود. في النهاية، أدركت أي عمل كان سيدي يقوم به حين كنا نسير في دلهي".

- "سأعود بعد عشرين دقيقة، بالرام". قال لي السيد آشوك ذلك قبل أن يدخل إلى بيت الوزير ذي الطابق الواحد. خرج حاملاً الحقيبة الحمراء وأغلق الباب.

كان هنالك حارس أمن بيده بندقية جالساً في كابينة حديدية منتصبة على الجدار الأحمر لمنزل الوزير ويراقبني بحذر. في غضون ذلك كان الكلبان الألزاسيان يحومان حول المنزل وينبحان بين الحين والآخر.

حل وقت الغروب. بدأت طيور المدينة تحوم حومتها الأخيرة قبل أن تحط. دلهي اليوم مدينة كبيرة، سيدي رئيس الوزراء، ولكن فيها أماكن برية - كالحدائق الكبيرة والغابات المحمية والأراضي البور الممتدة - ومن الممكن أن تهجم من هذه الأماكن البرية أشياء مفاجئة. بينما كنت أراقب الجدار الأحمر لمنزل الوزير رأيت طاووساً يطير فوق كابينة الحارس وحط هناك؛ وفي لحظة رأيت رقبته الزرقاء الداكنة وذيله الطويل يتحولان إلى اللون الذهبي في ضوء الشمس الغاربة. ثم تلاشى.

بعد ذلك بقليل حل الليل.

بدأ الكلبان ينبحان. فُتح الباب. خرج السيد آشوك من البوابة ومعه رجل بدين؛ هو الرجل نفسه الذي خرج في ذلك اليوم من منزل الرئيس. خمنت أنه مساعد الوزير. توقفا يتحدثان أمام السيارة.

صافح الرجل البدين السيد آشوك، الذي من الواضح أنه كان يتوق إلى مغادرته، ولكن آه، ليس من السهل أن تسلم من السياسي، أو حتى

من مساعده. خرجت من السيارة متظاهراً التأكد من العجلات، واقتربت بحيث يمكنني السماع.

- "لا تقلق آشوك. سأعمل بالتأكيد على أن أجعل الوزير يتصل بوالدك غداً".

- "أشكرك. تقدر عائلتي مساعدتك".

- "ما الذي ستفعله بعد هذا؟".

- "لا شيء، سوى أن أعود إلى البيت في غوركون".

- "شاب مثلك يعود إلى البيت مبكراً هكذا؟ دعنا نمرح قليلاً".

- "ألا يتوجب عليك العمل على الانتخابات؟".

- "الانتخابات؟ لقد سويت كلها. إنها انتصار غامر. قال ذلك الوزير صباح اليوم. الانتخابات يا صديقي يمكن أن ترتب في الهند. ليس كما هو الحال في أميركا".

متغاضياً عن اعتراضات آشوك، أقحم البدين نفسه في السيارة. وما إن سرنا في طريقنا حتى قال: "دعنا نشرب الشراب الاسكتلندي آشوك".

- "هنا في السيارة؟ ليس لدي أي شراب".

بدا الاستغراب على البدين. "هنا في دلهي الجميع لديهم شراب اسكتلندي في السيارة، يا آشوك، ألم تعلم ذلك؟".

أمرني أن أعود إلى منزل الوزير. ذهب إلى الداخل وعاد بكأسين وزجاجة. صفق الباب وتنفس بشدة وقال: "الآن أمست السيارة كاملة التجهيز".

أخذ السيد آشوك الزجاجة وتهيأ ليملأ كأس البدين الذي زم شفتيه منزعجاً.

- "لست أنت أيها الأحمق، بل السائق. هو من يسكب الشراب".

التفتُّ في الحال وحولت نفسي إلى عامل مشرب.

قال البدين: "هذا السائق موهوب. البعض منهم يحدثون الفوضى عند سكب الشراب".

- "قد لا تعلم أن طائفته تحرّم الشراب كلياً".

أغلقت غطاء الزجاجة، وتركتها إلى جانب ناقل الحركة. وسمعت رنين الكأسين خلفي وصوتين يقولان: "بصحتك!".

قال مساعد الوزير: "هيا لننطلق، لنذهب إلى شيراتون. هنالك مطعم ممتاز في الطابق السفلي آشوك. مكان هادئ. سنستمتع هناك".

شغلت محرك السيارة، وقدت البيضة الداكنة الهوندا سيتي إلى شوارع نيودلهي.

- "سيارة الرجل هي قصره. لا أصدق أنك لا تفعل ذلك".

- "حسناً، أنت لم تكن تستطيع فعل ذلك أبداً في أميركا".

- "هذه هي الفائدة في كونك في دلهي يا فتى!" ولطم البدين فخذ السيد آشوك.

رشف من كأسه وقال: "ما هو وضعك آشوك؟".

- "تجارة الفحم هذه الأيام. يعتقد الناس أنه ليس هناك ما هو أكثر ازدهاراً من التكنولوجيا. أما الفحم؛ فلا تلتفت إليه مصادر الإعلام، أليس كذلك؟ يستهلك الصينيون الفحم كالمجانين، ويرتفع سعره في كل مكان. أصحاب الملايين يتكاثرون في اليسار واليمين والوسط".

فرد البدين: "بالتأكيد، بالتأكيد. تأثير الصين". وارتشف ما في كأسه. "ولكن ليس هذا ما نعنيه بكلمة (وضعك) في دلهي، يا فتاي العزيز!".

ابتسم مساعد الوزير. "إنني أسألك بالأساس عمن يخدمك هناك؟ أشار إلى جزء من جسد السيد آشوك الذي ليس لي أن أشير إليه.

- "أنا منفصل. وعلى وشك الطلاق".

قال البدين: "آسف لسماع ذلك. الزواج مؤسسة طيبة. كل شيء يتداعى في هذا البلد: العائلات، الزواج؛ كل شيء".

ارتشف مزيداً من الشراب الاسكتلندي وقال: "أخبرني آشوك، هل تعتقد أن حرباً أهلية ستنشب في هذا البلد؟".

- "لماذا تقول ذلك؟".

- "قبل أربع سنوات، كنت في محكمة في غازي أباد. أصدر القاضي حكماً لم يعجب المحامين، ورفضوا حكمه بكل بساطة. أصابهم الجنون؛ فسحبوا القاضي من مكانه وأوسعوه ضرباً في محكمته. ولم ينشر أي خبر عن ذلك في الصحف. لكنني رأيته بعيني. إن أصبح الناس يضربون القضاة في المحاكم؛ فما هو مستقبل بلادنا؟".

لمس رقبتي شيء مثلج. كان الرجل البدين يمسني بكأسه.

- "المزيد من الشراب أيها السائق".

- "حاضر سيدي".

هل رأيت، يا صاحب السعادة، مثل هذه الخدعة من قبل؟ رجل يمسك مقود السيارة بيد ويلتقط بالأخرى زجاجة شراب اسكتلندي، يرفعها إلى ما فوق مستوى كتفه، ثم يسكب منها في كأس، حتى والسيارة تتحرك ومن دون أن يبذر قطرة! هذه المهارات تتطلب سائقاً هندياً! فليس عليه أن يكون مرناً جداً، ولا يرى في الليل ولا يكون له صبر فائق الحدود فحسب، بل عليه أيضاً أن يكون عامل مشرب محترفاً!

- "هل تريد المزيد سيدي؟".

ألقيت نظرة إلى مساعد الوزير، إلى الطيات السمينة الفاسدة من اللحم تحت ذقنه، ثم نظرت إلى الطريق كي أتيقن أنني لا أصدم شيئاً.

- "اسكب المزيد لسيدك الآن".

- "كلا، لا أشرب كثيراً. أنا بحال جيد".

- "لا تكن سخيفاً آشوك. أنا أصر؛ اسكب أيها الفتى شراباً في كأس سيدك".

لذلك تطلب الأمر مني أن أقوم بالفعل المدهش مع زجاجة الشراب الاسكتلندي مجدداً.

هدأ البدين بعد الكأس الثانية. ثم مسح شفتيه.

- "لا بد من أنك نلت الكثير من النساء في أميركا؟ أعني النساء المحليات".

- "كلا".

- "كلا؟ ماذا يعني ذلك؟".

- "كنت مخلصاً لبنكي - زوجتي - طوال الوقت".

- "كنت مخلصاً؟! أي فكرة هذه؟ زواج مخلص. إذاً، فلا عجب أن ينتهي بالطلاق. ألم تنل فتاة بيضاء أبداً؟".

- "قلت لك".

- "لماذا دائماً يذهب الهندي الخطأ إلى الخارج؟ اسمع هل تريد واحدة الآن؟ فتاة أوروبية؟".

- "الآن؟".

فقال: "الآن، أنثى من روسيا. تشبه تماماً تلك الممثلة الأميركية"، وذكر اسمها. "هل تود الذهاب إليها؟".

- "عاهرة؟".

ابتسم البدين. "صديقة. صديقة فاتنة. هل تريد أن تفعلها؟".

- "كلا، أنا ألتقي بفتاة أخرى. التقيت للتو بفتاة كنت أعرفها منذ زمن بعيد".

أخرج البدين هاتفه المحمول، وضغط على بعض الأرقام. أحدث ضوء الهاتف هالة زرقاء على وجهه.

- "إنها موجودة الآن. دعنا نذهب لرؤيتها. إنها مدهشة، أقول لك. تشبه الممثلة الأميركية. هل تحمل معك ثلاثة آلاف؟".

- "كلا، اسمع. أنا ألتقي بواحدة. لست...".

- "لا تهتم. سأدفع عنك أنا الآن. ويمكنك أن تدفع أنت لاحقاً. ضعها فحسب في المظروف الذي ستسلمه إلى الوزير". ووضع يده على يد السيد آشوك، وغمز ثم مال إلى الأمام ليدلني على الطريق. نظرت إلى السيد آشوك عبر المرآة بكل حدة.

عاهرة؟ هذه لأناس مثلي سيدي. هل أنت متأكد أنك تريد ذلك؟

كنت أرغب في أن أقول له ذلك بصراحة، ولكن من أنا؟ لست إلا سائقاً.

تلقيت الإرشادات من البدين. ولم يقل السيد آشوك شيئاً؛ بل جلس يرتشف من كأس الشراب مثل صبي يشرب الصودا. ربما اعتقد أنها كانت مجرد مزحة، أو ربما كان خائفاً من ذلك الرجل البدين ولذلك لم يستطع الرفض.

لكنني سأستمر في الدفاع عن شرفه حتى الموت. لقد أفسدوه هم.

جعلني البدين أسوق السيارة نحو منطقة كريتر كايلاش والتي هي مستعمرة راقية أخرى يقطنها أناس معينون في دلهي. ومن خلال لمس رقبتي بكأسه الباردة دلني إلى المكان. كان بحجم قصر صغير، في واجهته الأمامية أعمدة بيضاء من الرخام. ومن خلال حجم النفايات خارج سور المنزل تستدل على أن من يسكنون هنا هم من الأغنياء.

فتح البدين باب السيارة بينما كان يتحدث عبر الهاتف. بعد خمس دقائق أغلق الباب. رحت أعطس بسبب الرائحة النفاذة التي ملأت المقعد

الخلفي للسيارة.

- "كفّ عن ذلك العطاس وخذنا إلى جانكبورا يا بني".

- "عفواً سيدي".

ابتسم البدين. ثم التفت إلى الفتاة التي دخلت السيارة وقال: "تكلمي إلى صديقي بالهندية رجاء".

نظرت عبر المرآة ولمحت الفتاة.

كان ذلك صحيحاً، إنها تشبه تماماً ممثلة رأيتها هنا أو هناك. لكنني نسيت اسمها. ولم أعرف ذلك إلا بعد أن جئت إلى بنغلور وتمكنت من استعمال الإنترنت - في جلستين سريعتين، انتبه! - ورأيت صورتها وعرفت اسمها من الغوغل.

كيم باسنجر.

كان ذلك هو الاسم الذي ذكره البدين. وفعلاً، كانت الفتاة التي دخلت مع البدين تشبه كيم باسنجر بالضبط. كانت طويلة القامة وجميلة، ولكن شعرها أكثر ما برز فيها - ذهبي ولامع - كما نرى ذلك في الإعلانات تماماً!

- "كيف حالك آشوك؟" قالت ذلك بلغة هندية دقيقة. ومدت يدها لتصافح السيد آشوك.

ضحك البدين بصوت خافت: "لقد تطورت الهند، أليس كذلك؟ إنها تتكلم الهندية".

وربت على فخذها: "لقد تحسنت لغتك الهندية يا عزيزتي".

مال السيد آشوك إلى الخلف ليكلم البدين من فوق كتفي الفتاة: "هل هي روسية؟".

- "اسألها، لا تسألني آشوك. لا تخجل. إنها صديقة".

قالت بلكنتها الهندية: "أنا أوكرانية. أنا طالبة أوكرانية في الهند".

فكـرت: لا بـد لـي يومـاً مـا مـن أن أتذكـر هذا المـكان، أوكرانيا. وسأذهب إليه في أحد الأيام.

قال الرجل البدين: "هيا آشوك المس شعرها، إنه حقيقي. لا تخشَ شـيئاً، إنها صديقة". وقهقه بخفوت. "انظر، إنه لا يؤذي، أليس كذلك آشـوك؟ قولي شـيئاً للسـيد آشـوك بالهندية عزيزتي. إنه لا يزال خائفاً منك".

قالت: "أنت وسيم. لا تخف مني".

مال البدين إلى الأمام، ولمسـني بكأسـه الباردة مجدداً: "هل نحن قريبون من جانكبورا؟".

- "نعم سيدي".

- "عندما تهبط إلى شـارع المسـجد سـترى فندقاً فيه أضواء على شكل T. خذنا إلى هناك".

أوصلتهم إلى هناك بغضون عشـر دقائق، فلا يمكنك أن تتوه عن مكان الفندق، فالعلامة الكبيرة T تتوهج مثل مصباح في الظلام.

صعد البدين الدرجات إلى قاعة استقبال الفندق ومعه الفتاة ذات الشـعر الذهبي، هناك حياه مدير الفندق بحرارة. كان السـيد آشـوك يسـير خلفهما متلفتاً كأنه فتى مذنب يوشك الإقدام على فعل مشين.

مضـت نصـف سـاعة وأنـا فـي الخـارج، يداي علـى المقود طوال الوقت. قرصت الغول الصغير. ورحت أتثاءب خلف المقود.

بقيت أتمنى أن يأتي راكضاً، متهالك الذراعين صارخاً، بالرام، كنت على وشك أن أقترف خطأً! أنقذني، دعنا نبتعد في الحال!

بعـد سـاعة خـرج السـيد آشـوك وحـده مـن الفنـدق باديـاً عليـه الإرهاق.

قـال وهـو يريـح رأسـه على مسـند المقعد الخلفـي: "انتهى اللقاء، بالرام. دعنا نذهب إلى البيت".

لم أدِر محرك السيارة للحظة. أبقيت إصبعي على المفتاح.

- "قلت لك هيا بنا إلى البيت، بالرام".

- "نعم سيدي".

عندما عدنا إلى غوركون، نزل مترنحاً نحو المصعد. لم أترك السيارة. أمضيت خمس دقائق ثم عدت بالسيارة إلى جانكبورا، مباشرة إلى الفندق حيث علامة T عليه.

أوقفت السيارة في زاوية، ورحت أراقب باب الفندق. كنت أريدها أن تخرج.

مر بجانبي ساحب عربة، رجل نحيل وغير حليق، كان يبدو عليه الإرهاق واضحاً حين مسح وجهه ورجليه بخرقة وذهب لينام على الأرض. كان على مقعد عربته ملصق إعلاني أبيض كتب عليه:

هل زيادة الوزن تسبب لك مشكلة؟

اتصل بجيمي سنغ في قاعة مترو GYM: 9811799289

جالب الحظ للقاعة عبارة عن صورة لأميركي له عضلات منتفخة؛ يبتسم لي من فوق الشعار، كان شخير ساحب العربة قد ملأ الهواء.

لا بد من أن أحداً من الفندق قد رآني. فُتح الباب بعد قليل: وخرج رجل شرطة، حدق إليّ، ثم راح يقترب مني.

فأدرت المحرك؛ وأخذت السيارة عائداً إلى غوركون.

الآن، وأنا أسوق سيارتي في بنغلور في الليل أيضاً، أشعر أنه لم يحدث لي أبداً مثل ذلك الشعور الذي أحسست به وأنا في دلهي. وهو الشعور الذي كان يخالجني حين يحترق شيء في داخلي بينما أسوق السيارة، حينها كانت المدينة تحترق بالشيء نفسه.

كان قلبي منقبضاً تلك الليلة. وعرفت المدينة ما بي. كانت تنقبض عبر الوهج البرتقالي الذي ينتشر في كل مكان من أضواء الشارع.

قلت لدلهي، حدثيني عن الحرب الأهلية.

فقالت، أجل.

كان ثمة آنية زهر منقلبة في جزيرة المرور التي في وسط الشارع وإلى جانبها يجلس ثلاثة رجال فاغري الأفواه. يحدثهم رجل عجوز ذو لحية وعمامة بيضاوين رافعاً سبابته. تمر به السيارات بأضوائها العالية بينما تغرق كلماته في ضجيجها. سيغدون جنرالاته الثلاثة. وآنية الزهر المقلوبة هي رمز من نوع ما.

قلت لدلهي، حدثيني عن الدم في الشوارع.

قالت، سأفعل.

رأيت رجالاً آخرين يتناقشون ويتحدثون ويقرأون في الليل، فرادى أو جماعات تحت أضواء الشارع. رأيت تحت أضواء دلهي الشاحبة المئات من الناس في الليل، تحت الأشجار، وفي المعابد وعند التقاطعات وعلى الدِّكاك يحملقون في الصحف وفي الكتب الدينية وفي كتيبات الحزب الشيوعي. ما الذي كانوا يقرأونه؟ عما كانوا يتحدثون؟

ولكن ماذا بعد؟

عن نهاية العالم.

سألت المدينة، وإن كان هناك دم على هذه الشوارع، فهل ستعدين أنه أول من سينزف؛ ذلك الرجل ذو الطيات اللحمية تحت ذقنه؟

كان ثمة شحاد يجلس إلى جانب الطريق، شبه عار مغطى بالأوساخ، وله شعر أشعث طويل بضفائر كأنها الأفاعي، نظر إلى عيني:

وعد.

غُرست شظايا من الزجاج الملون في الجدار المحيط بأبراج باكنغهام للحماية من اللصوص. وعندما تصطدم بها الأضواء العالية تعكسها بتوهج ويتحول الجدار إلى وحش ملون مطرز بالزجاج.

حدّق إليّ البواب حين أدخلت السيارة. رأيت عملات نقدية تشع في عينيه.

كانـت هـذه هـي المـرة الثانيـة التـي يرانـي فيهـا أخـرج وأعـود لوحدي.

في المرأب، خرجت من السيارة، وأغلقت الباب بعناية. ثم فتحت بـاب الراكـب، ودخلـت، ومـررت يـدي على جلد المقعـد. مررت يدي علـى جلـد المقاعـد مـن جانـب إلـى آخر ثلاث مـرات، حتى وجدت ما كنت أبحث عنه.

رفعته إزاء الضوء.

خصلة من الشعر الأشقر!

وها أنا أحتفظ بها في مكتبي حتى اليوم.

الليلة السادسة

أحلام الأغنياء والفقراء لا تتقاطع أبداً، أليس كذلك؟

فلـو تنظـر إلـى أحـلام الفقـراء تجـد أنهـم لا يريـدون أكثـر من أن يحصلـوا علـى مـا يكفيهـم من الطعام وليتشـبهوا بالأغنيـاء. فبماذا يحلم الأغنياء؟

فقدان الوزن وأن يبدوا كالفقراء.

في كل مسـاء، يمسـي المجمع السـكني الذي حول أبراج باكنغهام ساحة تمارين رياضية. رجال بدناء ذوو كروش وسيدات مترهلات ذوات بطون كبيرة، تنزل حبات العرق من أذرعهم جميعاً وهم يمارسون رياضة المشي المسائية.

انظـر، مـن خـلال كل هـذه الحفـلات الليلية المتأخـرة، وكل ذلك الشـراب والطحن، يكتسـب الأغنياء السـمنة في دلهي. ولذلك يمشـون ليفقدوا الوزن.

السؤال هو، أين حري بالإنسان أن يمشي؟ خارج البيت؛ إلى جانب النهر، في متنزه، أو حول غابة؟

على أي حال، وهم يعرضون عبقريتهم المعتادة لتخطيط المدينة، بنى أغنياء دلهي حي غوركون هذا من دون متنزهات ولا مناطق خضراء ولا سـاحات للعب؛ ليس هناك إلا البنايات والمتاجر الكبيرة والفنادق والمزيد من البنايات. هنالك رصيف للمشي ولكنه كان محجوزاً للفقراء كي يعيشوا عليه. لذلك إن كنت تريد أن تقوم برياضة المشي فلا بد من أن يكون ذلك حول المجمع الكونكريتي لبنايتك.

بينما كان الأغنياء البدناء يمشون حول مجمع الشقق، كانوا يجعلون خدمهم النحيلين - أغلبهم من السـائقين - يقفون في أماكن معينة في تلك الدائرة حاملين قناني المياه المعدنية والمناشف. في كل مرة يكملون

فيها دورة حول البناية، كانوا يقفون عند خدمهم يتلقفون المياه المعدنية؛ يشربون، ويتناولون المنشفة، يمسحون ويمسحون، ثم ينطلقون في الدورة التالية.

كان ذو الشفتين الورديتين واقفاً عند زاوية المجمع السكني حاملاً قنينة المياه ومنشفة سيده. وكان يلتفت نحوي كل بضع دقائق غامزاً بعينيه؛ وكان سيده، الرجل الفولاذي، الذي كان أصلع قبل أسبوعين، يتباهى الآن برأس ذي شعر أسود كثيف؛ بعد أن أجهد نفسه في السفر إلى إنكلترا فقط من أجل أن يضع شعراً مستعاراً غالي الثمن. كان هذا الشعر المستعار موضوع نقاش رئيسيّ في حلقة القرود هذه الأيام، وقد عرض باقي السائقين عشر روبيات لذي الشفتين الورديتين ليقوم ببعض الألاعيب كالوقوف المفاجئ، أو يسير بالسيارة بأقصى سرعتها فوق بعض المطبات ليطيح بالشعر المستعار ولو لمرة واحدة.

كانت أسرار السادة تُتَدَاوَل، وتُكشَف في كل مساء في حلقة القرود؛ بالرغم من أن أي أحد منهم لو جعل الطلاق موضوع النقاش، فهو يعرف أن عليه التعامل معي. لكنني لم أسمح لهم باختراق خصوصية السيد آشوك.

كنت واقفاً على بعد بضع أقدام من ذي الشفتين الورديتين، حاملاً قنينة المياه المعدنية لسيدي بيدي وواضعاً منشفته على كتفي.

كانت دورة السيد آشوك على وشك أن تنتهي؛ وأكاد أشم رائحة العرق منه. كانت تلك هي دورته الثالثة. أخذ قنينة المياه مني وشرب منها، ثم مسح وجهه بالمنشفة وأعاد وضعها على كتفي.

- "لقد أنهيت، بالرام. اجلب قنينة المياه والمنشفة معك".

قلت له: "حسناً سيدي". وشاهدته يدخل البناية. كان يمشي مرة أو مرتين في الأسبوع، ولكن من الواضح أنها لم تكن كافية للتغلب على انغماسه في الملذات كل ليلة؛ رأيت له كرشاً كبيرة رطبة تدفع قميصه

قصير الكمين. كم هو مثير للاشمئزاز هذه الأيام.

أشـرت إلـى ذي الشـفتين الورديتيـن قبـل أن أذهـب إلـى مـرأب السيارة.

بعد عشـر دقائق، شـممت رائحة عرق الرجل الفولاذي، وسـمعت وقع خطواته. كان ذو الشفتين الورديتين قد نزل. دعوته إلى سيارة الهوندا سيتـي؛ المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان تماماً.

- "ما الأمر يا فأر القرية؟ هل تريد مجلة أخرى؟".

- "ليس ذلك، بل شيئاً آخر".

جثـوت علـى ركبتـي؛ وملت إلى جانب إحدى العجلات. حككت أحد أخاديد العجلة بإصبعي. وجثا هو الآخر.

أريته خصلة الشـعر الذهبية التي أبقيتها مشـدودة حول رسـغي مثل السـوار. قرب رسـغي إلى أنفه، وفرك الخصلة بين أصابعه، شـمها، ثم أطلق رسغي.

قال غامزاً: "لا يهم. قلت لك إن سيدك سيشعر بالعزلة".

فطوقت عنقه: "لا تتحدث عنه!"، فدفعني عنه.

- "هل أنت مجنون؟ كدت تخنقني!".

عدت، وحككت أخاديد العجلة. "كم سيكلف ذلك؟".

- "من الطبقة الراقية أو المتدنية؟ عذراء أو ليست عذراء؟ تعتمد الكلفة على كل ذلك".

- "لا يهمني. لا أكثر من أن يكون لها شعر ذهبي، كما في إعلانات الشامبو".

- "أرخص شيء عشرة إلى اثني عشر ألفاً".

- "ذلك كثير جداً. لن يدفع أكثر من أربعة آلاف وسبعمئة".

- "ستة آلاف وخمسمئة يا فأر القرية. هذا أقل ما يمكن".

- "حسناً".

- "متى يريد ذلك، يا فأر القرية؟".

- "قلت لك في أقرب وقت. وهنالك أمر آخر؛ أريد شيئاً آخر".

وضعت وجهي على العجلة، وتنشّقت رائحة المطاط، لأستمد القوة.

- "كم من طريقة للسائق لخداع سيده؟".

* * *

سيد جياباو، أنا واعٍ تماماً للميزة العامة لتلك الكتب عن الأعمال الحرة المغلفة بالسلوفان في ما يتعلق بالأمور الثانوية الصغيرة. في هذه المرحلة من القصة، وكي أريحك من الضجر، بودي أن أدخل قصتي الثانوية في السرد العام لنمو الأعمال الحرة الحديثة وتطورها.

* * *

كيف يكسب السائق الذي يقوم بالعمل الحر مالاً إضافياً؟

1. عندما لا يكون سيده موجوداً، يمكنه سحب البنزين من السيارة بقمع. ثم يقوم ببيعه.

2. عندما يطلب منه سيده تصليح السيارة، يمكنه أن يذهب إلى فني سيارات فاسد؛ يقوم الفني بتضخيم سعر التصليح، وسيحصل السائق على نسبة. هذه لائحة ببعض الفنيين المتعاونين مع السائقين ممن لديهم أعمال حرة:

   الفنيون المحظوظون، في لادو سيراي، قرب قطب.

   مصلحو أر. في. في كريتر كايلاش الجانب الثاني.

   فنيّو نيلوفار، في دي أل أف الطابق الأول، في غوركون.

3. عليه أن يدرس عادات سيده، ثم يسأل نفسه: "هل يهتم سيدي؟ وإن كان الأمر هكذا، فما هي الطرائق التي يمكنني الاستفادة منها في

عدم اهتمامه؟"، مثال على ذلك، لو ترك سيده زجاجات الشراب الإنكليزي الفارغة في السيارة، فيمكنه بيعها للمهربين.

4. وما إن يحصل على التجربة والثقة ويكون مستعداً لأعمال محفوفة بالمخاطر، يمكنه أن يحول سيارة سيده إلى سيارة أجرة. وامتداد الشارع من غوركون إلى دلهي مناسب جداً لذلك؛ فالكثير من العشاق يأتون لمقابلة عشيقاتهم اللواتي يعملن في مراكز الاتصال. فما إن يتأكد السائق ذو العمل الحر أن سيده لن يلاحظ غياب السيارة، وأن لا أحد من أصدقائه من المحتمل أن يكون على الطريق في ذلك الوقت، يمكنه أن يمضي وقته الفائض في التجول ملتقطاً الركاب الذين يدفعون له الأجرة.

* * *

أضطجع في الليل تحت ناموسيتي والمصباح مضاء في غرفتي، أراقب الصراصير داكنة اللون وهي تزحف على الناموسية، ترتجف قرونها الاستشعارية وترتعش، وكأنها نهايات أعصابي: وأضطجع على فراشي مستثاراً وغير قادر حتى على مدّ يدي وسحقها. طار أحدها وحط فوق رأسي بالضبط ليئز.

كان عليك أن تطلب منهم مالأحين جعلوك توقع ذلك الشيء. مالاً يكفي للنوم مع عشرين فتاة بيضاء البشرة. وطار. جاء آخر وحطّ على البقعة نفسها.

عشرون؟

مئة، مئتان، ثلاثمئة، ألف، عشرة آلاف عاهرة شقراء الشعر. وحتى ذاك غير كافٍ. لم يبدُ ذلك كافياً.

في الأسبوعين التاليين فعلت أشياء أخجل من ذكرها. لقد خدعت سيدي. سحبت بنزين سيارته، وأخذت سيارته إلى فنّي سيارات فاسد حضّر له لائحة بأشياء لم تكن ضرورية، بينما نقلت ركاباً، وأخذت

الأجرة منهم ثلاث مرات وأنا عائد إلى باكنغهام.

أغرب شيء أنني كنت كلما أنظر إلى المال الذي أحصل عليه من خداعه، ماذا تتوقع أن يكون شعوري بدلاً من الشعور بالذنب؟

الغضب.

كلما سرقت منه، أدركت كم سرق مني.

بالعودة إلى التشابه الذي استعملته في وصف السياسة الهندية لك من قبل، صار لي كرش في النهاية.

ثم في عصر يوم أحد، عندما قال لي السيد آشوك إنه لا يحتاج إليّ في ذلك اليوم، تناولت كأسين كبيرتين من الشراب الاسكتلندي كي أتشجع، ثم ذهبت إلى غرف نوم الخدم. كان ذو الشفتين الورديتين جالساً تحت صورة لممثلة سينمائية؛ في كل مرة يذهب فيها سيده مع ممثلة، كان يضع صورتها على الحائط؛ ويلعب الورق مع السائقين الآخرين.

- "حسناً، يمكنك أن تقول ما تشاء، لكنني أعلم أن هؤلاء المهرجين لن يفوزوا في إعادة الانتخابات".

رفع نظره ورآني.

- "حسناً، انظروا من هنا. إنه معلم اليوغا جاء ليزورنا متفضلاً في زيارة نادرة. مرحباً، شرّفتنا سيدي".

كشفوا لي عن أسنانهم. وكشفت لهم بدوري عن أسناني.

- "كنا نناقش موضوع الانتخابات يا فأر القرية. أنت تعلم أنها هنا لا تشبه التي في (الظلام). فلا يتم التلاعب بها. هل ستنتخب هذه المرة؟".

دعوته للاجتماع بإشارة من إصبعي.

فهز رأسه. "في ما بعد، فأر القرية. أنا أستمتع الآن كثيراً في مناقشة موضوع الانتخابات".

لوّحت له بالمظروف البني. فرمى أوراقه في الحال.

أصررت على أن ننزل إلى مرأب السيارة؛ عد النقود هناك في ظل سيارة الهوندا سيتـي.

- "جيد، فأر القرية. هذا هو المبلغ كاملاً. أين سيدك؟ هل ستأخذه إلى هناك؟".

- "أنا سيد نفسي".

لـم يفهـم مـا قلتـه فـي بـادئ الأمر. ثم فغر فـاه، فاندفع إلى الأمام وحضنني. "فأر القرية!". وعانقني مجدداً. "يا رجلي!".

كان من (الظلام) أيضاً، فتشعر بالفخر حين ترى أحداً ما من صنفك له طموح في الحياة.

أخذني في سـيارة الكواليس - سـيارة سـيده - إلى الفندق، بعد أن شـرح لي في الطريق أنه يحوّل السـيارة إلى سـيارة أجرة غير رسـمية عندما يكون سيده بعيداً.

كان الفنـدق فـي النطـاق الجنوبـي، الجـزء الثاني، واحد من أفضل مناطق التسوق في دلهي. أغلق ذو الشفتين الورديتين سيارته الكواليس، وابتسـم ليطمئنني وسـار معي إلى مكتب الاسـتقبال. كان هنالك رجل يرتدي قميصاً أبيض ويضع ربطة عنق سـوداء يحرك إصبعه على القيود في دفتر كبير؛ ترك إصبعه على الدفتر، ونظر إليّ حالما همس في أذنه ذو الشفتين الورديتين موضحاً بعض الأشياء.

هزّ المدير رأسه: "امرأة ذات شعر ذهبي له؟".

وضع يديه على الطاولة، وانحنى كي يتمكن من أن ينظر إليّ وهو واقف على أصابع قدميه.

- "من أجله؟".

ابتسم ذو الشفتين الورديتين. "انظر، أغنياء دلهي حصلوا على مَن يريدونها من النسـاء ذوات الشـعر الذهبي؛ من يدري ماذا سـيريدون بعد ذلك؟ نساء ذوات شعر أخضر من القمر. الآن جاء دور الطبقة العاملة

لتدلي بدلوها بشأن النساء البيضاوات. هذا الشخص سيكون مستقبل عملك، صدقني، عامله بلطف".

للحظة ما لم يبدُ على المدير أنه مقتنع؛ ثم أغلق الدفتر الكبير، وفتح لي كفه، وقال مكشراً: "أعطني خمسمئة روبية إضافية. أجرة إضافية للطبقة العاملة".

- "لا أحمل معي".

- "أعطني خمسمئة روبية أو انسَ الأمر".

أخرجت آخر ثلاثمئة روبية كانت لدي. أخذ النقود، وعدل ربطة عنقه، ثم صعد السلالم. وربّت ذو الشفتين الورديتين على كتفي وقال: "حظاً طيباً يا فأر القرية؛ قم بذلك نيابة عنا كلنا!".

صعدت السلالم.

الغرفة 114A. كان المدير يقف عند الباب وأُذنه قريبة منه. همس: "أناستاسيا؟".

طرق الباب، ثم وضع أُذنه على الباب مرة أخرى وقال: "أناستاسيا، هل أنت في الداخل؟".

دفع الباب ليفتحه. ثمة ثريا ونافذة وفراش أخضر، وفتاة ذات شعر ذهبي تجلس على الفراش.

تنهدت، لأن هذه المرأة لا تشبه أبداً كيم باسنجر. ولا تساوي نصف جمالها. كان ما صدمني - بطريقة لم أعهدها من قبل - كيف يتأتى للأغنياء دائماً أن ينالوا أفضل الأشياء في الحياة ولا نحصل نحن إلا على ما يتركونه.

رفع المدير كفيه إلى وجهي؛ فتحهما وجمعهما، وكرر ذلك.

عشرون دقيقة.

- "نعم".

ثم قام بحركة طرق بقبضته، تبع ذلك حركة ركلة في الهواء بحذائه

الأسود اللامع.

- "فهمت؟".

ذلك ما سيحدث لي بعد عشرين دقيقة.

- "نعم".

صفق الباب. كانت المرأة ذات الشعر الذهبي لا تزال لا تنظر إليّ.

استجمعت شجاعتي، لأجلس إلى جانبها، وسمعت ضرباً شديداً على الباب من الخارج.

وسمعت صوت المدير: "عندما تسمع ذلك يكون وقتك قد انتهى، فهمت؟".

- "حسناً".

اقتربت من المرأة التي على الفراش. لم تكن تقاوم كما لم تكن مرحّبة. لمست خصلة من شعرها، وسحبتها برفق كي أحملها على الالتفات إليّ. كانت تبدو متعبة، ومرهقة وثمة كدمات حول عينيها، كأن أحداً ما قد خدش جلدها.

ابتسمت لي ابتسامة عريضة؛ أعرف ذلك جيداً: إنها ابتسامة خادم يقدم شيئاً لسيده.

سألتني بالهندية: "ما اسمك؟".

هذه أيضاً! أُقسِم إنهم في بلادهم أوكرانيا لديهم مدرسة لتعليم البنات اللغة الهندية!

- "مونا".

ابتسمت. "إنه ليس اسماً حقيقياً. إنه يعني (ولد)".

قلت: "صحيح. ولكنه اسمي. لم يسمني أهلي بغيره".

راحت تضحك بصوت عالٍ، ضحكة فضية جعلت كل شعرها الذهبي يرتفع وينخفض. خفق قلبي مثل حصان. نفذ عطرها إلى عقلي مباشرة.

- "تعـرف، عندمـا كنـت صغيـرة، كان أهلي يسـمونني بلغتنا بنت. لقد فعلت عائلتي الأمر نفسه الذي حصل معك!".

فقلت مندهشاً: "يا للروعة". وجمعت ساقي على الفراش.

تحدثنا. أخبرتني أنها كانت تكره البعوض والمدير في هذا الفندق، وأومأت لها برأسي. تحدثنا هكذا لبعض الوقت: "لا بأس بوسامتك تبدو جذاباً". ثم مررت إصبعها في شعري.

عنـد تلـك اللحظـة، قفـزت من الفراش. قلـت لهـا: "لماذا أنت هنا يـا أخـت؟ إذا كنـت ترغبيـن فـي مغادرة هـذا الفندق، فلم لا تفعلين؟ لا تهتمي بشأن المدير. أنا هنا لأحميك! أنا أخوك، بالرام حلوي!".

قلت ذلك بالتأكيد؛ سيستفيدون من حياتي في فيلم هندي. "سبعة آلاف روبية جميلة لكل عشرين دقيقة! حان وقت العمل!؟

هذا ما قلته في الحقيقة.

حان الوقت للعمل... ورفعت ذراعيها خلف رأسـها بيد، ومددت أصابع يدي الأخرى في خصلات شعرها الذهبية.

عندئـذ صرخـتُ. ومـا كنـت لأصـرخ أعلـى مـن ذلـك لـو أريتني سحلية.

تساءلت: "ما الذي حدث مونا؟".

قفزت من الفراش وصفعتها.

هؤلاء الأجانب يمكنهم الصراخ عندما يريدون.

في الحال، كان المدير هناك طوال الوقت، أذنه على الباب، فاقتحم الباب ليفتحه ويدخل مكشراً عن أنيابه.

صحت به وأنا أسحب الفتاة من شعرها: "ليس هذا ذهبياً".

كانت جذور شعرها سوداء! والباقي كله مصبوغ!

رفـع كتفيـه: "مـا الـذي تتوقعـه مقابـل سـبعة آلاف روبيـة؟ الشـعر الحقيقي يكلف أربعين أو خمسين".

قفـزت عليـه، وأمسـكت بـه من عنقـه، ودفعت به إلى الباب: "أعد لي نقودي!".

أطلقت المرأة صرخة من خلفي فالتفت إليها؛ كان ذلك خطأ مني. كان علي أن أنتهي من المدير قبل أن ألتفت.

بعـد عشـر دقائـق، خرجـت مـن البـاب الأمامـي أتدحرج مخدشـاً ومرضوض الوجه. وصفقوه خلفي.

لم ينتظرني ذو الشـفتين الورديتين. وتحتم عليّ أن أركب الحافلة لأعود؛ طوال ذلك الوقت كنت أحك رأسي. سبعة آلاف روبية! أردت أن أبكي! هل تعلم كم جاموسة كان يمكنك شراؤها بذلك المال؟ أكاد أحس بأصابع جدتي تلوي أذني.

عدت إلى أبراج باكنغهام أخيراً - بعد ساعة من الزحام في الطريق - غسلت الجروح التي في رأسي في المغسلة العامة، ثم بصقت عدة مرات. فليذهب كل شيء إلى الجحيم حككت... كنت محتاجاً إلى ذلك. مشيت بتثاقل نحو غرفتي، وركلت الباب لينفتح، وتسمّرت مكاني.

كان هناك شـخص ما داخل نامْوسـيتي. رأيت شـبحاً في وضعية اللوتس.

- "لا تقلق بالرام. أعرف ما كنت تفعله".

صوت رجل. حسناً، على الأقل إنه ليس صوت جدتي؛ تلك كانت فكرتي الأولى.

رفع السيد آشوك زاوية من الناموسية ونظر إليّ، ثمة تكشيرة غامضة على وجهه.

- "أعرف بالضبط ما الذي كنت تفعله".

- "سيدي؟".

- "كنت أنادي اسمك ولم تكن تجيب. لذلك جئت إلى هنا لأرى. لكنني أعرف بالضبط ما الذي كنت تفعله... فذلك السائق الآخر، الرجل

ذو الشفتين الورديتين، أخبرني".

اضطرب قلبي. فأطرقت برأسي إلى الأرض.

- "قال إنك كنت في المعبد تصلي من أجل صحتي".

قلت والعرق يتصبب من وجهي شاعراً بالراحة: "أجل سيدي. هذا صحيح سيدي".

فقال بلطف: "تعالَ إلى داخل الناموسية". فدخلت، وجلست إلى جانبه. كان ينظر إلى الصراصير وهي تمشي فوقنا.

- "أنت تعيش في مثل هذا الثقب بالرام. لم أكن أعرف أبداً. آسف".

- "لا بأس بذلك سيدي. اعتدت عليه".

- "سأعطيك بعض المال، بالرام. انتقل إلى سكن أفضل غداً، ما رأيك؟".

مسك يدي وقلبها: "ما هذه الندوب الحمراء التي على كفك بالرام؟ هل كنت تقرص نفسك؟".

- "كلا سيدي... إنه مرض جلدي، لدي هنا خلف أذني؛ انظر كل هذه البقع الوردية".

اقترب أكثر، مما ملأ أنفي بعطره. ونظر خلف أذني بعد أن طواها برفق بإصبعه.

- "آه. لم ألاحظ ذلك أبداً. أجلس خلفك كل يوم ولم...".

- "الكثير من الناس لديهم هذا المرض، سيدي. الكثير من الفقراء".

- "لم ألاحظ ذلك فعلاً. هل يمكنك أن تعالجها؟".

- "كلا سيدي. أمراض الفقراء لا يمكن علاجها. كان أبي مصاباً بالتدرن الرئوي وقتله".

- "إنه القرن الواحد والعشرون، بالرام. كل شيء يمكن معالجته.

كل شيء يمكن معالجته. اذهب إلى المستشفى وعالجه. اجلب لي لائحة بالتكاليف وسأدفع لك".

قلت: "أشكرك سيدي. هل تريد مني سيدي أن آخذك إلى مكان ما في المدينة؟".

فتح فمه، وأغلقه من دون أن أسمع منه أي صوت. فعل ذلك عدة مرات، ثم قال: "طريقة حياتي كلها غير صحيحة، بالرام. أعرف ذلك، لكنني لا أملك الشجاعة لتغييرها. ليست لدي... الخصيتان".

- "لا تفكر في ذلك كثيراً سيدي. ثم، سيدي، دعنا نذهب إلى الأعلى أرجوك. هذا المكان لا يليق برجل مثلك".

- "أنا أسمح للناس بأن يستهلكوني، بالرام. لم أقم أبداً بما أريده، طوال حياتي كلها. أنا...".

تراخى رأسه؛ كان جسمه كله يبدو متعباً ومتهالكاً.

قلت: "لا بد لك من أن تأكل شيئاً سيدي. تبدو متعباً".

ابتسم ابتسامة طفل واثقة وعريضة.

- "أنت دائماً ما تفكر فيّ، بالرام. بلى، أحتاج إلى الطعام. لكنني لا أريد الذهاب إلى فندق آخر. مرضت من الفنادق. خذني إلى المكان الذي تتناول فيه طعامك".

- "حسناً سيدي".

خرجنا نتمشى، وأخذته إلى الجهة الأخرى من الطريق، ودخلنا مقهى.

- "اطلب لنا بالرام. اطلب لنا طعاماً شعبياً".

طلبت بامية وقنبيط وفجل وسبانخ ودال. طعام يكفي عائلة كاملة أو رجلاً غنياً واحداً.

أكل وتجشأ، ثم أكل المزيد.

- "هذا الطعام مدهش. وفقط مقابل خمس وعشرين روبية! أنتم

تأكلون جيداً".

حين انتهى، طلبت له اللبن، وحين تناول أول رشفة ابتسم. "أحب أكل النوع الذي تأكله!".

ابتسمت وفكرت، كذلك أنا أحب أكل النوع الذي تأكله.

* * *

- "ستصل قريباً أوراق الطلاق. هذا ما قاله المحامي".
- "حسناً".
- "هل يتوجب علينا البحث قبل ذلك؟".
- "عن محامٍ آخر؟".
- "كلا، عن فتاة أخرى".
- "الوقت مبكر جداً موكيش. لم يمضِ على ذهابها غير ثلاثة أشهر".

كنت قد أخذت السيد آشوك إلى محطة القطار. لقد عاد النمس إلى المدينة من دانباد. وها أنا أعيدهما إلى الشقة.

- "حسناً، أمامك وقت كافٍ. ولكن، لا بد لك من أن تتزوج مجدداً. لو بقيت رجلاً مطلقاً لن يحترمك الناس. ولن يحترمونا. هكذا هو نظام المجتمع. استمع إليّ الآن، فأنت لم تستمع إليّ، في المرة السابقة عندما تزوجت امرأة من خارج طائفتنا، من خارج ديننا؛ لقد رفضت حتى أن تأخذ مهراً من أهلها. في هذه المرة، سنختار نحن الفتاة".

لم أسمع شيئاً؛ كأنني أسمع السيد آشوك يصر بأسنانه.

قال النمس: "أرى أنك قمت بعملك. سنتحدث عن ذلك لاحقاً. خذ هذا الآن". وسلم أخاه حقيبة حمراء جلبها معه من دانباد.

فتح السيد آشوك الحقيبة ونظر في داخلها، وفي الحال أغلقها النمس بقوة.

- "هل أنت مجنون؟ لا تفتحها هنا في السيارة. إنها لموكشان. الرجل البدين. المساعد. تعرفه أليس كذلك؟".

فقال السيد آشوك، هازاً كتفيه: "بلى، أعرفه. ألم ندفع لهؤلاء الأوغاد من قبل؟".

- "يريد الوزير المزيد. حان وقت الانتخابات. في كل انتخابات ندفع لهم نقداً. في العادة لكلا الطرفين، ولكن في هذه المرة، من المؤكد أن جماعة السلطة ستفوز. المعارضة تعيش فوضى كاملة. لذلك ليس علينا سوى أن ندفع لجماعة السلطة فحسب، وهذا أمر في صالحنا. سآتي معك في المرة الأولى، لأن المبلغ كبير، وربما سيتوجب عليك الذهاب مجدداً ومجدداً. وبعد ذلك ثمة بضعة بيروقراطيين آخرين علينا أن نرشوهم. أفهمت؟".

- "يبدو أن هذا هو كل ما أفعله في دلهي. أن أسحب المال من المصارف وأقدمه رشوة. ألهذا جئت إلى الهند؟".

"لا تكن تهكمياً. تذكر أن تستعيد الحقيبة في كل مرة. إنها حقيبة جيدة صنعت في إيطاليا ولا حاجة بك إلى إعطائهم المزيد من الهدايا. هل فهمت؟ يا للجحيم. زحام لعين آخر".

- "بالرام، شغل لنا قرص ستنغ مجدداً. إنه أفضل قرص موسيقيّ يلائم الزحام".

- "هل يعرف هذا السائق من هو ستنغ؟".

- "بالتأكيد، إنه يعرفه نظراً إلى أن قرصه المضغوط هو المفضل لدي. أرنا قرص ستنغ، بالرام. انظر، انظر، إنه يعرف ستنغ!".

وضعت القرص في المسجلة.

مرت دقائق، ولم تتحرك السيارات إنشاً واحداً. أبدلت ستنغ بأنيا؛ وأبدلت أنيا بأمينيم. اقترب الباعة من السيارة مع سلال البرتقال أو التوت الذي يضعونه في أكياس بلاستيكية، وباعة الصحف أو الروايات

الإنكليزية. كذلك هجم الشحادون. أحد الشحادين كان يحمل شحاداً آخر فوق كتفيه وينتقل من سيارة إلى أخرى. كان الذي فوق كتفيه مقطوع الساقين من تحت الركبة، وهو يئن ويتألم بينما يطرق الآخر زجاج السيارات.

من دون تفكير فتحت زجاج البيضة. وأخرجت روبية، أخذها مقطوع الساقين وحياني؛ ثم أغلقت النافذة، وأحكمت إغلاق البيضة.

توقف الحديث في المقعد الخلفي فجأة.

- "من طلب منك أن تفعل ذلك بحق الله؟".

فقلت: "آسف سيدي".

- "لماذا أعطيت ذلك الشحاد روبية؟ أي وقاحة! أوقف عمل المسجلة".

كانا في الحقيقة قد حكما عليّ في ذلك المساء. ولكن بالرغم من أنهما كانا يتحدثان بخليط من الهندية والإنكليزية فقد بدأا يتحدثان بهندية بسيطة؛ وهو ما كان غايته أن أسمع.

قال السفاح الأكبر: "ألسنا نعطي مالاً كلما ذهبنا إلى المعبد؟ ونتبرع كل سنة لمعهد السرطان؟ أنا أشتري تلك البطاقة التي يأتي طلاب المدارس لبيعها".

فقال السفاح الصغير: "تحدثت أمس مع محاسبنا وكان يقول: سيدي ليس لديك مال في المصرف. لقد نفد كله، هل تعرف مدى ارتفاع الضرائب في هذه البلاد؟ لو أننا أعطينا ما لدينا ماذا سنأكل؟".

هذا ما صدمني، لا أجد، في الحقيقة، فارقاً بينهما. كانا بذر أبيهما.

كان النمس يركز عينيه في بقية الطريق على مرآة الرؤية الخلفية. كان ينظر وكأنه كان يشم شيئاً يثير الضحك.

حين وصلنا إلى باكنغهام B قال: "اصعد إلى الأعلى بالرام".

- "حسناً سيدي".

وقفنا سوية في المصعد. حين فتح باب الشقة، أشار إلى الأرضية: "أرِح نفسك".

جثمت تحت صورة بدلز وكدلز، ووضعت يدي بين ركبتي. جلس على الكرسي وأراح وجهه بين راحتي كفيه ثم حدّق إليّ.

كان مقطب الحاجبين، وبإمكاني أن أرى فكرة تتشكل في ذهنه.

نهض عن كرسيه، وتقدم إلى حيث كنت جاثماً، وجثا على ركبة واحدة. زفر الهواء.

- "أشم رائحة يانسون".

- "نعم، سيدي".

- "يمضغ الناس هذا اليانسون كي يُخفوا رائحة الشراب. هل كنت تشرب؟".

- "كلا، سيدي. طائفتي، نحن لا نشرب إلا الشاي".

وظل يتشمم، مقترباً مني كل حين.

تنفست بعمق؛ ثم حبست النفس في بطني؛ ثم أجبرت على إخراجه، بقوة، في وجهه مباشرة.

قال وهو ينظر لي برعب: "شيء مقزز بالرام".

وقف وتراجع إلى الوراء خطوتين.

- "عفواً سيدي".

- "اخرج".

فخرجت وأنا أتصبب عرقاً.

في اليوم التالي، أخذتهما هو والسيد آشوك بالسيارة إلى بيت أحد الوزراء أو البيروقراطيين في نيودلهي؛ ذهبا يحملان الحقيبة الحمراء. بعد ذلك أخذتهما إلى فندق، حيث تناولا الغداء. وأبلغت خدم الفندق ألا يضعوا البطاطا بالأكل؛ ثم أخذت النمس إلى محطة القطار.

استلمت تهديداته وتحذيراته المعتادة؛ لا راديو ولا موسيقى ولا تبذير في الوقود، وغيرها، وغيرها، وغيرها. وقفت على الرصيف وراقبته وهو يأكل طعامه السريع. وحين غادر القطار، رقصت على الرصيف وصفقت بيدي. كان يراقبني اثنان من الأولاد المشردين، فضحكا، وصفقا أيديهما أيضاً. وراح أحدهما يغني أغنية من آخر فيلم هندي، فرقصنا جميعاً على الرصيف.

في الصباح التالي كنت في الشقة، وكان السيد آشوك يدور بقلق والحقيبة بيده مستعداً للخروج عندما رن الهاتف.

قلت: "سآخذ الحقيبة إلى الأسفل سيدي. سأنتظرك في السيارة".

تردد، ثم رفع الحقيبة باتجاهي: "سألحق بك بعد دقيقة".

أغلقت باب الشقة. وسرت نحو المصعد، ضغطت الزر وانتظرت. كانت حقيبة ثقيلة، وكان عليّ أن أنقلها من يدٍ إلى يد.

وصل المصعد الطابق الرابع.

التفتّ ونظرت إلى المنظر من شرفة الطابق الثالث عشر؛ كانت الأضواء مشعة من متاجر غوركون، حتى في وقت النهار. كان متجر جديد قد افتتح حديثاً في الأسبوع الماضي. وثمة آخر قيد الإنشاء. المدينة تنمو.

كان المصعد يرتفع سريعاً. كان يوشك على الوصول إلى الطابق الحادي عشر.

استدرت وركضت.

رفست باب الهروب من الحريق وفتحته، وأسرعت لأنزل طابقين على السلالم المعتمة، وفتحت الحقيبة.

على حين غرة امتلأ مكان السلم بضياء باهر، إنه الضياء الذي لا ينبثق إلا من المال.

بعد خمس وعشرين دقيقة، حين نزل السيد آشوك، وهو ينقر الأزرار في هاتفه الخلوي، وجد الحقيبة الحمراء على مقعده. ورفعت قرصاً فضياً لامعاً ما إن أغلق الباب.

- "هل أشغّل لك ستنغ سيدي؟".

حاولت ألا أميل بنظري إلى الحقيبة الحمراء في أثناء سيرنا، كان ذلك قاسياً عليّ، مثلما كان الحال عندما اعتادت السيدة بنكي أن تلبس التنانير القصيرة.

عند الضوء الأحمر، نظرت عبر المرآة. رأيت شاربيّ الكثين وفكي. لمست المرآة وغيرت زاوية الصورة. أرى الآن حاجبين طويلين منحنيين من كلتا الجهتين، وعضلات جبين متغضنة؛ وعينين سوداوين تشعان تحت تلك العضلات المشدودة. كانت مثل عيني هرّة تشاهد فريستها.

هيا، انظر فقط إلى الحقيبة الحمراء بالرام؛ ليست هذه سرقة، أليس كذلك؟

هززت رأسي.

وحتى لو نويت سرقتها بالرام، فليست تلك بسرقة.

كيف ذلك؟ نظرت إلى المخلوق الذي انعكست صورته على المرآة.

انظر، يعطي السيد آشوك المال لكل هؤلاء الساسة في دلهي كي لا يدفع الضريبة التي من الواجب عليه دفعها. ومن يملك تلك الضريبة في النهاية؟ من غير الناس العاديين في هذا البلد؟ أنت!

- "ما بك بالرام؟ هل قلت شيئاً؟".

ضربت المرآة برفق. ارتفع الشاربان في الرؤية ثانية، واختفيا، وليس غير وجهي يحدّق إليّ الآن.

- "هذا الشخص الذي يسوق أمامي يسوق برعونة سيدي. كنت أتذمر منه فقط".

- "هدّئ من نفسك، بالرام. أنت سائق جيد، فلا تسمح للسيئين أن ينالوا منك".

كانت المدينة تعرف سرّي. في أحد الصباحات كان منزل الرئيس مغطى بالدخان والغبار؛ بدا وكأن لا حكومة في دلهي في ذلك اليوم. وأن التلوث الكثيف الذي يخفي رئيس الوزراء ووزراءه والبيروقراطيين يقول لي:

إنهم لن يروا ما تفعله. سأكون متأكّداً من ذلك.

مررنا بسور مبنى البرلمان الأحمر. كان ثمة حارس يحمل بندقية يراقبني من فتحة في موقع له على السور الأحمر، فأنزل بندقيته حالما رآني.

لماذا أوقفك؟ كنت سأفعل الشيء نفسه لو تمكنت.

كانت امرأة تمشي في الليل وبيدها كيس من النايلون؛ وعبر الأضواء العالية للسيارة تكشف ما بداخل السلوفان الشفاف. رأيت أربع ثمرات فاكهة كبيرة داكنة اللون داخل الكيس؛ وكل ثمرة تقول: لقد فعلتها من قبل. لقد أخذتها في قلبك من قبل. ثم تعدت الأضواء الكيس، وتحول النايلون إلى اللوَن القاتم؛ واختفت الثمرات الأربع الداكنة.

حتى الطريق - الطريق اللامعة الناعمة لدلهي، التي هي الفضلى في الهند - كانت تعرف سري.

في أحد الأيام عند إشارة المرور، أنزل السائق الذي إلى جانبي زجاج النافذة وبصق؛ كان يمضغ البان، وتناثرت بركة حمراء صغيرة من البصاق على الشارع الساخن وقت الظهيرة وتقرح هناك شيء حي، منتشراً ومطلقاً نوعاً من الأزيز. وبعد لحظات بصق مجدداً، وتكونت أيضاً بركة صغيرة على الشارع. بحلقت في البركتين الصغيرتين من البصاق الأحمر؛ ثم:

بركة البصاق التي على اليمين بدت وكأنها تقول:	بركة البصاق التي على اليسار بدت وكأنها تقول:
أراد أبوك أن تكون رجلاً.	أراد أبوك أن تكون نزيهاً.
السيد آشوك جعلك تلام عندما قتلت زوجته ذلك الولد على الطريق.	السيد آشوك لا يصدمك أو يبصق عليك، كما فعل الناس لأبيك.
أجرك زهيد. أنت تعيش في مدينة. ما الذي ادخرته؟ لا شيء.	السيد آشوك يدفع لك أجراً جيداً، أربعة آلاف روبية شهرياً. وهو يرفع أجرك من دون أن تسأله.
الحقيقة الثابتة بأن السيد آشوك يهدد عائلتك تجعل دمك يغلي!	تذكر ما فعله الجاموس لعائلة خادمه. وسيطلب السيد آشوك من أبيه الشيء نفسه لعائلتك إن هربت.

أبعدت وجهي عن البركتين الحمراوين. ونظرت إلى الحقيبة الحمراء التي انعكست صورتها وسط المرآة، كانت مثل القلب المكشوف للهوندا سيتي.

في ذلك اليوم أنزلت السيد آشوك أمام فندق أمبريال، وقال لي: «سأعود بعد عشرين دقيقة، بالرام».

بدلاً من أن أوقف السيارة في المرأب، ذهبت إلى محطة القطار التي هي في منطقة بهارغانج، ليست بعيدة عن الفندق.

كان الناس مضطجعين على أرض المحطة. بينما تشم الكلاب النفايات. كان الهواء ذا رائحة عفنة. وفكرت، إذاً، هكذا سيكون.

كانت مواعيد حركة القطار معلقة على اللوحة.

بيناراس

جامو

آرميستار

مومباي

رانجي

متى سيكون موعدي، لو جئت إلى هنا والحقيبة الحمراء في يدي؟

راحت تبرق دوائر مضيئة وأنوار مشعة في الظلام وكأن ذلك كان جواباً عن ذلك السؤال.

لو حدث وزرت أي محطة قطار في الهند، سترى، وأنت تنتظر القطار، صفاً من آلات غريبة المنظر ذات مصابيح حمراء ومتعددة العجلات تلتف بدوائر صفراء، عبارة عن آلات لقياس الوزن ومعرفة الطالع مقابل روبية واحدة، تجدها على رصيف كل محطة قطار في البلاد.

عندما تضع أنت حقائبك جانباً وتقف عليها. ثم تقحم روبية معدنية في شريحة فيها. فتتحرك الآلة، عتلات تتحرك إلى الداخل وتطقطق الأشياء وتشتعل الأضواء بجنون. ثم تسمع ضوضاء كبيرة، وتظهر لك ورقة مقواة ملونة إما بالأخضر أو بالأصفر. وتهدأ بعدها الأضواء والضوضاء. وستجد على تلك الورقة طالعك ووزنك بالكيلوغرام.

يستعمل هذه الآلات نوعان من الناس: أطفال الأغنياء، أو البالغون من الطبقة الفقيرة، الذين يبقون أطفالاً طوال حياتهم.

وقفت أحدق إلى الآلات مثل رجل فقد عقله. ست آلات مشعة نحوي: مصابيح خضراء وصفراء وعجلات ذهبية وسوداء تلتف وتلتف.

وقفت على إحداها مضحياً بروبية؛ فازدردت العملة المعدنية، وقامت بالضوضاء، وأطلقت المزيد من الأضواء، وحررت لي ورقة مقواة.

شركة لونا للموازين

نيودلهي 110055

وزنك 59

"احترام القانون هو أولى وصايا الصالحين".

رميت الورقة المقواة على الأرض وضحكت.

حتى هنا في آلة الوزن في محطة القطار يحاولون خداعنا. هنا على أعتاب حرية الإنسان، قبيل أن يركب قطاراً متجهاً نحو الحياة الجديدة، تكون آلات الطالع المنيرة هذه هي الإنذار الأخير لقن الدجاج.

كانت صفارات الإنذار لقن الدجاج تصفر - وتدور عجلاتها - وشعت أنوارها الحمراء! ها هو ديك يفر من القن! وامتدت يد؛ التُقِطت من رقبتي وأُعِدتُ إلى القن.

عدت لالتقاط الورقة المقواة وقرأتها مرة أخرى.

راح قلبي ينبض بقوّة. فجلست على الأرض.

فكّر، بالرام. فكّر في ما فعله الجاموس بعائلة خادمه.

سمعت فوق رأسي خفق أجنحة. كانت هناك حمامات قد جعلت من أعمدة المحطة مأوًى لها؛ اثنتان منها كانتا تطيران من عمود إلى آخر، وبدأتا تدوران فوق رأسي مباشرة، بحركة بطيئة كل واحدة تريد تمزيق صدر الأخرى، ورأيت مخالبها الحمراء.

ليس بعيداً عني رأيت امرأة مضطجعة على الأرض، يبرز من صدرها نهدان ممتلئان جميلان داخل كنزة ضيّقة. كانت تشخر نائمة، وكنت أرى عملة؛ روبية واحدة محشورة بين نهديها وقد بانت حروف الروبية ولونها من خلال نسيج كنزتها الخضراء اللامعة. لم تكن لديها أمتعة. ليس لديها في هذا العالم غير هذه الروبية الواحدة. وبالرغم من ذلك انظر إليها تشخر مطمئنة غير عابئة بالعالم.

لماذا لا تكون الأشياء سهلة بالنسبة إليّ؟

سمعت وقع خطوات كلب مما جعلني ألتفت. كان هنالك كلب أسود يدور حولي. ثمة بقعة وردية وجرح فاغر يلمع عند جانبه الأيسر؛ التوى حول نفسه في محاولة لقضم جرحه. كان الجرح بعيداً عن أسنانه،

لكنه كاد يجن من الألم؛ وهو مستمر بحركات دائرية مجنونة لا مركز لها في محاولة الوصول إلى الجرح بفمه الذي يسيل منه اللعاب.

نظرت إلى المرأة النائمة؛ إلى نهديها النافرين. وخلفي كان الصوت مستمراً أكثر فأكثر.

ذلك الأحد، طلبت من السيد آشوك الاستئذان بالذهاب إلى المعبد، وذهبت إلى المدينة. ركبت الحافلة إلى قطب، ومن هناك ركبت سيارة أجرة جيب إلى جي بي رود.

هذه هي سيدي رئيس الوزراء، أشهر "مقاطعة حمراء – الأضواء" (كما يقال بالإنكليزية) في دلهي.

قضاء ساعة هنا تصفّي كل الأفكار الشريرة من رأسي. عندما تحبس المني في الجزء السفلي من جسدك، فهذا يقود إلى الحركات الشريرة في سوائل الجزء الأعلى من جسدك. نحن في (الظلام) نعرف هذا بكونه حقيقة.

كانت الساعة الخامسة والضوء لا يزال مشعاً، لكن النساء كن ينتظرنني، كما ينتظرن كل الرجال، في أوقات اليوم كلها.

كنت قد جئت إلى هذه الشوارع من قبل – كما اعترفت لك – لكن الأمر مختلف هذه المرة. سمعتهن فوقي – النساء – يسخرن مني، ويوبخنني من نوافذ المباغي ذات العوارض الحديدية، لكنني هذه المرة لم أطق النظر إليهن.

كان صانع (بان) يجلس على مقعد خشبي خارج الباب الأزرق المزخرف للمبغى، مستعملاً سكيناً لتفريق التوابل على أوراق رطبة كان يلتقطها من وعاء فيه ماء، هذه هي الخطوة الأولى في تحضير (البان)؛ وفي مكان مربع صغير بجانب مقعده جلس رجل آخر، يغلي الحليب في وعاء على لهب أزرق لموقد غازي.

– "ما بك؟ انظر إلى النساء".

أمسك القواد بي من رسغي وكان رجلاً صغير الحجم له أنف كبير مغطى بثآليل حمراء.

- "يبدو أنك قادر على الدفع لفتاة أجنبية. خذ لك فتاة نيبالية. ألسن جميلات؟ انظر نحوهن يا بني!".

أمسك بي من ذقني - ربما اعتقد أنني خجول ولا أزال بتولاً، وهذا أول مجيء لي إلى هنا - وأجبرني على النظر إلى الأعلى.

النيباليات كن هناك، خلف النافذة المشّبكة بالقضبان، وكن بالفعل حسناوات: ذوات بشرة فاتحة ولهن عيون صينية تجعل منا نحن الهنود مجانين. أزحت يد القواد عن وجهي.

- "خذ أي واحدة منهن! خذهن كلهن! ألست مكتمل الرجولة يا بني؟".

كان ذلك في العادة كافياً بالنسبة إليّ لأن أنفجر في المبغى ودمي يغلي.

لكن في بعض الأحيان، إن الأكثر حيوانية في الإنسان قد يكون أفضل ما فيه. لم يتحرك شيء تحت خاصرتي. كأنهن ببغاوات في قفص. سأكون مثل حيوان يضاجع حيواناً.

صاح بائع البان من مقعده: "امضغ البان، سيساعدك إن كانت لديك مشكلة في الرجولة!"، ورفع ورقة طازجة من البان الطري وهزها ليتناثر الرذاذ على وجهي.

صاح الرجل النحيل المنكمش الذي كان يغلي الحليب: "اشرب الحليب الساخن، إنه يساعد كذلك".

راقبت الحليب. كان يغلي وفاض على جوانب الإناء الفولاذي المضاد للصدأ؛ ابتسم الرجل النحيل المنكمش؛ حرك الحليب المغلي بملعقة، فراح يغلي ويفور ويفور.

اتجهت نحو بائع البان، دفعته عن وكره، ونثرت أوراقه النباتية

وسكبت ماءه. وركلت القزم على وجهه. فتعالت الصيحات في الأعلى. اندفع القـوادون نحـوي؛ فاندفعـت أضـرب يمينـاً ويسـاراً للحفاظ على حياتي، وهرعت إلى الشارع مسرعاً.

لا بد لي من أن أقول شيئاً عن شارع جي بي رود في دلهي القديمة. تذكر سيدي رئيس الوزراء، دلهي ليست عاصمة لبلد واحد بل لبلدين؛ هندين. النور والظلام كلاهما يجريان في دلهي. غوركون، حيث يسكن السـيد آشـوك، هو طرف المدينة سـاطعة الضوء والحديثة. مليئة بأشـياء نسيها العالم الحديث كالعربات والبيوت الحجرية القديمة. يوم الأحد، ثمـة شـيء آخـر: لـو اسـتمررت فـي الاندفاع داخل الزحـام الدائمي، مرّ بالرجـال الذيـن ينظفـون آذان الرجـال الآخريـن بإدخـال قضبان حديدية صدئة فيها، مرّ بالرجال الذين يبيعون السمك الصغير الذي يضعونه في زجاجـات خضـراء مليئـة بالمـاء الأجـاج، ومرّ بسـوق الأحذية الرخيصة وسوق القمصان الرخيصة وستصل إلى سوق الكتب المستعملة الكبيرة في داريا غانج.

ربما تكون قد سـمعت عن هذه السـوق، سـيدي، لأنها واحدة من أعاجيب العالم. عشـرات الآلاف من الكتب الوسـخة والعفنة والسـوداء مـن كل الصنـوف - التكنولوجيـا، والطـب، والفلسـفة، والتربية، والدول الأجنبية - مكدسة على الرصيف من بوابة دلهي حتى تصل إلى السوق أمـام القلعـة الحمـراء. بعـض الكتـب تـكاد تتمزّق ما إن تلمسـها بسـبب قِدمها؛ البعض منها قرضته الحشـرات والبعض الآخر يبدو أنه قد أنقذ مـن طوفـان، أو مـن حريـق. أغلـب المتاجر التي علـى الرصيف أقفلت، لكن المطاعم لا تزال مفتوحة، وتختلط رائحة الطعام المقلي مع رائحة الورق المتعفن. وتدور الرِّيَش الصدئة والمتعبة لمفرغات الهواء للمطاعم مثل أجنحة فراشات عملاقة.

دخلت وسـط الكتب، وتنشـقت الهواء: كان مثل الأوكسـجين بعد

عفونة المبغى.

كان هناك زحام شديد للمشترين وهم يتعاملون بشأن الكتب مع الباعة، وتظاهرت أنني أحد المشترين. تجولت بين الكتب، ألتقطها، أقرأ فيها هكذا: فلب، فلب، فلب. حتى صاح البائع: "هل ستشتريه أم تقرأه مجاناً؟".

وأقول له: "إنه ليس جيداً"، وأضع الكتاب، وأذهب إلى البائع الآخر، وألتقط شيئاً لديه، وفلب، فلب، فلب. لم أدفع روبية واحدة، أقلب في الكتب مجاناً، وبقيت استغفل الباعة الواحد بعد الآخر طوال المساء!

البعض من الكتب كانت بالأوردية وهي مجرد خربشات ونقاط، وكأن غراباً قد غمس مخالبه في حبر أسود وطبعها على الصفحة. كنت أقلب في واحد من تلك الكتب حين قال بائع: "هل يمكنك القراءة بالأوردية؟".

كان عجوزاً، له وجه أسود داكن ذو لحية، مخضل بالعرق مثل ورقة عشب استوائي بعد المطر.

فقلت: "هل يمكنك أنت القراءة بالأوردية؟".

فتح الكتاب، تنحنح، وقرأ، "كنت تبحث عن المفتاح لسنوات. هل فهمت ذلك؟" نظر إليّ عاقداً حاجبيه.

- "نعم، يا عمي".

- "اسكت، أيها الكاذب. واصغِ".

تنحنح مرة أخرى.

"كنت تبحث عن المفتاح لسنوات! لكن الباب كان موصداً دائماً".

أغلق الكتاب وقال: "هذا يسمونه شعراً. اذهب الآن".

توسلت إليه: "أرجوك يا عمي. لست غير ابن ساحب عربة من

(الظلام). أخبرني كل شيء عن الشعر. من كتب هذا الشعر؟".

هز رأسه، غير أنني بقيت أتملقه، وأخبره عن جمال لحيته، وكم هي جميلة بشرته (ها!)،... سيدي رئيس الوزراء، لن أقول شيئاً جديداً إن قلت إن تاريخ العالم هو تاريخ عشرة آلاف سنة من الحرب الفكرية بين الأغنياء والفقراء. كل واحد من الطرفين يسعى لخداع الآخر: وهذا كان الحال منذ بداية الزمان. ربح الفقراء القليل من المعارك (النظر خلسة إلى النباتات في القدور، ركل الكلاب المدللة، وغيرها)، وبالطبع، فقد ربح الأغنياء الحرب منذ عشرة آلاف سنة. لهذا، ففي أحد الأيام ترك الحكماء، انطلاقاً من التعاطف مع الفقراء، بعض العلامات والرموز في القصائد التي تظهر لتكون زهوراً وفتيات رائعات الجمال وأشياء مثلها، ولكن حين يتم فهمها بدقة وتنكشف أسرارها التي تسمح لأشد الناس فقراً على الأرض بأن ينهوا الحرب الفكرية القديمة منذ عشرة آلاف سنة لصالحهم. وأعظم هؤلاء الشعراء الحكماء كانوا الرومي وإقبال وميرزا غالب، وشاعر آخر ذكر لي اسمه لكنني نسيته.

(من كان ذلك الشاعر الرابع؟ سأجن لنسياني اسمه. إن كنت تعرف اسمه أرسل إليّ رسالة إلكترونية).

- "يا عمي، لديّ سؤال آخر لك".

- "من أنا؟ مدرسك؟ لا تستمر في سؤالي!".

- "أعدك أنه آخر سؤال. أخبرني يا عمي، هل يمكن لرجل أن يذوب في الشعر؟".

- "ماذا تقصد؟ كما هو الذوبان في السحر الأسود؟"، ونظر إليّ. "نعم، من الممكن ذلك. ثمة كتب لهذا الغرض. هل تريد شراء واحد؟".

- "كلا، لا يذوب هكذا. قصدت هل يمكنه...؟ هل يمكنه...؟".

ضيق بائع الكتب عينيه. كبرت حبات العرق على جبهته العريضة.

فابتسمت له: "انسَ أنني سألتك يا عمي".

ثم حذّرت نفسي ألاّ أتكلم هكذا مع رجل عجوز مرة أخرى. فهو يعرف الكثير.

كانت عيناي تحترقان من التحديق إلى الكتب. كان عليّ أن أتجه نحو بوابة دلهي لأركب الحافلة. كان هنالك طعم كريه للكتب في فمي وكأنني ابتلعت الكثير جداً من غبار الكتب المنتشر في الهواء. تتخمر الكثير من الأفكار الغريبة في قلبك حين تمضي وقتاً طويلاً مع الكتب القديمة.

لكنني بدلاً من العودة إلى الحافلة، تجولت أبعد في دلهي القديمة. لم تكن لدي أي فكرة عن اتجاهي. هدأ كل شيء في اللحظة التي خرجت فيها من الشارع الرئيسي. رأيت رجالاً يجلسون على هياكل أسرّة ويدخنون، بينما يتقوقع آخرون على الأرض ليناموا؛ وتحلق الصقور فوق المنازل. ثم هبت في وجهي ريح عاصفة من الجواميس.

يعرف الجميع أن هنالك زاوية للجزارين في مكان ما في دلهي القديمة، لكن القليل من الناس شاهدوها. إنها واحدة من أعاجيب المدينة القديمة؛ صف من السقائف المفتوحة، وتقف هناك جواميس كبيرة في كل سقيفة متجهة نحوك تطرد ذيولها الذباب كالماسحات على زجاج السيارات، بينما قوائمها غاطسة في أهرام الفضلات. وقفت هناك أشم رائحة أجسادها؛ لقد مضى وقت طويل منذ أن شممت رائحة جاموسة! كان هواء المدينة المروع يفسد رئتي.

سمعت طقطقة عجلات خشبية. ورأيت جاموسة مقبلة على الطريق، تسحب عربة كبيرة خلفها. لم يكن هنالك أي إنسان يحمل السوط ويقود العربة؛ كانت الجاموسة وحدها تعرف إلى أين تذهب.

كانت آتية من الشارع. كنت واقفاً جانباً ومرت بي، ورأيت أن تلك العربة مليئة بوجوه جواميس ميتة؛ أقول وجوه، ولكن حري أن أقول جماجم، مسلوخة الجلد، عدا تلك البقعة من الجلد التي في أعلى الأنف التي لا تزال شعيرات الخطم عالقة فيها، كأنها آخر الأجزاء المتحدية للجاموسة الميتة. أما بقية الوجوه فقد طمست. حتى العيون اقتُلِعت.

كانت الجاموسة الحية تسير، من دون أن يقودها أحد، تسحب حملها الميت إلى مكان تعلمه. سرت مع ذلك الحيوان المسكين لبعض الوقت، محدقاً إلى الجواميس الميتة مسلوخة الوجوه. وعند ذاك حدث أغرب شيء، يا صاحب السعادة، أقسِم أن الجاموسة التي كانت تسحب العربة التفتت بوجهها نحوي، وقالت، بصوت ليس غريباً عن صوت أبي:

- "أخوك كيشان يجلد حتى الموت. هل أنت سعيد؟".

شعرت وكأنني أعيش كابوساً قبل أن أستيقظ؛ أعلم أنه حلم، ولكن لا يمكنني أن أصحو منه.

- "عمتك لوتو اغتصبت ثم ضربت بالسوط حتى الموت. هل أنت سعيد؟ وجدتك قَسَم ماتت ركلاً. هل أنت سعيد؟".

حملقت الجاموسة بي.

قالت: "عار عليك!"، ثم خطت خطوة كبيرة إلى الأمام، ومرت العربة المليئة بالوجوه المسلوخة التي بدت لي في تلك اللحظة أنها وجوه عائلتي.

* * *

في الصباح التالي نزل السيد آشوك إلى السيارة، مبتسماً، والحقيبة الحمراء بيده. صفق الباب.

نظرت إلى الغول، وابتلعت ريقي بصعوبة.

- "سيدي...".

- "ما الأمر، بالرام؟".

- "سيدي، ثمة أمر ما كنت أود أن أخبرك إياه". ورفعت أصابعي عن مفتاح التشغيل. أُقسِم إنني كنت مستعداً للاعتراف المباشر في ذلك المكان... لو أنه قال لي الكلمة الصحيحة... لو أنه لمس كتفي بالطريقة الصحيحة.

لكنه لم يلتفت إليّ. كان مشغولاً بهاتفه الخلوي وأزراره.

طق، طق، طق.

إن يكن لديكم رجل مجنون لديه أفكار دموية في رأسه، يجلس أمامكم ليس أبعد من عشر بوصات، وأنتم لا تعلمون ذلك ولا يكون لديكم أدنى شك فيه حتى، فأي عماء تعيشون فيه أيها الناس! ها أنتم تعيشون في بنايات زجاجية وتتحدثون عبر الهاتف ليلة بعد ليلة إلى الأميركيين الذين يبعدون عنكم آلاف الأميال، ولا تكون لديكم أي فكرة عما يحدث للرجل الذي يسوق سيارتكم!

ما الأمر بالرام؟

ليس أكثر من أنني أريد تحطيم جمجمتك سيدي!

مال إلى الأمام - قرب شفتيه من أذني - وأوشكت أن أذوب.

- "أنا أفهم، بالرام".

أغمضت عيني. أكاد أفشي بما يدور في ذهني.

- "صحيح سيدي؟".

- "تريد أن تتزوج".

- "...".

- "بالرام. ستحتاج إلى بعض المال، أليس كذلك؟".

- "سيدي، لا. لست بحاجة إلى ذلك".

- "انتظر بالرام حتى أُخرج محفظتي. أنت عضو حيوي في عائلتي. لم تطلب المال أبداً؛ أعرف أن بقية السواقين يطلبون دائماً علاوات على

أجورهـم وتأميناً: ولكنـك لـم تنطـق بكلمة بهذا الشـأن. أنت من الطراز القديـم. أحـب ذلـك. سـتتكفل بـكل مصاريـف الـزواج، بالـرام. تفضل بالرام... خذ... خذ...".

رأيتـه يُخـرج عملـة نقديـة من فئة الألـف روبية، ثم أعادها وأخرج عملـة نقديـة مـن فئـة الخمسـمئة روبيـة، ثم أعادهـا وأخرج من فئة المئة روبية وسلمني إياها.

- "أفترض أنك ستذهب إلى لاكسمانغار لإتمام الزواج، بالرام".

- "...".

قال: "ربما آتي معك، أحب ذلك المكان. بودي الذهاب إلى تلك القلعة في المرة القادمة. كم مضى من الوقت منذ أن كنا هناك، بالرام؟ ستة شهور؟".

- "أكثر من ذلك سيدي". وحسبت الشهور على أصابعي. "مضى على ذلك ثمانية شهور".

وعد هو الشهور أيضاً. "نعم، صحيح".

طويت ورقة المئة روبية ووضعتها في جيب الصدر.

- "شـكراً علـى هـذه، سـيدي"، قلـت لـه ذلـك، وأدرت مفتـاح التشغيل.

في صباح اليوم التالي كنت أتمشى خارج بناية باكنغهام في الشارع الرئيسـي. بالرغـم مـن أنهـا بنايـة جديـدة إلا أن ثمـة طفحـاً فـي أنبـوب المجاري، وتكونت بركة داكنة من الماء الأسود على الأرض خارج سور المجمع؛ وثمة ثلاثة من الكلاب الضالة تنام على البقعة الرطبة. طريقة جيدة للتبريد، فقد هلَّ الصيف وعمّ الضجر حتى المساءات الآن.

بـدا علـى الـكلاب الضالـة أنهـا في أوج الراحـة. اقتربت منها على أصابع قدمي، ونظرت إليها عن قرب.

وضعت إصبعي في الماء الملوث. كان بارداً ومغرياً.

استفاق أحد الكلاب؛ تثاءب وأظهر لي كل أسنانه، وهب ليقف على قوائمه، ونهض الكلبان الآخران. بدأت الزمجرة، وظهرت الخدوش على الطين الرطب. كانت الكلاب وهي تبيّن لي أسنانها تريد مني الابتعاد عن مملكتها.

استسلمت متراجعاً عن البركة، واتجهت نحو المتاجر. لم تكن قد فُتحت بعد في ذلك الوقت. فجلست على الرصيف.

كان عقلي خالياً من أي فكرة.

حتى رأيت آثاراً داكنة على الرصيف.

آثار أقدام لحيوان.

حيوان سار على الكونكريت قبل أن ينطلق. فنهضت، وسرت خلف آثار الحيوان. بدأت المسافة تتسع بين الآثار. بدأ الحيوان يجري بأقصى سرعة.

فتوقفت عن السير.

كانت آثار الحيوان المتسارع تدور حول الطريق المحيط بالمتاجر، ثم خلف المتاجر، وأخيراً، حيث انتهى الرصيف، وبدأت الأرض الترابية، وهنا اختفت الآثار.

كان عليّ أن أقف هنا، إذ على بعد خمس خطوات مني، جثم صف من الرجال على الأرض في خط يكاد يكون مستقيماً. كانوا يتغوطون.

كنت في حي الفقراء.

كان ذو الشفتين الورديتين قد أخبرني عن هذا المكان؛ كل أولئك العمال الذين يعملون في بناء المتاجر والبنايات السكنية العملاقة يعيشون هنا. كانوا من قرية في (الظلام)؛ ولا يحبون مجيء الغرباء، إلا من يأتون لغرض ما بعد حلول الظلام. كان الرجال يتغوطون في الهواء الطلق كأنهم كانوا يعملون جداراً للدفاع أمام الحي، جداراً يبعد أي

رجل محترم. ونشرت الريح الرائحة الكريهة باتجاهي.

وجدت ثغرة في خط المتغوطين. كانوا جاثمين وكأنهم تماثيل حجرية.

هؤلاء الناس يبنون منازل للأغنياء، لكنهم يعيشون في خيم مغطاة بالمشمع ومنفصلة عن بعضها بعضاً بممرات ذات خطوط من المجاري. توجهت بطريقي حول الزجاج المتكسر والأسلاك وأعمدة النور المحطمة. تبدلت الرائحة الكريهة للبراز برائحة كريهة أقوى للمخلفات الصناعية. انتهى الحي إلى بركة مجارٍ مفتوحة - مررت بنهر صغير من الماء الأسود يجري ببطء، وثمة فقاعات تلمع فيه ودوائر تنتشر على سطحه. كان هناك طفلان يخوضان في الماء الأسود.

ظهرت ورقة نقدية من فئة المئة روبية تتطاير في الهواء فوق المجرى. راقبها ولدان فاغرَي الثغرين ثم هرعا لالتقاطها قبل أن تبتعد. أمسك بها أحدهما وراح الآخر يضربه، وطفقا يتصارعان وهما يتخبطان في الماء الأسود.

عدت إلى صف المتغوطين. كان أحدهم قد انتهى، وغادر بعد أن ملأ مكانه.

جثمت إلى جانبهم، وابتسمت.

البعض منهم أبعدوا عيونهم في الاتجاه الآخر: لا يزالون من البشر. أما البعض الآخر فقد حدق إليّ بوقاحة كأن لا حياء لديهم مطلقاً. ثم رأيت أحدهم، كان نحيفاً وأسود البشرة، ويبتسم لي، كأنه كان فخوراً بما يفعله.

بقيت جاثماً، وحركت نفسي إلى مكانه وواجهته. ابتسمت له ابتسامة عريضة. وكذلك فعل هو.

بدأ يضحك - ورحت أضحك أنا الآخر - ثم ضحك المتغوطون كلهم.

صحت: "ستتكفل بمصاريف زواجك".

فصاح هو أيضاً: "ستتكفل بمصاريف زواجك".

- "وسـ... لك زوجتك، بالرام!".

- "وسـ... لك زوجتك، بالرام!".

وبـدأ يضحـك؛ يضحـك بشـكل هسـتيري حتـى إنـه سـقط علـى وجهه وهو لا يزال يضحك عارضاً مؤخرته الملطخة على سـماء دلهي الملطخة.

حيـن عـدت، كانـت المتاجـر قـد فتحـت. غسـلت وجهـي ويـدي من وسـاخة الحي في دورة المياه العامة. ودخلت إلى مرأب السـيارة، فوجدت مفتاح ربط، فنويت استعماله في ضربتين عمليّتين، وأخذته إلى غرفتي.

كان هنالك فتى ينتظرني قرب سـريري، يحمل رسـالة بين أسـنانه بينما كان يزرّر سرواله. التفت حوله حين سمعني؛ سقطت الرسالة من فمه إلى الأرض. وسقط مفتاح الربط من يدي في الوقت نفسه.

- "لقد أرسلوني إلى هنا. ركبت الحافلة ثم القطار، وسألت عنك الناس حتى وصلت إليك". ونظر نحوي بطرف عينيه: "قالوا إن عليك أن تعتني بي وتعلمني السياقة أيضاً".

- "من أنت بالله عليك؟".

قـال: "دارام. أنـا ابـن العمـة لوتـو الرابـع. لقـد رأيتنـي في زيارتك الأخيـرة إلـى لاكسـمانغار. كنت أرتـدي القميص الأحمر. وقبلتني هنا". وأشار إلى قمة رأسه.

التقط الرسالة وسلمها إليّ.

حفيدي العزيز،

مضى وقت طويل منذ أن زرتنا، ومضى وقت أطول، ما مجموعه

أحد عشر شهراً ويومان، على آخر مرة أرسلت إلينا فيها مالاً. لقد أفسدت المدينة روحك وجعلت منك أنانياً ومغروراً وشريراً. كنت أعرف منذ البداية أن ذلك سيحدث لأنك كنت فتىً حقوداً ومتعالياً. في أي فرصة تسنح لك كنت تحدق إلى نفسك في المرآة فاتحاً شفتيك، وكان عليّ أن أقرص أذنيك حين أطلب منك عمل أي شيء. أنت تشبه أمك بالضبط. فلديك طبيعتها نفسها لا طبيعة أبيك السمحة. حتى الآن، نحن نتحمل معاناتنا بصبر، لكن الحال لن يدوم هكذا. لا بد لك من أن تعاود إرسال المال إلينا. وإن لم تفعل، فسنخبر سيدك. كذلك قررنا أننا سنعتمد على أنفسنا في ترتيب أمر زواجك، وإن لم تأتِ، فسنرسل إليك زوجتك بالحافلة. إنني أقول لك هذه الأشياء ليس لأهددك بل بدافع الحب. ألست جدتك؟ كيف كنت أحشو فمك بالحلويات؟! كذلك من واجبك العناية بدارام، وتعتني به كأنه ابنك. واهتم بصحتك، وتذكر أنني أحضر لك طبق دجاج رائعاً سيرسل إليك عبر البريد، مع الرسالة التي سأرسلها إلى سيدك.

جدتك المحبة

قَسَم.

طويت الرسالة ووضعتها في جيبي، ثم صفعت الفتى بقسوة حتى إنه ترنح إلى الوراء واصطدم بجانب السرير ووقع عليه ساحباً الناموسية وهو يسقط.

قلت له: "انهض. سأضربك مجدداً".

التقطت مفتاح الربط ورفعته فوق رأسه، ثم رميت بالمفتاح على الأرض.

ازرق وجه الفتى، بعد أن انشقت شفته وكانت تنزف ولم يكد

يقول كلمة واحدة.

جلستُ على الناموسية، أرتشفُ من زجاجة الشراب الاسكتلندي التي فرغ نصفها. راقبتُ الفتى.

كنت أقترب من شفير الكارثة. كنت مستعداً لقطع رقبة سيدي؛ وأنقذني قدوم هذا الفتى من جريمة القتل (وتمضية بقية العمر في السجن).

في ذلك المساء، أخبرت السيد آشوك أن عائلتي قد أرسلت مَن يساعدني، شخصاً يعتني بالسيارة، وبدلاً من أن يغضب لأن عليه الآن أن يطعم فماً آخر، وهو الأمر الذي فعله أغلب السادة قال: "إنه فتى ذكي. يشبهك. ما الذي حدث لوجهه؟".

التفت إلى دارام: "أخبره".

نظر بطرف عينيه مرتين. كان يفكّر.

- "سقطت من الحافلة".

ولد ذكي.

فقال السيد آشوك: "انتبه إلى نفسك في المستقبل. شيء عظيم بالرام، ستكون لك رفقة منذ الآن".

كان دارام فتى هادئاً. لم يطلب مني شيئاً. نام على الأرض حيث أمرته أن ينام، ولم يهتم إلا بنفسه. وإذ شعرت بالذنب تجاهه أخذته إلى المقهى.

- "من يدرّس في المدرسة هذه الأيام دارام؟ هل لا يزال الأستاذ كريشنا؟".

- "نعم، خالي".

- "هل لا يزال يسرق نقود الزي المدرسي والغذاء؟".

- "نعم، خالي".

- "رجل طيب".

- "ذهبت إلى المدرسة لخمس سنوات وبعد ذلك قالت قَسَم إن ذلك يكفي".

- "دعنا نرى ما الذي تعلمته في هذه السنوات الخمس. هل تعرف جدول ضرب الثمانية؟".

- "نعم خالي".

- "واحد في ثمانية يساوي ثمانية".

- "هذا سهل، ماذا بعد؟".

- "اثنان في ثمانية يساوي ستة عشرة".

- "انتظر". حسبت بأصابعي للتأكد من صحة كلامه. "حسناً، استمر".

- "هلا طلبت لي شاياً من فضلك". جلس ذو الشفتين الورديتين إلى جانبي. وابتسم لدارام.

قلت له: "اطلب أنت بنفسك".

زم شفتيه استياءً: "هل تكلمني بهذه الطريقة، يا بطل الطبقة العاملة؟".

كان دارام يراقبنا بهدوء، لذلك قلت: "هذا الفتى من قريتي، من عائلتي وأنا أتحدث إليه الآن".

- "ثلاث ثمانيات، أربعة وعشرون".

قال ذو الشفتين الورديتين: "لا يهمني من هو، اطلب لي شاياً يا بطل الطبقة العاملة".

مد كفه قريباً من وجهي؛ بأصابعه الخمسة. وكان يقصد، أريد خمسة آلاف روبية.

- "لا أملك شيئاً".

- "أربع ثمانيات، اثنان وثلاثون".

رسم خطاً على رقبته وابتسم. سيعلم سيدك بكل شيء.

- "ما اسمك أيها الفتى؟".

- "دارام".

- "اسم جميل. هل تعرف ماذا يعني؟".

- "نعم سيدي".

- "هل يعرف خالك معناه؟".

فقلت له: "اسكت".

حان وقت تنظيف المقهى. أحد العناكب البشرية، أسقط رقعة قماش على الأرض، وبدأ يزحف بها، دافعاً أمامه ماءً متموجاً كريه الرائحة أسود كالحبر. حتى الفئران جثمت خارج المتجر. كذلك فعل الزبائن لأن الماء الموحل كان يتطاير عليهم بينما يمر بهم. أعقاب السجائر، وأوراق النايلون الملوّنة البراقة، ورزم من تذاكر الحافلة، ونُتَفٌ من البصل، وأوراق من النعناع كانت تطفو على الماء؛ كان انعكاس المصباح الكهربائي الزجاجي المشع على الماء الموحل يجعله مثل حجر كريم أصفر.

إذ مرّ بقربي الماء الأسود، قال صوت في داخلي: "ولكن قلبك قد اسودّ أكثر من ذلك، مونا".

في تلك الليلة استيقظ دارام عندما سمع الصراخ. فجاء إلى الناموسية.

- "ما الذي يجري خالي؟".

- "أطفئ النور أيها الأحمق! أطفئ النور!".

أطاع الأمر، ورآني مشلولاً داخل الناموسية: ولم أستطع حتى الإشارة إلى الشيء. كان أبو بريص من النوع ثخين الجلد قد وقع عن الجدار على فراشي.

راح دارام يبتسم.

- "أنا لا أمزح أيها الأبله، أبعده عن فراشي!".

مد يده إلى داخل الناموسية وأمسك به ثم سحقه بقدمه.

- "ارمه بعيداً، بعيداً خارج الغرفة، خارج البناية".

رأيت الاندهاش في عينيه: رجل بالغ مثل خالي خائف من أبي بريص!

وفكرت، عندما أطفأ النور. لن يشك أبداً في أنني أخطط لشيء.

بعد لحظة تلاشت ابتسامتي.

ما الذي كنت أخطط له؟

بدأت أتعرق. وحدقت إلى آثار الكف المجهولة على جص الحائط.

سمعت طرقات عكاز على الكونكريت؛ كان الحارس الليلي لباكنغهام يقوم بجولته حاملاً عكازه الطويلة. وبعد أن تلاشت الطرقات لم تكن هناك أي ضوضاء في الغرفة عدا أزيز الصراصير وهي ملتصقة بالجدار أو تطير في المكان. كانت ليلة حارة ولزجة. من المؤكد أنه حتى الصراصير كانت تتعرق.

أكاد لا أتنفس.

حين شعرت بالأرق، بدأت بترديد هذين البيتين الشعريين، مرة بعد أخرى.

كنت أبحث عن مفتاح لسنوات

ولكن الباب كان موصداً دائماً.

وخلدت إلى النوم.

* * *

كان عليّ أن ألاحظ الإعلانات المستنسخة على الجدران التي تصور يدين مقيدتين بالحديد. كان عليّ أن أقف وأستمع إلى الشباب الذين يشدون رؤوسهم بالشرائط الحمراء وهم يصيحون من الشاحنات...

لكنني كنت غاطساً بمشاكلي الخاصة فلم أنتبه مطلقاً إلى شيء مهم يحدث لبلدي.

بعد يومين كنت آخذاً السيد آشوك إلى متنزهات لودي برفقة الآنسة أوما؛ كان يمضي المزيد والمزيد من الوقت معها هذه الأيام. كانت الرومانسية في حالة ازدهار. واعتاد أنفي على عطرها؛ ولم أعد أعطس عندما تتحرك.

- "إذاً، أنت لم تفعلها بعد آشوك؟ هل سيتكرر الأمر مجدداً؟".

- "ليس الأمر بهذه البساطة، أوما. كنا أنا وموكيش قد تقاتلنا من أجلك من قبل. سأثبت قدميّ. أمهليني بعض الوقت فحسب، عليّ أن أتجاوز الطلاق... بالرام، لماذا رفعت صوت الموسيقى هكذا؟".

- "أحبها. إنها رومانسية. ربما فعل ذلك عن قصد".

- "انظري، سيحدث ما نريده. ثقي بي. إنه فقط... بالرام، لماذا خفضت صوت الموسيقى بالله عليك؟ في بعض الأحيان يكون هؤلاء الناس الآتون من (الظلام) أغبياء جداً".

- "أخبرتك بذلك من قبل".

انخفض صوتها.

التقطت الكلمات بديل وسائق ومحلي التي وردت في كلامهما بالإنكليزية.

ألم تفكر في الحصول على سائق بديل؛ سائق محلي؟

كان متمتماً في جوابه.

لم أستطع سماع كلمة منه.

نظرت عبر مرآة الرؤية الخلفية: أردت أن أواجهه، العين بالعين، رجلاً لرجل. ولكنه لم ينظر إليّ عبر المرآة. لم يجرؤ على مواجهتي.

أقول لك، كان يمكنك حينذاك أن تسمع احتكاك أسناني. كنت أعتقد أنني أخطط له؛ وكان هو يخطط لي! فالأغنياء متقدمون علينا

بخطوة دائماً، أليس كذلك؟

حسناً، ليس هذه المرة. فهو إذ يقوم بخطوة أقوم بخطوتين.

في الخارج على الطريق، كان يجلس أحد باعة الرصيف إلى جانب هرم من خوذ للدراجات النارية مغلفة بالبلاستك إذ بدت مثل هرم من الرؤوس المقطوعة.

ما إن كنا قريبين من المتنزهات، حتى رأينا الشوارع مقطوعة جميعاً: خط من الشاحنات قد احتشد أمامنا، امتلأ بالرجال الذين كانوا يصيحون:

- "يحيا الاشتراكي العظيم! يحيا صوت فقراء الهند!".

- "ما الذي يجري؟".

- "ألم تسمع الأخبار اليوم، آشوك؟ إنهم يعلنون النتائج".

قال: "اللعنة، أوقف عمل القرص بالرام وشغّل الراديو".

علا صوت الاشتراكي الكبير. كان هنالك لقاء معه.

- "تبيّن الانتخابات أن الفقراء لن يتم تجاهلهم. لن يسكت (الظلام). لا ماء في صنبورنا، وما الذي قدمتموه لنا يا شعب دلهي؟ تقدمون لنا هواتف نقالة؟ هل يمكن لإنسان أن يشرب هاتفاً حين يعطش؟ تسير النساء لعدة أميال كل صباح لتعثر على دلو من الماء النظيف".

- "هل تنوي أن تكون رئيساً لوزراء الهند؟".

- "لا تسألني مثل هذا السؤال. ليس لدي طموحات ذاتية. لست إلا صوت الفقراء والمحرومين من التصويت".

- "ولكن من المؤكد سيدي".

- "دعني أقول كلمة أخيرة لو سمحت لي. كل ما كنت أريده هند يمكن فيها لأي فتى في أي قرية أن يحلم بأن يصبح رئيساً للوزراء. الآن، كما كنت أقول، النساء يسرن لعدة...".

تبعاً لما نقله الراديو، إن الحزب الحاكم قد سقط في الانتخابات. وصعدت أحزاب جديدة إلى السلطة. كان حزب الاشتراكي الكبير أحدها. لقد حصل على نصيب وافر من أصوات ناخبي (الظلام). وحين عدنا إلى غوركون كانت جماعات من مناصريه تتوافد من (الظلام). كان مناصروه يسوقون سياراتهم أنى شاؤوا، ويفعلون ما يشاؤون، ويصفرون إلى أي امرأة يشعرون أنها تحب التصفير لها. لقد تم اجتياح دلهي.

لم يستدعِني السيد آشوك لبقية اليوم؛ عند المساء نزل وقال إنه يريد الذهاب إلى فندق أمبريال. كان يتحدث عبر الهاتف النقال طوال الوقت، ضاغطاً على الأزرار ويتحدث صارخاً:

- "لقد فعلوها بنا، أوما. من أجل هذا أكره العمل الذي أقوم به. نحن تحت رحمة هؤلاء...".

- "لا تصرخ بي موكيش. أنت من قال لي إن الانتخابات معروفة النتائج مسبقاً. أجل، أنت! والآن لن نخرج من فوضى ضريبة الدخل".

- "حسناً، إنني أفعل ذلك يا أبي! سأقابله الآن في الأمبريال!".

كان لا يزال يتحدث عبر الهاتف حين أنزلته أمام فندق الأمبريال. مرت اثنتان وأربعون دقيقة، ثم جاء مع رجلين. انحنى على النافذة وقال: "افعل ما يطلبانه منك، بالرام. أنا سأركب في سيارة أجرة. وحين ينتهيان اجلب السيارة إلى باكنغهام".

- "نعم، سيدي".

ربّتا على ظهره؛ انحنى، وفتح لهما البابين بنفسه. إن كان يقبل المؤخرة هكذا، فلا بد من أنهما من السياسيين.

ركب الرجلان السيارة. بدأ قلبي يخفق. كان الرجل الذي إلى جهة اليمين هو بطل طفولتي فيجاي، ابن مربي الخنازير الذي تحول إلى سائق حافلة ثم إلى سياسي من لاكسمانغار. لقد غير زيه مرة أخرى،

وها هو يرتدي الآن بذلة ويضع ربطة عنق تناسب رجال الأعمال الهنود الحديثين.

أمرني أن أقود السيارة إلى آشوكا رود؛ التفت إلى رفيقه وقال: "أخو... أعطاني سيارته في النهاية".

نخر الرجل الآخر. أنزل زجاج السيارة وبصق: "إنه يعلم أنه من المحتم عليه أن يبدي بعض الاحترام لنا، أليس كذلك؟".

ضحك فيجاي صاخباً. ورفع صوته: "هل لديك أي شراب في السيارة يا بني؟".

التفتُّ؛ كانت هناك كتل ذهبية سميكة ترصع أسنانه المتآكلة.

- "نعم، سيدي".

- "دعنا نراه".

فتحت حجيرة القفاز، وسلمته الزجاجة.

- "إنه نوع جيد. هل لديك كؤوس يا بني؟".

- "أجل سيدي".

- "ثلج؟".

- "كلا، سيدي".

- "لا بأس بذلك. دعنا نشربه من دون ثلج. اسكب لنا يا بني".

سكبت لهما فعلاً، بينما كنت أسوق الهوندا سيتي بيدي اليسرى. أخذا الكأسين وشربا الشراب الاسكتلندي كأنه عصير ليمون.

- "إن لم يكن جاهزاً، فأخبرني. سأرسل المزيد من الشباب ليتحدثوا إليه".

- "كلا، لا تقلق. دائماً ما يدفع أبوه في النهاية. هذا الفتى كان في أميركا ورأسه مليء بالفضلات. ولكنه سيدفع أيضاً في النهاية".

- "كم؟".

- "سبعة. كنت سأستقر على الخمسة، ولكن أخا... عرض ستة؛ إنه ذو رأس هش... ثم قلت سبعة، فقال موافق. أخبرته أنه إن لم يدفع، فسنلوي ذراعيه وأذرعة أبيه وأخيه، وكل سارقي الفحم، وسنُفشِل كل خططهم في التهرب من الضريبة. لذلك بدأ يتعرّق، وسيدفع الآن".

- "هل أنت متأكد، بودي لو أرسل إليه بعض الأولاد. أحب أن أرى أحد الأغنياء في حالة تستحق الرثاء".

"سيكون هناك آخرون. هذا الشخص لا يستحق المتاعب. قال إنه سيجلبها يوم الاثنين. سنقوم بذلك في الشيراتون. هنالك مطعم جيد في الأسفل. مكان هادئ".

- "جيد. وسيدعونا إلى الغداء كذلك".

- "ذهب ولم يقل شيئاً. لديهم كباب لذيذ هناك".

أفرغ أحد الرجلين الشراب الاسكتلندي في فمه، وابتلعه ثم تجشأ، ومص أسنانه.

- "هل تعلم ما أفضل ما في الانتخابات؟".

- "ما هو؟".

- "الطريقة التي انتشرنا بها في الجنوب. وحصلنا على موطئ قدم في بنغلور أيضاً. وأنت تعلم أن المستقبل هناك".

- "الجنوب؟ هراء".

- "لِمَ لا؟ واحدة من كل ثلاث بنايات مكاتب تبنى في الهند تُبنى واحدة منها في بنغلور. إنها المستقبل".

- "اللعنة على كل ذلك. لا أصدق كلمة من ذلك. الجنوب مليء بالتاميل. هل تعلم من هم التاميل؟ إنهم الزنوج. نحن أبناء الآريين الذين جاؤوا إلى الهند وجعلناهم عبيدنا. والآن يعطوننا الدروس. زنوج".

"بني"، مال فيجاي إلى الأمام بكأسه "المزيد من الشراب".

سكبت لهما ما تبقى في الزجاجة تلك الليلة.

قرابة الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، أعدت السيارة إلى المجمع السكني في غوركون. كان قلبي يخفق سريعاً، ولم أرغب في مغادرة السيارة على عجل. غسلتها ومسحتها ثلاث مرات. كانت الزجاجة مرمية على أرضية السيارة. حتى الزجاجة وهي فارغة لها ثمن في السوق السوداء. التقطتها وسرت باتجاه مكان نوم الخدم.

لا مانع لدى وردي الشفتين لو أيقظته بشأن زجاجة الشراب الفارغة.

سرت أدير الزجاجة برسغي، شاعراً بثقلها بالرغم من أنها فارغة.

لاحظت أن قدميّ كانتا تتباطآن بينما كانت الزجاجة تدور أسرع فأسرع.

كنت أبحث عن المفتاح لسنوات...

تردد صدى تحطم الزجاجة عبر المرأب الفارغ، لا بد من أن الصوت وصل إلى قاعة الانتظار وتردد عبر طوابق البناية حتى الطابق الثالث عشر.

انتظرت لبضع دقائق، متوقعاً أن يهرع أحد إلى حيث أنا.

لا أحد. أنا بأمان.

رفعت ما تبقى من الزجاجة إزاء الضوء. نتوءات طويلة وحادة كالمخالب.

رائع.

جمعت بقدميّ أجزاء الزجاجة المتكسرة التي تناثرت حولي في كومة، ومسحت الدم عن يدي، ثمّ وجدت مكنسة، ونظّفت بها المكان، وركعت على ركبتي بحثاً عن أي شظايا صغيرة لم أستطع التقاطها؛ كان ثمة صدى للمرأب يتوافق مع بيت قصيدة يتتالى مرة بعد أخرى:

ولكن الباب كان موصداً دائماً.

كان دارام نائماً على الأرض؛ والصراصير تزحف حول رأسه. أيقظته

وقلت له: "نم داخل الناموسية". دخل فيها يغلبه النعاس؛ واضطجعت أنا على الأرض، متحدياً الصراصير. كان بعض الدم لا يزال على كفي: ثلاث قطرات حمراء تشكلت على كفي مثل خط من الخنافس الصغيرة على ورقة. مصصت كفي مثل طفل، ونمت.

لم يطلبني السيد آشوك كي أقله إلى أي مكان يوم الأحد. غسلت الصحون في المطبخ، ومسحت الثلاجة، وقلت له: "أريد هذا الصباح استراحة، سيدي".

فتساءل وهو يخفض الجريدة: "لماذا؟ لم تطلب أبداً أن يكون الصباح كله إجازة لك من قبل. إلى أين أنت ذاهب؟".

وأنت لم تسألني أبداً من قبل إلى أين كنت أذهب حين أغادر المنزل. ما الذي فعلته لك الآنسة أوما؟

- "أريد أن أمضي بعض الوقت مع الفتى، سيدي. في حديقة الحيوانات. أظنه يود رؤية كل تلك الحيوانات".

ابتسم: "أنت رجل عائلة طيب، بالرام. اذهب، وتمتع مع الفتى".

عاد إلى قراءة جريدته، لكنني لمحت لمعة مكر في عينيه وهو يتصفح الجريدة ذات الطبعة الإنكليزية.

حين خرجنا من أبراج باكنغهام طلبت من دارام أن ينتظرني، وعدت لأراقب مدخل البناية. بعد مرور نصف ساعة نزل السيد آشوك إلى قاعة الانتظار. جاء لرؤيته رجل نحيل داكن البشرة من طبقة الخدم. تحدثا لبعض الوقت، ثم انحنى الرجل النحيل وغادر. كانا يبدوان مثل رجلين عقدا صفقة ما.

عدت إلى دارام الذي كان ينتظر. "هيا بنا!".

ركبنا الحافلة إلى أولد فورت (القلعة القديمة)، حيث مكان حديقة الحيوانات الوطنية. أبقيت يدي على رأس دارام طوال الوقت. كان يظن أنني أفعل ذلك بدافع العاطفة، والحقيقة أنني كنت أمنع بذلك يدي عن الارتعاش؛

كانت ترتعش طوال الصباح مثل ذيل سحلية وقعت على الأرض.

من المؤمل أن الضربة الأولى ستكون لي. كل شيء في مكانه الآن، ولا مجال للخطأ، لكنني أود أن أقول لك إنني لست بالرجل الشجاع.

كانت الحافلة مزدحمة، وتحتم علينا أن نبقى واقفين طوال السفر. فتعرقنا كالخنازير. كنت قد نسيت كيف يكون حال ركوب الحافلة لمسافة طويلة في الصيف. حين توقفنا عند الإشارة الحمراء، وقفت إلى جانب الحافلة سيارة مرسيدس بنز. ابتسم لنا سائقها من خلال البرودة المنعشة في داخل بيضته، مظهراً لنا أسنانه الحمراء.

ثمة طابور طويل عند طاولة المحاسب المسؤول عن التذاكر للدخول إلى حديقة الحيوانات. يمكنني أن أتفهم حضور العائلات الكثيرة التي تروم الدخول إلى الحديقة، لكن الذي يحيرني رؤية الكثير جداً من الشبان والشابات وهم يدخلون الحديقة يداً بيد، متضاحكين، يقرصون بعضهم بعضاً ويتغامزون كأن الحديقة مكان رومانسي. كان ذلك شيء لا معنى له في تقديري.

الآن، سيدي رئيس الوزراء، آلاف الأجانب يطيرون إلى بلادي للتنوّر. يذهبون إلى الهمالايا أو إلى بيناراس أو إلى بوذا غايا. ويغيبون في أوضاع اليوغا أو يدخنون الحشيشة أو يقومون بأمور مخلة بالآداب مع شحاد واحد أو اثنين، ويظنون أنهم تنوروا.

ها!

لو أنكم، أيها الناس، تأتون إلى الهند من أجل التنوّر، فانسوا نهر الغانغا... انسوا المعتزلات الهندوسية واذهبوا مباشرة إلى حديقة الحيوانات الوطنية في قلب نيودلهي.

رأينا أنا ودارام اللقالق ذات المناقير الذهبية وهي تجلس على أشجار النخيل وسط البحيرة الصناعية. رأيناها تخوض في ماء البحيرة

الأخضر، وأرتنا آثاراً وردية على أجنحتها. في الخلف، يمكنك أن ترى الجدران المتصدعة للقلعة القديمة.

كان الشاعر العظيم إقبال محقاً. في اللحظة التي تدرك فيها ما هو جميل في هذا العالم تكف عن أن تكون عبداً. فليذهب الناكساليون وبنادقهم التي تشحن من الصين إلى الجحيم. لو أنك علمت فتى فقيراً كيف يرسم، فتلك ستكون نهاية الأغنياء في الهند.

تأكدت من أن أجعل دارام يقدّر القيمة الرائعة للخطوط العامة للقلعة في ارتفاعها وهبوطها، والطريقة التي امتلأت فيها فتحاتها بالسماء الزرقاء، والطريقة التي تلمع فيها صخورها تحت الضوء.

سرنا لنصف ساعة من قفص إلى قفص. كان الأسد واللبوة منفصلين ولا يتحدثان مثل زوجين حقيقيين في المدينة. كان فرس النهر مضطجعاً في بركة طينية هائلة؛ رغب دارام بأن يرميه بحجر كالآخرين ليحركه، لكنني أخبرته أن ذلك شيء قاسٍ. فأفراس النهر تقبع في الطين ولا تفعل شيئاً؛ هذه هي طبيعتها.

فلندع الحيوانات تعيش كالحيوانات، ولندع البشر يعيشون كالبشر. تلك هي فلسفتي باختصار.

أخبرت دارام أن وقت العودة قد حان، لكنه توسل: "خمس دقائق، خالي".

- "حسناً، خمس دقائق".

وصلنا إلى قفص محاط بأعمدة من البامبو، ورأينا داخل الفتحات نمراً، يسير باستقامة جيئة وذهاباً.

لم يكن أي نمر.

إنه المخلوق الذي يولد مرة في كل جيل في الغابة.

راقبته يتمشى خلف أعمدة البامبو. ثمة خطوط سوداء وفراء أبيض يشبه ضوء الشمس يضيء عبر الشقوق في البامبو المعتم؛ كان ذلك يشبه

مشاهدة بكرات فيلم قديم بالأسود والأبيض. كان يسير في الخط نفسه، مرة بعد أخرى... من أول عمود بامبو إلى آخر عمود، ثم يلتف من جديد مكرراً مسيرته السابقة، بالخطوة نفسها، مثل شيء مسحور.

كان ينوم نفسه مغناطيسياً من خلال المسير بهذه الطريقة؛ وتلك كانت الطريقة الوحيدة التي تجعله يحتمل القفص.

بعد ذلك توقف الشيء الذي خلف أعمدة البامبو. والتفت إليّ وجهاً لوجه. التقت عينا النمر بعينيّ، مثلما تلتقي عيناي بعيني سيدي، غالباً، عبر مرآة السيارة.

واختفى النمر على حين غرة.

رنّ جرس بين قاعدة عمودي الفقري وملتقى فخذي. وبدأت ركبي تختض؛ شعرت أنني خفيف. امرأة ما صرخت بقربي: "عيناه تدوران! سينهار!"، حاولت أن أصرخ بها: "ليس صحيحاً: أنا لا أنهار!"، حاولت أن أريها أنني بحالة جيدة، لكن قدميّ كانتا تنزلقان. وكانت الأرض تميد تحتي. ثم انطلقت المخالب من الطين لتنغرز في لحمي وتسحبني إلى الأرض المظلمة.

كانت آخر فكرة لدي، قبل أن يغيب كل شيء في الظلام، الآن، قد فهمت تلك الأوجاع والنشوة... فهمت الآن لماذا يأتي العشاق إلى حديقة الحيوانات.

في تلك الأمسية، جلسنا أنا ودارام على الأرض في غرفتي، ونشرت أمامه ورقة رسالة زرقاء وسلمته قلماً.

– "أريد معرفة مهارتك في الكتابة، دارام. أريدك أن تكتب إلى جدتي وتخبرها بما حدث في حديقة الحيوانات".

فكتب ذلك بيده البطيئة الجميلة. أخبرها عن أفراس النهر والشمبانزي وغزال المستنقع.

– "أخبرها عن النمر".

تردد ثم كتب: رأينا النمر الأبيض في القفص.

- "أخبرها بكل شيء".

نظر إليّ، وكتب: انهار خالي بالرام أمام قفص النمر الأبيض.

"الأفضل أن أملي عليك؛ اكتب".

وكتب كل شـيء خلال عشـر دقائق، كتب بسـرعة حتى إن القلم اسـودّ وراح ينضح بفيض من الحبر، فتوقف ومسـح القلم بشـعر رأسـه، ثم عاد إلى الكتابة. وفي النهاية قرأ لي ما كتبه:

طلبت النجدة من الناس الذين من حولي، وحملنا خالي إلى شجرة بانيان. سكب أحدهم الماء على وجهه. ضرب الناس الطيبون خالي على وجهه بقوة وأيقظوه من غيبوبته ثم التفتوا إليّ وقالوا: "خالك يهذي؛ إنه يودع جدته. لا بد من أنه يعتقد أنه سيموت". وفتح خالي عينيه فسألته: "هل أنت بخير يا خالي؟"، فأخذ يدي وقال: "أنا آسف، آسف". فسألته: "آسف عن ماذا؟"، فقال: "لن أستطيع أن أعيش بقية حياتي في قفص، يا جدتي. أنا آسف جداً". وركبنا الحافلة وعدنا إليغوركون، وتغدينا في المقهى. كان الجو حاراً جداً، وتعرقنا بشدة.

هذا كل ما حدث اليوم.

- "اكتب لها بعد ذلك ما تريده، وأرسل الرسالة غداً، حالما أغادر بالسيارة؛ ولكن ليس قبل ذلك. مفهوم؟".

* * *

هطل المطر طوال الصباح، نوع من المطر الملحاح.

سـمعته من دون أن أراه. ذهبت إلى الهوندا سـيتي، وضعت فيها عود البخور، ومسـحت المقاعد والملصقات، وقرصت الغول في فمه.

ثم رميت صرة تحت مقعد السائق. أغلقت كل الأبواب وأقفلتها.

ثـم، تراجعـت خطوتيـن عـن الهونـدا سـيتي، وانحنيت لهـا جامعاً يديّ.

ذهبـت لأرى مـا الـذي يفعلـه دارام. كان يبـدو منعزلاً، فصنعت له مركباً ورقياً، وجعلناه يبحر في ساقية صغيرة خارج المجمع السكني.

بعد الغداء دعيت دارام إلى غرفتي.

وضعت يدي على كتفيه؛ وجعلته يدور ببطء حتى صار وجهه إلى الجهة الأخرى مني. أسقطت روبية معدنية على الأرض.

- "انحنِ والتقطها".

راقبتـه يفعـل ذلـك. كان دارام يمشـط شـعره مثـل السـيد آشـوك بالضبط - يفرق شعره من الوسط - عندما تقف فوقه ترى خطاً أبيض واضحاً على جمجمته يؤدي إلى بقعة في هامة الرأس يتشعب منها شعر الإنسان.

- "قم باستقامة".

جعلته يدور دورة كاملة. أسقطت الروبية مرة أخرى.

- "التقطها مرة أخرى".

راقبت البقعة.

طلبـت منـه أن يجلـس فـي زاويـة الغرفـة ويراقبنـي، دخلـت فـي ناموسـيتي وطويت سـاقي، وأغمضت عيني، ووضعت كفّيّ على ركبتيّ، ورحت أتنفس بعمق.

لا أعرف كم من الوقت بقيت جالسـاً مثل بوذا، لكن ذلك انتهى حين جاء أحد الخدم ليخبرني أنني مطلوب عند الباب الأمامي. فتحت عينيّ؛ كان دارام جالساً في زاوية الغرفة، يراقبني.

قلت له: "تعالَ إلى هنا"؛ عانقته، ووضعت في جيبه عشر روبيات. كان سيحتاج إليها.

"لقد تأخرت، بالرام! الجرس يدق بجنون!".

سرت نحو السيارة، أدخلت المفتاح، وشغلت المحرك. كان السيد آشوك واقفاً عند المدخل حاملاً مظلةً وهاتفه المحمول. كان يتحدث عبر الهاتف حين دخل السيارة، وصفق الباب بقوة.

- "لا أزال غير مصدّق. الناس في هذه البلاد كانت لديهم الفرصة ليختاروا إعادة الحكومة الكفوءة إلى السلطة، لكنهم بدلاً من ذلك صوتوا لهذه الزمرة من قطاع الطرقات. إننا لا نستحق...". وضع الهاتف جانباً للحظة وقال: "أولاً سر بنا نحو المدينة، بالرام؛ وسأخبرك بعد ذلك إلى أين". ثم استأنف حديثه عبر الهاتف.

كانت الشوارع زلقة من الطين والمطر. لذلك كنت أسوق ببطء.

"... ديمقراطية برلمانية، أبي. لن نلحق بالصين لهذا السبب وحده".

كانت الوقفة الأولى في المدينة؛ عند أحد المصارف المعتادة. أخذ الحقيبة الحمراء ودخل، ورأيته داخل الغرفة الزجاجية، يضغط على أزرار الماكينة النقدية. حين عاد، أحسست بأن وزن الحقيبة قد ازداد على المقعد الخلفي. تحركنا من مصرف إلى آخر، وكان وزن الحقيبة الحمراء يزداد. شعرت أن ضغطها يزداد على أسفل ظهري، وكأن السيد آشوك وحقيبته ليسا في سيارة، بل كما لو أن أبي يأخذ الزبون وحقيبته في عربة سحب.

سبعمئة ألف روبية.

كانت كافية لشراء بيت ودراجة نارية ودكان صغير. حياة جديدة.

السبعمئة ألف روبية الخاصة لي.

- "الآن إلى شيراتون، بالرام".

- "نعم، سيدي".

أدرت المفتاح، وشغلت محرك السيارة، وحولت ناقل الحركة، ومن ثم تحركنا.

- "شغل موسيقى ستنغ، بالرام. ليس بصوت عالٍ".

- "نعم، سيدي".

شغلت القرص المضغوط. وصدح صوت ستنغ. ازدادت سرعة السيارة. مررنا بعد قليل بالتمثال البرونزي الشهير لغاندي وهو يقود أتباعه من الظلام إلى النور.

أصبح الشارع مقفراً الآن. وهطل المطر بشكل خفيف. لو أننا بقينا نسلك تلك الطريق، فسنصل إلى الفندق؛ أفخم الأماكن في عاصمة بلادي، حيث تمكث دائماً الرؤوس الكبيرة، مثلك، حين تزور البلاد. لكن دلهي مدينة يمكن فيها للحضارة أن تظهر وتختفي في خمس دقائق. وكان على الجهتين منا، في هذه اللحظة، مكان مقفر ومكب نفايات.

رأيته من خلال المرآة غير منتبهٍ إلى شيء غير هاتفه النقال. أضاء وجهه وهج أزرق انبعث من الهاتف. ومن دون أن يرفع رأسه سألني: "ما الأمر، بالرام؟ لماذا توقفت السيارة؟".

لمست الملصقات الممغنطة لكالي لتجلب لي الحظ، ثم فتحت حجيرة القفاز. ها هي؛ بقايا الزجاجة المكسورة، بمخالبها الزجاجية.

- "ثمة مشكلة في العجلة، سيدي. أريد منك دقيقتين".

انفتح باب السيارة، أُقسِم، قبل أن ألمسه حتّى. كنت تحت رذاذ المطر.

ثمة طين ندي في كل مكان. اتخذت طريقي عبر المطر والطين وجثمت قرب العجلة الخلفية اليسرى التي كانت مخفية عن الطريق بهيكل السيارة. كانت هنالك أجمة أشجار وبعدها امتداد لأرض مقفرة.

أنت لم تدرِ أبداً أن هذه الطريق خالية هكذا. كنت ستُقسِم إنها

قد دُبِّرت من أجلك.

الضوء الوحيد الذي في داخل السيارة كان الوهج الأزرق المنبعث من هاتفه النقال. مسحت الزجاج الذي أمامه بإصبعي. فالتفت إليّ من دون أن يفتح النافذة.

تلفظت بالكلمات: "ثمة مشكلة سيدي".

لم يفتح زجاج النافذة، ولم يخطُ خطوة خارج السيارة. كان يلعب بهاتفه فحسب ضاغطاً على الأزرار مبتسماً. ربما كان يرسل رسالة إلى الآنسة أوما.

كانت شفتاي قد رسمتا تكشيرة ابتسامة وهما تنضغطان على الزجاج الرطب.

تخلص من الهاتف. رسمت قبضة يد وإبهام على الزجاج أمامه. ففتح الزجاج، وألقى نظرة عدم ارتياح. كان صوت ستنغ الرقيق ينبعث من النافذة.

- "ما الأمر، بالرام؟".

- "هلا خرجت يا سيدي، هنالك مشكلة".

- "أي مشكلة؟".

لم يتزحزح جسده! كنت أعلم - الجسد كان يعلم - بالرغم من أن العقل بليد ليعلم بذلك.

- "العجلة، يا سيدي. أحتاج إلى مساعدتك. إنها مغروسة في الطين".

في تلك اللحظة تسلطت عليّ أضواء عالية: كانت هنالك سيارة قادمة على الطريق. انخلع قلبي من الخفقان. ولكنها مرت بنا فحسب، ونثرت الماء الموحل على قدمي.

وضع يده على الباب، وأوشك أن ينزل من السيارة لكن دافعاً غريزياً في المحافظة على الذات منعه.

- "المطـر يهطـل، بالـرام. ألا تعتقـد أنـه حـريّ بنـا أن نطلـب مساعدة؟".

انكمـش وتراجـع عـن البـاب. كان جسـده بعيـداً عنـي حتى الآن. فكرت، ها هو يفلت مني، وهذا ما أجبرني على فعل شيء كنت أعرف أنني أكرهه، حتى بعد سنوات. أنا في الحقيقة لم أرد أن أفعل ذلك، لم أرد منـه فـي الحقيقـة أن يعتقـد، حتـى فـي الدقيقتين أو الثلاث الباقية له من الحياة، أنني كنت ذلك السـائق الذي يلجأ إلى ابتزاز سـيده، ولكنه لم يترك أي اختيار.

- "لقد ظل يختلق لنا المشاكل منذ تلك الليلة التي ذهبنا فيها إلى الفندق في جانكبورا".

رفع نظره عن الهاتف ونظر إليّ في الحال.

- "ذلك الفندق الذي على شكل الحرف T تتذكره سيدي، أليس كذلك؟ منذ تلك الليلة، يا سيدي، تغير وضع السيارة".

فغر فاه وأغلقه. كان يفكر: ابتزاز؟ أم كان ذلك مجرد إشارة بريئة إلى الماضي لا تمنحه الوقت كي يستقر فكره؟

- "اخرج من السيارة، يا سيدي، وثق بي".

أطاعنـي بعـد أن وضـع الهاتـف علـى المقعد. مـلأ الوهج الأزرق للهاتف الداخل المظلم للسيارة لثانية، ثم انطفأ.

فتـح البـاب بعيـداً عنـي وخرج قرب الطريـق. جثوت على ركبتي، واختبأت خلف السيارة.

- "تعالَ إلى هنا، سيدي، العجلة المعطوبة من هذه الجهة".

جاء، محاذراً في طريقه من الطين.

- "هـذا هـو سـيدي، واحـذر مـن الزجاجـة المكسـورة التـي على الأرض". كان هنالك الكثير من النفايات على جانب الطريق مما جعل الأمر طبيعياً جداً.

- "هنا، دعني أرميها بعيداً. هذه هي العجلة، سيدي. أرجوك ألقِ نظرة عليها".

جثا على ركبتيه. نهضت فوقه، حاملاً الزجاجة خلف ظهري بذراع مطوية.

كان رأسه تحتي مثل كرة سوداء، وفي تلك الحلكة رأيت خطاً أبيض رفيعاً لفروة رأسه بين شعر مفروق بأناقة، يؤدي، مثل خط مرسوم على الطريق السريعة، إلى بقعة على قمة جمجمته؛ البقعة التي يتشعب منها شعر الإنسان.

تحركت الكرة السوداء؛ وكشر ليحمي عينيه من المطر، ونظر متطلعاً إليّ.

- "تبدو العجلة جيدة".

وقفت ساكناً، مثل تلميذ أمسك به معلمه. فكرت: لقد التقطها عقله؛ عقل الملاّكين. سيقف ويضربني على وجهي.

لكن ما فائدة كسب معركة عندما لا تعرف حتى إن هنالك حرباً قائمة؟

- "حسناً، أنت تعرف عن هذه السيارة أكثر مني، بالرام. دعني ألقي نظرة أخرى".

تفحص العجلة مرة أخرى. وظهرت أمامي الطريق السريعة السوداء مرة أخرى، مع العلامات البيضاء المرسومة التي تؤدي إلى بقعة الهامة.

- "هنالك مشكلة، سيدي. كان من الأحرى أن تبدلها منذ زمن طويل".

- "حسناً، بالرام". لمس العجلة، "لكنني في الحقيقة أعتقد أننا...".

أقحمت الزجاجة فيه. أكل الزجاج عظمه. أقحمتها ثلاث مرات

في هامة جمجمته، فتحطمت حتى الدماغ. إنها زجاجة قوية، تساوي بالفعل قيمة إعادة شرائها.

سقط الجسد المنصعق في الطين. سمعت هسيساً خرج من شفتيه، مثل هواء يخرج من عجلة مثقوبة.

سقطتُ على الأرض،كانت يدي ترتعش، وانزلقت الزجاجة، وكان عليّ أن ألتقطها بيدي اليسرى. نهض الشيء الذي أطلق الهسيس من شفتيه على يديه وركبتيه؛ وراح يزحف حول نفسه بشكل دائري، كأنه كان يبحث عمّن يحميه.

لماذا لا أكممه، وأتركه بين الشجيرات، منصعقاً وفاقد الوعي، حيث لا يمكنه عمل شيء لساعات، بينما أكون قد هربت؟ سؤال جيد؛ وقد فكّرت فيه كثيراً طوال الليل، بينما أنا جالس إلى مكتبي، أنظر إلى الثريا.

الجواب الأول الممكن، أنه من الممكن دائماً أن يستفيق ويزيل الكمامة عن نفسه ويستدعي الشرطة. لذلك لا بد لي من قتله.

الجواب الثاني الممكن، أن عائلته ستقوم بأشياء مرعبة لعائلتي: كنت قد حققت انتقامي مقدماً.

أُفضل الجواب الثاني.

وضعت قدمي على ذلك الشيء الزاحف، ومددته أرضاً. وثنيت ركبتي، كي أكون على الارتفاع المناسب لما أريد أن أقدم عليه. قلبت الجسد، كي يواجهني. ضغطت بركبتي على صدره. فتحت ياقة قميصه ومسحت بيدي على نحره لأحدد الثغرة.

عندما كنت طفلاً في لاكسمانغار، اعتدت أن ألعب مع والدي، كنت أتحسّس ثغرة النحر التي تجمع الرقبة بالصدر، المكان الذي تتفرع فيه كل الأوتار والأوردة باسترخاء عالٍ، هذه هي بقعتي المفضلة. حين

لمست هذه البقعة، الجزء الصغير من رقبة أبي، كنت أتحكم به؛ كنت أتمكن من إيقافه عن التنفس بضغطة من إصبعي.

فتح ابن اللقلق عينيه حالما اخترقت رقبته وتدفق دمه الحي على عينيّ.

كنت أعمى. كنت رجلاً حراً.

حين مسحت الدم عن عينيّ، كان السيد آشوك قد انتهى أمره. كان الدم المتدفق من رقبته سريعاً.

لكن مع ذلك، فإنني أؤكد لكم أن الموت بالتدرن الرئوي أسوأ من هذا بكثير.

بعد أن سحبت الجثة إلى ما بين الشجيرات، غطست وجهي ويدي في ماء المطر والوحل. التقطت الصرة التي قرب قدمي؛ القميص القطني الأبيض قصير الكمين، ذو الكلمة الإنكليزية. ارتديته بدلاً من قميصي. مددت يدي إلى علبة المناديل الورقية، مسحت وجهي ويدي لأنظفهما.

ثم ركبت السيارة، أدرت مفتاح التشغيل، ووضعت قدمي على دواسة البنزين، وأخذت الهوندا سيتي، أجمل السيارات، الشريك الأكثر أمانة في الجرائم، في رحلة أخيرة. وإذ لا أحد غيري في السيارة، أوقفت موسيقى ستنغ، ثم توقفت واسترخيت.

منذ الآن يمكنني أن أشغل الموسيقى حسب ما أشاء.

في محطة القطار، بعد ثلاث وثلاثين دقيقة، كانت العجلات الملونة لآلات الحظ والوزن تلمع. وقفت أمامها، محدقاً إلى توهجها ودورانها متسائلاً: هل يتحتم عليّ أن أعود لآتي بدارام؟

لو أنني تركته هناك الآن، فمن المؤكد أن الشرطة ستأتي لاعتقاله لكونه مشتركاً في الجريمة. وسيزجون به في السجن مع الرجال المتوحشين. وأنت تعرف ما الذي يحدث للأولاد الصغار عندما يزج

بهم في تلك الأوساط، يا سيدي.

من الناحية الأخرى لو أنني عدت كل هذه الطريق إلى غوركون، فقد يكتشف أحد ما الجثة... وعند ذلك (شددت قبضتي على الحقيبة) سيكون كل شيء قد انتهى ولا طائل منه.

جثمت على أرض المحطة حائراً باللاقرار. كانت هنالك ضجة صاخبة إلى يساري. ثمة دلو من البلاستيك يتأرجح، كأنه كان حياً، ثم رأيت وجهاً أسود مبتسماً يطل برأسه من الدلو. كائن صغير، طفل رضيع. وهنالك رجل وامرأة مكتسيان بالقذارة يجلسان إلى جانب الدلو، يحدقان إلى الفراغ. بين والديه المتهالكين كان هذا الشيء الصغير ينال فرصته في الحياة، يلعب بالماء وينشره على المارة. قلت: "لا تفعل ذلك، أيها الصغير". لكنه نشر المزيد من الماء، مكركراً بمتعة في كل مرة يضربني فيها. رفعت يدي. غطس في دلوه واستمر في الدفع من الداخل.

بحثت في جيوبي عن روبية معدنية، وتأكدت من أنها ليست روبيتين ورميت بها نحو الدلو.

ثم تنفست بعمق، ونهضت، ولعنت نفسي، وسرت خارج المحطة.

إنه يوم حسن حظك، دارام.

الليلة السابعة

هل تسمع ذلك، سيد جياباو؟ سأحوّل الأمر إليك.

أعلن وزير الصحة اليوم خطة للقضاء على الملاريا في بنغلور في نهاية هذه السنة. ووجّه تعليماته إلى موظفي المدينة كافة للعمل المتواصل من دون عطلة حتى يتم القضاء على الملاريا وتكون من الماضي. وسيتم صرف خمسة وأربعين مليون روبية من أجل القضاء على الملاريا.

ثمة أخبار أخرى، لقد أعلن رئيس الوزراء اليوم خطة للقضاء على سوء التغذية في بنغلور في غضون ستة أشهر. وأعلن أنه لن يكون هناك بعد الآن طفل واحد جائع في المدينة عند نهاية السنة. وعلى جميع الموظفين العمل على هذا الهدف. وستصرف خمسمئة مليون روبية للقضاء على سوء التغذية.

في أخبار أخرى، أعلن وزير المالية أن ميزانية هذا العام ستتضمن حوافز خاصة لتحويل قرانا إلى فراديس عالية التقنية...

هذه هي نوعية الأخبار التي يغذوننا بها من خلال راديو عموم الهند، ليلة بعد ليلة: وغداً في الفجر ستنشر في الصحف أيضاً. ما على الناس إلا ابتلاع هذه الفضلات. ليلة بعد ليلة، وصباحاً بعد صباح. شيء مدهش، أليس كذلك؟

سمعنا من الراديو ما يكفي. فلأطفئه. دعني الآن أنظر إلى الثريا للاستلهام.

إذاً!

يا صديقي القديم!

سنصل إلى خاتمة هذه القصة الرائعة. بينما كنت أقوم باليوغا هذا الصباح - صحيح، أستيقظ عند الحادية عشرة صباحاً كل يوم وأقوم

مباشرة بممارسة اليوغا لمدة ساعة - بدأت أتأمل تقدم قصتي، وقد أدركت أنني أكاد أنتهي منها. كل ما تبقى لأن يروى أنني تحولت من مجرم مطارد إلى عمود صلب من أعمدة المجتمع في بنغلور.

بالمناسبة، سيدي، ونحن نتحدث عن موضوع اليوغا، هل لي أن أقول فقط إن ساعة من التنفس العميق واليوغا والتأمل في الصباح هي ما تؤسّس البداية المتكاملة ليوم رجل الأعمال؟ ليست لدي أي فكرة عن كيفية تعاملي مع ضغوط هذا العمل الملعون من دون يوغا. أقترح أن تفرض ممارسة اليوغا في كل المدارس الصينية.

لكن دعنا نعود إلى قصتي، الآن.

أريد أولاً أن أوضح شيئاً عن حياة الهارب. فحياته بكونه هارباً لا تتمحور على الخوف فحسب؛ فحياة الهارب لها نصيبها من المتعة.

في ذلك المساء، بينما كنت أكنس قطع زجاجة الشراب المتكسرة في مرأب السيارة، قمت بخطة في كيفية الوصول إلى بنغلور. فلن يكون ذلك عبر قطار مباشر؛ كلا. فقد يراني أحد، وستعلم الشرطة أين ذهبت. وبدلاً من ذلك، نقلت نفسي من قطار إلى قطار، في طريق متعرجة كي أصل إلى بنغلور.

بالرغم من أن جدولي قد تقطع إلى أجزاء حين ذهبت لآتي بدارام - فقد كان نائماً في الناموسية، وأيقظته وقلت له إننا ذاهبان في إجازة إلى الجنوب، وسحبته إلى الخارج - وكان من الصعب عليّ الإمساك بالحقيبة الحمراء بيد وبدارام باليد الأخرى (ذلك لأن القطار مكان خطر لفتى صغير، كما تعرف، فثمة الكثير من الشخصيات المشبوهة هناك)، بالرغم من ذلك بدأت أتحرك وفق هذه الطريق المتعرجة للوصول إلى جنوب دلهي.

في اليوم الثالث من السفر بهذه الطريقة، والحقيبة الحمراء بيدي، وصلت إلى حيدر أباد ووقفت في طابور عند مقهى محطة القطار لتناول

الشاي قبل أن يتحرك قطاري. (كان دارام يحرس المقعد في العربة). كانت هنالك سحلية صغيرة فوق المقهى وكنت أنظر إليها بقلق، متأملاً أن تتحرك قبل أن يحين دوري في الحصول على الشاي.

التفتت السحلية إلى اليسار - هرعت نحو قطعة كبيرة من الورق على الجدار - سكنت لدقيقة هكذا، ثم انحرفت جانباً.

كانت تلك القطعة الكبيرة من الورق التي على الجدار هي عبارة عن إعلان للشرطة؛ إنها إعلان الشرطة عني. لقد وصلت إلى هنا قبلي. نظرت إليها مبتسماً ومتفاخراً.

تلاشت ابتسامتي في ثانية. فلسبب غريب - سترى أن الأشياء تجري في الهند بأسلوب قذر - تم جمع إعلاني مع إعلان آخر، عن رجلين إرهابيين من كشمير راما تفجير شيء ما.

تكاد تعتقد، وأنت تنظر إلى الإعلانين، أنني إرهابي أيضاً. كم ذلك مثير للقلق!

أدركت أنني كنت مراقباً. كان هنالك شخص يضع يديه خلف ظهره وينظر إلى الإعلان وإليّ بانتباه. فبدأت أرتعش. ابتعدت عن الإعلان، لكنني تأخرت جداً. في اللحظة التي رآني فيها أغادر المكان ركض خلفي، وأمسك بي من معصمي، وحدّق إلى وجهي.

ثم قال: "إلى ماذا يشير؟ الإعلان الذي كنت تقرأه؟".

- "اقرأه بنفسك".

- "لا أستطيع".

وفهمت الآن لماذا جاء يركض. إنه يأس الأمي من جذب انتباه المتعلم. وعرفت من لهجته أنه من (الظلام) أيضاً.

قلت: "إنهما الرجلان المطلوبان هذا الأسبوع. هذان الرجلان إرهابيان من كشمير".

- "ما الذي فعلاه؟".

- "فجرا مدرسة، وقتلا ثمانية أولاد".

- "وهذا الشخص ذو الشاربين؟" وضرب بمفصل إصبع يده اليمنى على صورتي.

- "إنه الشخص الذي أمسك بهما".

كـي أختلـق قصـة كنـت أقـرأ المطبوع على الجدار، مختلسـاً النظر إلى الإعلانين، وأحرك شفتي.

- "كان هذا الشخص سائقاً. ويقال هنا إنه كان في سيارته، وجاء إليه هذان الإرهابيان".

- "وبعد ذلك؟".

- "يقول إنه تظاهر أنه لم يكن يعرف أنهما إرهابيان وأخذهما في جولة في دلهي. ثم أوقف السيارة في مكان مظلم، وحطم زجاجة وقطع رقبتيهما بها". قطعت رقبتين بإبهامي.

- "أي نوع من الزجاج؟".

"زجاج قارورة شراب إنكليزي. إنهم يصنعونه ليكون قوياً".

قال: "أعرف. اعتدت أن أذهب إلى متجر المشـروبات الإنكليزية لأشتري لسيدي منه كل يوم جمعة. كان يحب نوع سمير - فون".

فقلـت: "سـمير - نـوف"، ولكنـه لـم يكـن يصغي إليّ. كان يحدق إلى الصورة التي في الإعلان.

وفجأة وضع يده على كتفي.

- "أنت تعرف من يشبه هذا الشخص الذي في الصورة؟".

فسألته: "من؟".

ابتسم.

- "أنا".

نظرت في وجهه، ثم في الصورة.

وقلت: "صحيح"، وربّتّ على ظهره.

لقد قلت لك: إنه من الممكن أن يكون وجه نصف الرجال في عموم الهند.

بعد ذلك، شعرت بالأسى لذلك الأمي المسكين، وفكرت أنه يتحمل ما كان أبي قد تحمله في الكثير جداً من محطات القطار، ولانخداعه بمظهر الغرباء وهزئهم منه، اشتريت له شاياً، قبل أن أعود إلى القطار.

* * *

سيدي:

لست سياسياً أو برلمانياً. ولست من أولئك الناس غير العاديين الذين يمكنهم القتل والانفلات وكأن شيئاً لم يكن. فقد احتجت إلى أربعة أسابيع كي أهدئ أعصابي.

خلال تلك الأسابيع الأربعة قمت بالشيء نفسه مرة بعد أخرى. كنت أخرج من الفندق - مكان صغير ورثّ قرب محطة القطار مكثت فيه بعد أن كنت أودع مبلغاً قدره خمسمئة روبية - في كل صباح عند الثامنة وأتجول وبيدي حقيبة مليئة بالنقد لأربع ساعات (فلم أجرؤ على أن أبقيها في غرفة الفندق) قبل أن أعود للغداء.

كنا نتناول الطعام أنا ودارام. ما الذي كان يفعله ليتسلى في أوقات الصباح، لا أعلم، لكنه كان في مزاج جيّد. فهذه أول عطلة له طوال حياته. وكانت ابتساماته تريحني.

كان سعر وجبة الغداء أربع روبيات للصحن. الطعام في الجنوب غالي الثّمن. بالرغم من أنه طعام غريب، إذ يقطّع الخضار ويقدّم في مرق متبل. ثم صعدت إلى غرفتي ونمت. نزلت عند الساعة الرابعة، وطلبت بسكويتاً وشاياً بالحليب، لأنني لم أتعلم حتى ذلك الوقت شرب القهوة.

كنت أتوق إلى تجريب القهوة. هل ترى ذلك؟ الفقراء في شمال هذه البلاد يشربون الشاي، والفقراء في الجنوب يشربون القهوة. من تراه قرر أن تكون الأشياء هكذا؟ لا أعلم، ولكنها ترتّبت هكذا. لذلك كانت هذه هي المرة الأولى التي أشم فيها رائحة القهوة يومياً. كنت أموت توقاً إلى تجريبها. ولكن قبل أن تشربها، لا بد من معرفة طريقة شربها. كان هنالك أتيكيت، روتين يترافق معها وهو ما يفتنني. فهي تُقدّم في طقم من فنجان وصحن، ثم لا بد من صبها بكميات معلومة وترتشف في أوقات معلومة من الفنجان. كيف يتم صبها؟ وكيف يتم رشفها؟ لم أكن أعلم. لوقت ما كنت أراقب فحسب.

وتطلب مني أن أبقى أسبوعاً لأعرف أن كل شخص يشرب القهوة على طريقته. شخص يصب القهوة في فنجانه في الحال؛ وقد لا يستخدم آخر الفنجان مطلقاً.

كلهم هنا غرباء، هكذا قلت لنفسي. كلهم يشربون القهوة للمرة الأولى.

كانت تلك جاذبية أخرى لبنغلور. المدينة مليئة بالغرباء. لا أحد يراقب أحداً.

أمضيت أربعة أسابيع في ذلك الفندق قرب المحطة، من دون أن أعمل شيئاً. وأقر أنه كانت ثمة وساوس في عقلي. أما كان حريّ بي أن أذهب إلى مومباي؟ ولكن كانت الشرطة قد فكرت في ذلك في الحال؛ فالجميع يذهبون إلى مومباي في الأفلام بعد أن يقتلوا أحداً ما، أليس كذلك؟

كلكوتا! كان من المفترض بي الذهاب إلى هناك.

في أحد الصباحات قال دارام: "تبدو كئيباً جداً يا خالي. دعنا نذهب في نزهة". وتمشينا في متنزه حيث ينام الثملون على المصاطب بين

الأعشاب البرية العالية. حتى وصلنا إلى طريق عريضة؛ في الجانب الآخر منها كانت تنتصب بناية عالية من الحجر وعلى قمتها أسد ذهبي.

- "ما هذه البناية يا خالي؟".

- "لا أعرف دارام. لا بد من أنها مسكن الوزراء في بنغلور".

- "أنت تبتسم يا خالي".

- "صحيح دارام. أنا أبتسم. أعتقد أننا نستمتع في بنغلور". قلت له غامزاً.

انتقلت من الفندق واستأجرت شقة. عليّ الآن أن أعمل لكسب عيشي في بنغلور، لا بد لي من أن أجد طريقة في التأقلم مع هذه المدينة.

حاولت أن أستمع إلى صوت بنغلور، مثلما استمعت إلى دلهي.

ذهبت إلى شارع أم. جي. وجلست في مقهى اسمها يوم القهوة، التي توضع طاولاتها في الهواء الطلق. أحضرت معي قلماً وورقة، وكتبت كل شيء كنت أسمعه.

أكملت برنامج الحاسوب ذاك في دقيقتين ونصف.

عرض عليّ شخص أميركي أربعمئة ألف دولار كبداية وقلت له: "ليس كافياً".

هل هيوليت - باكارد أفضل من شركة آي بي أم؟

بدا لي أن كل شيء في المدينة، يؤدي إلى شيء واحد.

التعاقد الثانوي مع الخارج. ويعني ذلك عمل أشياء للأميركيين في الهند عبر الهاتف. كل شيء يجري هنا؛ عقارات، ثروات، سلطة، جنس. لذلك كان عليّ الالتحاق بذلك التعاقد الثانوي بطريقة أو بأخرى.

في اليوم التالي استأجرت عربة تجرها عجلة نارية، وذهبت باتجاه مدينة الإلكترونيات. رأيت شجرة بانيان على جانب الطريق وجلست تحتها. جلست وراقبت البنايات حتى حلّ المساء، ورأيت كل السيارات

ذات الدفع الرباعي وهي تتسابق للدخول؛ ثم بقيت أراقب حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، عندما بدأت تلك السيارات تتسابق للخروج من البنايات.

فكرت، إذاً هكذا. هكذا أنضم إليهم.

دعني أوضح لك، يا صاحب السعادة. الرجال والنساء في بنغلور يعيشون كما تعيش الحيوانات في الغابة. ينامون في النهار ثم يعملون طوال الليل، حتى الساعة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة، بالاعتماد على أن أسيادهم في الجهة الأخرى من العالم، في أميركا. سؤال مهم: كيف يأتي الأولاد والبنات - وخصوصاً البنات - إلى مكان العمل في الليل ويعودون إلى البيت عند الثالثة بعد منتصف الليل؟ ليس هنالك نظام للحافلات في بنغلور، ولا نظام قطارات كما هو الحال في مومباي. على أن البنات لَسنَ بأي حال في مأمن في الحافلات والقطارات. إن رجال هذه المدينة، بصراحة، حيوانات.

من هنا يأتي رجال الأعمال.

الشيء الثاني الذي عملته هو أنني ذهبت إلى تاجر سيارات تويوتا في المدينة وقلت له، في أعذب صوت: "أريد أن أسوق سياراتكم". فنظر إليّ التاجر متحيراً.

لم أكن أصدّق أنني قلت ذلك. الخادم يبقى خادماً أبداً: الغريزة حاضرة دائماً، في داخلك، في مكان ما قرب قاعدة عمودك الفقري. (لو حدث أنك جئت إلى مكتبي، سيدي رئيس الوزراء، لكنت من المحتمل أن أدلك قدميك في الحال!).

قرصت يدي اليسرى. ابتسمت وأنا أمسك بيدي مقروصة وقلت بصوت عميق وأجش: "أريد أن أستأجر سياراتكم".

* * *

اللحظة الأخيرة في قصة نجاحي المدهشة، سيدي، كانت التحول

من رجل أعمال اجتماعية إلى رجل أعمال حرة. وكان هذا الجزء ليس سهلاً أبداً.

زرت جميع الموظفين، في شركات المقاولات الثانوية كلها في بنغلور. وسألتهم إن كانوا يحتاجون إلى خدمة سيارة الأجرة لجلب مستخدميهم في المساء، وإن كانوا بحاجة إلى سيارة أجرة لعودة مستخدميهم في آخر الليل إلى بيوتهم.

أنت تعرف بالطبع ما الذي قالوه كلهم.

تعطّفت إحدى النساء وأوضحت لي:

"أنت متأخر جداً. كل عمل في بنغلور قد هُيّئ من قبل خدمة سيارة الأجرة لجلب المستخدمين وإعادتهم في الليل. أنا آسفة أن أخبرك بهذا".

كان الأمر وكأنني قد بدأت في دانباد، فشعرت بالكآبة. وبقيت نائماً طوال اليوم.

تساءلت، ما كان السيد آشوك ليفعل؟

ثم وجدتها. لم أكن وحدي، لدي من هو إلى جانبي! لدي الآلاف ممَّن هم إلى جانبي!

سترى أصدقائي حين تزور بنغلور؛ سترى رجالاً بدينين ذوي كروش، يلوّحون بعكازاتهم، على شارع بريغيد، ينخسون وينهكون البائعين ويخضونهم من أجل المال.

أنا أتحدث عن الشرطة، بالطبع.

في اليوم التالي استخدمت أحد الناس من المحليين ليكون مترجماً؛ أنت تعرف بالتأكيد أن الناس في الشمال والجنوب من بلادي يتحدثون لغات مختلفة؛ وذهبت إلى أقرب مركز شرطة. الحقيبة الحمراء في يدي. تصرفت وكأنني رجل مهم، واستعرضت بالحقيبة الحمراء أمامهم، من خلال المبالغة بالتلويح بها، وسلمتهم بطاقة عنواني وعملي التي طبعتها

للتو. ثم أصررت على أن أرى الرجل الكبير هناك، المفتش. في النهاية، أدخلوني مكتبه؛ لقد تكفلت الحقيبة الحمراء بالخدعة.

كان الرجل الكبير جالساً إلى مكتب فخم وهنالك شارات مشعة على بذلته كاكية اللون وثمة إشارات حمراء للدين على جبهته. هنالك ثلاث صور خلفه. ولكن ليس ثمة ما أبحث عنه.

آه، شكراً لله. كانت هنالك صورة واحدة لغاندي أيضاً معلقة في الزاوية.

سلمته الحقيبة الحمراء بابتسامة عريضة جامعاً كفيّ. ففتحها بحذر.

قلت من خلال المترجم: "سيدي، أريد أن أقدم عرضاً صغيراً تعبيراً عن امتناني لكم".

كان شيئاً مدهشاً. ففي اللحظة التي تعرض فيها المال نقداً، يعرف الجميع لغتك.

تساءل المفتش بالهندية، وهو يحدق إلى الحقيبة بعين واحدة، "امتنان عمّاذا؟".

"عن كل ما ستقدمه لي سيدي".

عد المال - عشرة آلاف روبية - سمع ما كنت أريده، وطلب مضاعفة المبلغ. وأضفت له القليل، فكان سعيداً. أقول لك، سيدي رئيس الوزراء، كان الإعلان عني هناك تماماً، ذلك الذي رأيته من قبل، طوال الوقت الذي كنت أتفاوض فيه معه. إعلان البحث عن مطلوب، مع صورة صغيرة قذرة لي.

بعد يومين، جاءتني المرأة الوديعة في شركة الإنترنت التي رفضت طلبي، وسمعت منها قصة صادمة. لقد اضطربت خدمة سيارات الأجرة لديها. فقد كشفت مداهمة للشرطة أن أغلب السائقين ليست لديهم تراخيص سياقة.

قلت لها: "آسف سيدتي، أتعاطف معك. وأعرض عليك، فضلاً عن ذلك، شركتي. سائقو النمر الأبيض".

- "هل لدى كل السائقين عندك تراخيص سياقة؟".

- "بالطبع سيدتي. يمكنك الاتصال بالشرطة والتأكد".

اتصلت بالفعل، وعادت لتتصل بي. أعتقد أن الشرطة كانت إلى جانبي جداً. وهكذا حصلت على بدايتي.

كنت أحد السائقين في الأيام المبكرة، لكنني تخليت عن ذلك في ما بعد. لا أظن أنني استمتعت يوماً بالسياقة، هل تعلم ذلك؟ الحديث هو الأكثر إمتاعاً. وتطورت البداية إلى عمل كبير. كان لدينا ستة عشر سائقاً يعملون في ورديات على ستّ وعشرين سيارة. نعم، صحيح: بضع مئات من آلاف الروبيات من أموال شخص آخر، مع شيء من المثابرة، يمكن أن تحدث العجب في هذه البلاد. لو جمعت أملاكي من العقارات والحساب في المصرف يكون لدي ما يعادل خمسة عشر ضعف المبلغ الذي أخذته من السيد آشوك. انظر بنفسك إلى شعاري المكتوب بالإنكليزية في موقعي الإلكتروني: "إننا ندفع بالتكنولوجيا إلى الأمام". انظر إلى صور أسطولي: ستّ وعشرون سيارة تويوتا جديدة، كلها مكيفة لأشهر الصيف، ومتعاقدون بشأنها مع أشهر الشركات التكنولوجية. لو أحببت سياراتي رباعية الدفع، أو أردت نقل موظفيك من البنين والبنات بأسلوب متطور، اضغط فقط على ما هو مكتوب:

اتصل بآشوك شارما الآن!

بلى، آشوك! هذا ما سميت نفسي به هذه الأيام. آشوك شارما، رجل أعمال هندي من الشمال، يقيم في بنغلور.

لو كنت جالساً معي هنا تحت هذه الثريا الكبيرة، لكنت قد سمحت لك أن ترى كل أسرار عملي. يمكنك أن تحدق إلى شاشة جهاز الماكنتوش الفضي لترى سياراتي رباعية الدفع وسائقي ومرأبي

وعمال الصيانة ورجال الشرطة المرتشين.

كل ذلك يعود ملكه لي؛ أنا مونا، الذي كان قدري أن أكون صانع حلويات!

سترى صور الشباب العاملين عندي. الستة عشر كلهم. في يوم ما كنت سائقاً لسيد، لكنني الآن سيد لسائقين. لا أعاملهم كالخدم؛ لا أصفع أو أتنمر أو أسخر من أي أحد منهم. ولا أهين أحداً منهم بالادعاء أنهم أهلي. إنهم مستخدمون، وأنا صاحب عملهم، هذا كل ما في الأمر. لو أنهم لاحظوا طريقتي في الكلام، طريقتي في اللبس وطريقتي في المحافظة على نظافة الأشياء، فسينطلقون في الحياة. إن لم يفعلوا، فسيبقون في مهنتهم هذه طوال حياتهم. أترك الاختيار لهم. بعد أن ينتهي العمل، أطردهم خارج المكتب: فلا ثرثرة، ولا فناجين قهوة. لا يحرص النمر الأبيض على تكوين صداقات. فذلك أمر خطر جداً.

الآن، بالرغم من قصة نجاحي المدهشة، لا أريد قطع الاتصال بالأماكن التي حصلت فيها على معرفتي الحقيقية بالحياة.

الطريق والرصيف.

فأسير حول بنغلور في الأمسيات، أو في الصباحات المبكرة، لمجرد أن أصغي إلى الطريق.

في إحدى الأمسيات عندما كنت قرب محطة القطار، رأيت ما يقارب الدزينة من العمال في التحميل متجمعين أمام جدار ويتحدثون بأصوات منخفضة. كانوا يتحدثون بلغة غريبة؛ كانوا من الأبناء المحليين. لم أكن مجبراً على فهم كلماتهم كي أعرف ما كانوا يقولونه. ففي مدينة يتدفق إليها من الخارج هذا العدد الهائل من الناس، كانوا هم ممن بقوا في الخلف.

كانوا يقرأون شيئاً ما على الجدار. أردت أن أرى ما كان ذلك، لكنهم كانوا يقفون هناك يتحدثون ويتزاحمون أمام الجدار. كان عليّ أن أهددهم بإبلاغ الشرطة إن لم يتفرقوا ويدعوني أرى ما كانوا يقرأونه.

كانت نسخة مصورة ليدين تحطمان قيودهما:

الاشتراكي الكبير قادم لزيارة بنغلور

وصل بعد أسبوعين. تجمع حوله حشد كبير من الناس، وألقى عليهم خطبة عصماء، كلها عن النار والدم وتطهير هذه البلاد من الأغنياء، فلا ماء صالح للشرب للفقراء بعد عشر سنوات لأن العالم يزداد حرارة. وقفت في الخلف واستمعت. في النهاية صفّق الناس كالمجانين. من المؤكد أن هنالك الكثير من الغضب في هذه المدينة.

أبقِ أذنيك مفتوحتين في بنغلور - وفي أي مدينة صغيرة أو كبيرة في الهند - وستسمع محفزات وشائعات وتهديدات بالتمرد. يجلس الناس تحت أعمدة النور في الليل ويقرأون. يحتشدون ويتناقشون ويشيرون بأصابعهم إلى السماء. فهل سيجتمعون في ليلة ويحطمون قن الدجاج؟

ها!

ربما يحدث مرة كل مئة عام وتكون هناك ثورة تحرر الفقراء. قرأت ذلك في إحدى صفحات الكتب القديمة التي يستخدمها الناس في وقفات الشاي لمسح الزيت. هل ترى أن أربعة رجال فقط قاموا بثورات ناجحة لتحرير العبيد وقتل أسيادهم؟ تقول هذه الصفحة:

الإسكندر الكبير.

إبراهام لنكولن الأميركي.

ماو الذي من بلادكم.

ورجل رابع. ربما يكون هتلر، لا أتذكر. ولا أعتقد أن ثمة رجلاً خامساً سيضاف إلى اللائحة قريباً.

ثورة هندية؟

كلا، سيدي. هذا لن يحدث. الناس في هذه البلاد ينتظرون حرباً

من أجل حريتهم تأتي من مكان آخر؛ من الغابات، من الجبال، من الصين، من باكستان. لن يحدث هذا. لا بد لكل شخص من أن يصنع بيناراس خاصة به.

إن كتاب ثورتك أيها الهندي الشاب يكمن في بطنك. أبرِزه، واقرأ.

بدلاً من ذلك، يجلسون جميعهم أمام أجهزة التلفاز الملونة ويشاهدون الكريكيت وإعلانات الشامبو.

بخصوص موضوع إعلانات الشامبو، سيدي رئيس الوزراء، لا بد لي من أن أقول إن الشعر ذهبي اللون يشعرني بالقرف الآن. لا أعتقد أنه من الصحي للمرأة أن يكون لها هذا اللون من الشعر. ولا أثق بالتلفاز أو الإعلانات الخارجية التي تراها في أنحاء بنغلور كلها حين تعرض صوراً لنساء بيضاوات. أنطلقُ الآن من تجربتي الخاصة، من خلال الوقت الذي أمضيه في فنادق الخمس نجوم. (هذا صحيح، سيد جياباو، فلم أعد أذهب إلى "أحياء الضياء الأحمر". ليس من الصحيح بيع وشراء النساء وهن في أقفاص الطيور لتتم معاملتهن كالحيوانات. أنا أشتري فقط النساء اللواتي أجدهن في فنادق الخمس نجوم).

اعتماداً على تجربتي، البنات الهنديات هن الفضليات.

(حسناً، دعني أخبرك، سيد جياباو، أن المفضل من الدرجة الثانية، وهو واحد من المشاهد الأكثر إثارة التي يمكن أن تنالها كرجل في بنغلور، هو رؤيتك لفتاتين نيباليتين تسلطان عليك ضوء عربة تجرها دراجة نارية خلال الظلمة).

في الحقيقة، إن رؤية هؤلاء الأجنبيات ذوات الشعر الذهبي – وستكتشف أنهن يملأن بنغلور هذه الأيام – قد أقنعتني أن الناس البيض في طريقهم إلى الزوال. كلهم يبدون منحلّين؛ على وشك الانهيار. لن ترى أي واحدة منهن منتفخة البطن. وألوم على هذا الرئيس الأميركي،

فقد أباح الشذوذ الجنسي في بلاده وصار الرجال يتزوجون رجالاً آخرين بدلاً من النساء. كما ورد في الراديو. إن هذا يؤدي إلى انهيار الإنسان الأبيض. ثم إن الناس البيض يستعملون الهاتف النقال بكثرة شديدة، وهذا ما يحطم عقولهم. فمن المعروف بالطبع أن الهواتف النقالة تسبب السرطان في الدماغ وتؤثر سلباً في الذكورة؛ لقد اخترعها اليابانيون لتحطيم عقل الرجل الأبيض وذكورته في الوقت نفسه. لقد تناهى ذلك إلى سمعي في موقف الحافلة في إحدى الليالي. كنت حتى ذلك الحين فخوراً بهاتفي النوكيا، وأريته لكل فتيات مركز الاتصال اللواتي كنت أنوي أن...، لكنني رميته بعيداً. أي مكالمة تريد أن تجريها معي عليك أن تجريها عبر الخط الأرضي. ذلك يؤثر سلباً في عملي ولكن دماغي أكثر أهمية، سيدي؛ فليس سواه في هذا العالم لدى الإنسان المفكر.

سينتهي أمر الناس البيض خلال فترة حياتي. هنالك أناس سود وحمر كذلك، ولكن ليست لدي أدنى فكرة عما سيجري لهم؛ فلم يتحدث الراديو عنهم. حدسي المتواضع يرى أن في غضون عشرين سنة لن يكون على قمة الهرم غير الجنس الأصفر والأسمر، وسنحكم العالم بأكمله.

وليحفظ الله بقية الناس.

* * *

عليّ الآن أن أوضح ذلك القطع الطويل في قصتي قبل يومين.

وهذا ما سيسمح لي بتوضيح الاختلافات بين بنغلور ولاكسمانغار. هل فهمت سيد جياباو؟ ليس الأمر كما لو أنك تأتي إلى بنغلور وتجد كل الناس هنا مستقيمين وحسني الخلق. فلهذه المدينة حصتها من قطّاع الطرقات والسياسيين. فلا يعدو الأمر هنا أن الإنسان لو رغب في أن يكون صالحاً يمكنه أن يكون كذلك. في لاكسمانغار لا يتوفر له مثل هذا الاختيار. هذا هو الاختلاف بين هذه الهند وتلك الهند: الاختيار.

انظر، في تلك الليلة، كنت جالساً هنا، أخبرك بقصة حياتي، ورن جرس الهاتف الأرضي. التقطت سماعة الهاتف وأنا لا أزال أتحدث إليك وسمعت صوت محمد آصيف:

- "سيدي، هنالك بعض المشاكل".

حينذاك توقفت عن الحديث إليك.

وسألته: "أي نوع من المشاكل؟"، كنت أعلم أن محمد آصيف كان يقوم بواجبه تلك الليلة، لذلك جعلت نفسي مستعداً لأسوأ خبر.

ران صمت، ثم قال: "كنت أعيد الفتيات إلى بيوتهن وصدمنا صبياً يركب دراجة. وقد توفي، سيدي".

قلت له: "استدعِ الشرطة حالاً".

- "ولكن يا سيدي... أنا المخطئ. لقد صدمته، سيدي".

- "لهذا السبب تحديداً ستستدعي الشرطة".

كانت الشرطة هناك حين وصلت إلى مكان الحادث بشاحنة فارغة. كانت سيارة التويوتا واقفة إلى جانب الطريق؛ والفتيات لا يزلن في داخلها.

كان ثمة صبي، صبي ممدد، مدمى ودراجته محطمة على الأرض.

كان محمد آصيف يقف جانباً، يهز رأسه. شخص ما كان يصرخ به؛ يصرخ بعاطفة لا تراها إلا عند أقارب الميت.

أوقف الشرطي الجميع. وأومأ برأسه حين رآني. كنا نعرف بعضنا.

همس لي: "هذا هو شقيق الصبي، سيدي. إنه غاضب جداً. لم أستطع أن أبعده من هنا".

هززت محمد آصيف ليفيق من غشاوته: "خذ الشاحنة، وأوصل هؤلاء الفتيات إلى بيوتهن أولاً".

أمرت الشرطي بصوت عالٍ: "اسمح لصبيي بالذهاب ليوصل هؤلاء الفتيات إلى بيوتهنّ. يمكنك أن تتعامل معي".

صاح شقيق الفتى المتوفى بالشرطي: "كيف يمكنك أن تطلق سراحه؟".

فقلت: "انظر هنا يا بني، أنا مالك هذه السيارة. معركتك معي، وليس مع السائق. إنه يتبع أوامري في أن يسوق بأقصى سرعة. الدم سقط على يديّ لا على يديه. لا بد من توصيل هؤلاء الفتيات إلى بيوتهن. تعالَ معي إلى مركز الشرطة، سأدفع لك الفدية. دعهم يذهبون".

وافق الشرطي معي: "هذه فكرة جيدة، يا بني. لا بد من تسجيل الحادثة في مركز الشرطة".

بينما أشغلت الأخ بمخاطبة عقله واحترامه الإنساني، صعد محمد آصيف والفتيات إلى شاحنتي وانطلقوا. كان ذلك هو الهدف الأول؛ توصيل الفتيات إلى بيوتهن. فقد وقعت عقداً مع شركتهن وأنا أحترم كل ما أوقّع عليه".

ذهبت إلى مركز الشرطة مع شقيق الصبي المتوفى. جلب لي الشرطي الذي في النوبة الليلية القهوة ولم يجلب لشقيق الفتى. حدّق إليّ حين تناولت الفنجان؛ كان يبدو مستعداً لتقطيعي إرباً. رشفت من القهوة.

قال أحد رجال الشرطة: "سيحضر إلى هنا مساعد المفوض بعد خمس دقائق".

تساءل الأخ: "هل هو الذي سيسجل القضية؟ فلا أحد فعل ذلك حتى الآن".

رشفت المزيد.

كنت قد رشوت مساعد المفوض الذي جلس في المركز عدة مرات. كان قد نافسني مرة. وهو من أحقر الناس ولا شيء في عقله

إلا نهب المال من أي شخص يأتي إلى مكتبه. حثالة.

لكنه كان حثالتي.

تحرك قلبي عند رؤيته. لقد تكبد عناء الطريق حتى يصل إلى المركز ويساعدني. هنالك شرف بين اللصوص، كما يقال. فهم الموقف في الحال. فتجاهلني وتوجه نحو الشقيق وقال: "ما الذي تريده؟".

قال الشقيق: "أريد تسجيل دعوة قضائية. أريد تسجيل هذه الجريمة".

- "أي جريمة؟".

- "موت شقيقي". وأشار بإصبعه نحوي: "بسيارة هذا الرجل".

نظر مساعد المفوض إلى ساعته: "يا الله، تأخر الوقت. تكاد تكون الساعة الخامسة الآن. لماذا لا تذهب إلى البيت؟ سننسى أنك أتيت إلى هنا. سنسمح لك بالعودة إلى البيت".

- "ماذا عن هذا الرجل؟ هل ستعتقله أم لا؟".

جمع مساعد المفوض أصابعه وتنهد: "انظر، في أثناء وقوع الحادثة، لم تكن لدراجة شقيقك أضواء تعمل. وهذا مخالف للقانون، كما تعرف. وهنالك أشياء أخرى ستظهر. أعدك، ستظهر أشياء".

حملق شقيق الفتى. هز رأسه وكأنه لم يسمع جيداً: "أخي ميت وهذا الرجل قاتل. لا أفهم ما الذي يحصل هنا".

- "انظر إليّ، عد إلى البيت. استحمّ ونم. وعد في الصباح. وعندها سنسجل الدعوة، فهمت؟".

أخيراً، فهم الشقيق لماذا أتيت به إلى المركز؛ فهم أخيراً الفخ الذي وقع فيه. ربما شاهد رجال الشرطة في الأفلام الهندية فقط.

يا للفتى المسكين.

- "هـذا انتهـاك! سـأتصل بالصحافـة! سـأكلّف محامين! سـأتصل بالشرطة!".

كان مسـاعد المفـوض الـذي لـم أعـرف أن لديـه حس الفكاهة قد سمح لنفسه بأن يبتسم: "مؤكد. اتصل بالشرطة".

عربد الشقيق صائحاً ومهدداً.

قال مساعد المفوض: "ستتغير غداً لوحات السيارة. سنقول كانت حادثة دهس وهروب. ستبدل السيارة. لدينا سيارات معطوبة لهذا الغرض. أنت محظوظ جداً أن سيارتك التويوتا صدمت أحداً على دراجة".

أومأت برأسي.

حيـن يقتـل إنسـان يركـب دراجـة هوائية، لا يتوجب على الشـرطة تسجيل حتى قضية. وحين يقتل إنسان يسوق دراجة نارية، ربما يسجلون ذلك. يقتل رجل في سيارة، لربما يزجونني في السجن.

- "ماذا لو ذهب إلى الصحافة؟".

ربّت مسـاعد المفوض على بطنه: "أعرف كل الصحفيين في هذه المدينة".

لـم أسلمه المظروف في الحال. ثمة زمان ومكان لهذه الأشياء. الآن حان وقت الابتسـام والشـكر ورشـف القهوة التي قدمها لي؛ وحان الوقت للحديث معه عن ولديه اللذين يدرسان في أميركا، إنه يريد منهما العودة إلى هنا وتأسيس شركة إنترنت في بنغلور، وإيماءات بالرأس وابتسامة لأريه أسناني اللامعة والنظيفة المغسولة بالفلورايد. رشفنا فناجين قهوة واحداً بعد الآخر تحت روزنامة تحمل وجه لاكشيما؛ كانت تصب النقود الذهبية من إبريق إلى نهر مزدهر. وفوقها صورة مؤطرة للمهاتما غاندي المبتسم.

بعد أسبوع من الآن سأذهب لأقابله مجدداً بصحبة مظروف. وحينئذ لا يكون لطيفاً جداً، سـيعد المال أمامي ويقول: "أهذا كل شـيء؟ هل تعلم كم يكلف تعليم ولدين في جامعة أجنبية؟ حري بك أن ترى لوائح

البريد الأميركي السريع إليّ يرسلانها إليّ كل شهر! وسيطلب مظروفاً آخر. ثم آخر، وآخر. وهكذا. لا نهاية للأشياء في الهند، سيد جياباو، وهو أمر صحيح كما اعتاد السيد آشوك أن يقول. لا بد لك من أن تظل تدفع وتدفع للفاسدين. لكنني أتذمر من الشرطة كما يتذمر الأغنياء؛ لا كما يتذمر الفقراء.

في اليوم الثاني، سيدي، استدعيت محمد آصيف إلى المكتب. كان يغلي من الخجل من فعلته، لذلك لم أكن بحاجة إلى توبيخه.

لم تكن غلطته. ولا حتى غلطتي. كانت شركاتنا ذات التعاقد الثانوي رخيصة جداً، ولذلك كانت مضطرة إلى إجبار العاملين على سيارات الأجرة لديها أن يهيّئوها للقيام بعدد غير ممكن من الدورات كل ليلة. ولتحقيق مثل هذا المطلب، علينا أن نسوق بلا هوادة، ويتحتم علينا إزاء ذلك أن ندهس ونؤذي الناس في الطريق. وهذه مشكلة يواجهها كل من يشغّل سيارة أجرة في هذه المدينة، فلا تلمني.

قلت: "لا تقلق بشأن ذلك آصيف". لقد بدا الفتى متهالكاً.

لم أطرد آصيف من العمل بسبب ما حدث. لكنني طلبت منه أن يجد عنوان ذلك الصبي الذي قتلناه.

فحدّق إليّ.

"لماذا نفعل ذلك سيدي؟ لسنا بحاجة إل أن نخشى والديه. أرجوك لا تفعل ذلك".

جعلته يجد عنوان الصبي ويأتيني به.

أخذت مقداراً من المال من فئة المئة روبية؛ ووضعته في مظروف بني. وأخذت سيارة واتجهت إلى المكان.

فتحت الأم لي الباب. سألتني عما أريده فقلت لها: "إنني مالك شركة سيارات أجرة للنقل الخاص".

ولم أكن ملزماً بإخبارها أي شركة.

جلبت لي القهوة مع طقم من فنجان وصحن. فلدى هنود الجنوب أساليب مهذبة جداً في الضيافة.

صبت القهوة في الفنجان، ورشفت منها بالأسلوب الصحيح.

كانت هنالك صورة لشاب يحيط رقبته إكليل من الياسمين معلقة على الجدار.

لم أقل شيئاً حتى انتهيت من شرب قهوتي. ثم وضعت المظروف على المنضدة.

وحضر إلى الغرفة الآن رجل عجوز، ووقف محدقاً إليّ.

- "أريد أن أعبر أولاً عن حزني لوفاة ولدكم. فأنا قد فقدت أيضاً من أقاربي - الكثير منهم - وأشعر بألمكم الذي تعانون منه. ما كان يجب أن يموت".

- "ثانياً، الخطأ مني. وليس من السائق. وقد أطلقت الشرطة سراحي. هكذا تسير حال هذه الغابة التي نعيش فيها. لكنني أتحمل المسؤولية وأطلب منكم المغفرة".

وأشرت إلى المظروف البني الذي على المنضدة.

"هنالك خمسة وعشرون ألف روبية هنا. ولا أعطيكم هذا المبلغ لأنني مجبر على ذلك، بل لأنني أود ذلك. فهل هذا واضح لكم؟".

لكن الشيخ، والد الصبي، كان ينظر إلى المظروف وقال: "كنتَ رجلاً بما فيه الكفاية وأتيت إلينا على الأقل".

قلت: "أريد أن أساعد ولدكم الآخر. إنه فتى شجاع. وتصدى للشرطة في تلك الليلة. يمكنه أن يأتي ويعمل سائقاً عندي لو رغب. سأعتني به إذا أردتم".

انقبض وجه المرأة وهزت رأسها. وسالت الدموع من عينيها. كان ذلك أمراً مفهوماً. ربما كانت لها آمال بذلك الفتى كما كانت

آمـال أمـي بـي. بيـد أن الأب كان متوازنـاً؛ الرجـال أكثـر تعقلاً في مثل هذه الأمور.

شـكرتهما علـى القهـوة، وانحنيـت باحتـرام أمـام الأم الثكلـى، وخرجت.

كان محمـد آصيـف بانتظـاري فـي المكتـب حين عدت. هز رأسـه وقال: "لماذا؟ لماذا بدّدت الكثير من المال؟".

عنـد ذاك فكـرت، ربمـا اقترفـت خطـأً. ربمـا سـيخبر آصيـف بقية السـائقين أننـي كنـت خائفـاً من المرأة العجـوز، ويعتقدون أنهم يمكنهم خداعـي. جعلنـي ذلـك أشـعر بالتوتـر. لـم يعجبني أن أبـدو ضعيفاً أمام مستخدمي. وأعلم ما الذي سيقود إليه ذلك.

لكن كان لا بد لي من أن أقوم بشيء مختلف؛ ألا ترى ذلك أيضاً؟ لا أسـتطيع أن أحيا بطريقة الدب والجاموس والغداف، ومن المحتمل أنهم لا يزالون يحيون هكذا، هناك في لاكسمانغار.

أنا في (الضوء) الآن.

* * *

الآن، ما الذي يحدث بشـأن قصتك النموذجية لجريمة الأسـبوع؛ أو الفيلـم الهنـدي؟ رجـل فقيـر يقتـل رجلاً غنياً. حسـناً. ثم أخذ المال. حسـناً. لكنه بعد ذلك طفق يحلم بكوابيس يطارده فيها القتيل، بأصابع مدماة، ويناديه، قا... تل، قا... تل.

لا يحدث في الحقيقة شيء مثل هذا. ثق بي. وهذا أحد الأسباب التي دعتني للعزوف عن مشاهدة الأفلام الهندية.

لم يكن غير حلم واحد جاءتني فيه جدتي تطاردني راكبة جاموسة الماء، ولم يتكرر ذلك أبداً.

الكابـوس الحقيقـي الـذي يأتيـك هـو مـن نـوع آخـر. تنـدس فـي الفـراش، وتحلـم أنـك لـم تفعلها، وأنـك تركت أعصابك تنهار وجعلت

السيد آشوك يفلت، وأنك لا تزال في دلهي، لا تزال خادماً لرجل آخر، ثم تستيقظ.

يتوقف العرق عن النضوح. وتتباطأ دقات القلب.

لقد فعلتها! لقد قتلته!

بعد ثلاثة أشهر من وصولي إلى بنغلور، ذهبت إلى معبد، ومارست آخر الشعائر من أجلهم جميعاً: قَسَم، كيشان، كل عماتي وأبنائهن وبناتهن وأولاد أعمامي. وصليت حتى من أجل جاموسة الماء. من يعلم إن كان أي منهم حياً أو ميتاً؟ ثم قلت لكيشان، ولقَسَم، ولهم جميعاً: "دعوني الآن بسلام".

فعلوا ذلك، سيدي، إلى حدٍّ بعيد.

في أحد الأيام قرأت قصة في صحيفة: "مقتل عائلة من سبعة عشر شخصاً في قرية في شمال الهند". اضطرب نبض قلبي؛ سبعة عشر؟ لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؛ هذه ليست عائلتي. إنها ليست أكثر من واحدة من قصص الرعب التي تكتب بطول إنشين وتظهر كل صباح في الصحف؛ فهم لم يذكروا اسم القرية. قالوا إنها في مكان ما في (الظلام) قرب غايا. قرأتها مرة بعد أخرى؛ سبعة عشر! ليسوا سبعة عشر في البيت... أطلقت زفيراً... ولكن ماذا لو صار لأحدهم أطفال؟

طويت تلك الصحيفة ورميتها. توقفت عن قراءة الصحف لبضعة أشهر بعد ذلك من أجل أن أبقى بطمأنينة.

انظر، هذا ما حدث لهم. إما أن اللقلق قد قتلهم، أو قتل بعضاً منهم وجلد الآخرين. وحتى لو بمعجزة ما، لم يقم هو - أو الشرطة - بفعل ذلك، فإن الجيران سيتحاشونهم. هل رأيت؟ ولد واحد شرير في عائلة يسيء إلى سمعة قرية ويضعها في الطين. لذلك يطردهم القرويون؛ ويتحتم عليهم الهجرة إلى دلهي أو كلكوتا أو مومباي، ليعيشوا تحت جسر كونكريتي، يستجدون لسد الرمق، ولا أمل لهم في المستقبل. وهو

ليس أفضل من الموت.

ما الذي تقوله، سيد جياباو؟ هل أسمعك تنعتني بالمسخ ذي الدم البارد؟

ثمة قصة أظنني سمعتها في محطة قطار، سيدي، أو ربما قرأتها في صفحة مقطوعة من جريدة كانت قد استعملت في لفّ كوز ذرة مشوي اشتريته من السوق؛ لا أذكر بالضبط. كانت قصة عن بوذا. في أحد الأيام كان أحد البراهميين الحاذقين يحاول خداع بوذا فسأله: "سيدي، هل ترى نفسك إنساناً أم أكثر؟".

ابتسم بوذا وقال: "لا هذا ولا ذاك. لست إلا ذلك الذي صحا بينما بقيتم نائمين".

وأجيبك، سيد جياباو، عن سؤالك بالجواب نفسه. أنت تسأل: "هل أنت إنسان أم شيطان؟".

فأقول: لا هذا ولا ذاك. لقد استيقظت بينما البقية منكم لا يزالون نائمين، وهذا هو الاختلاف الوحيد بيننا.

ما كان عليّ التفكير فيهم مطلقاً. عائلتي.

من المؤكد أن دارام لا يفعل ذلك.

لقد أدرك الآن ما حدث. قلت له في البداية إننا ذاهبان في إجازة، وأعتقد أنه تقبل ذلك لشهر أو شهرين. إنه لا يقول كلمة، لكنني أحياناً أراه يراقبني بطرف عينيه.

إنه يعرف.

نأكل في الليل سوية، نجلس متقابلين إلى طاولة، نراقب بعضنا بعضاً ولا نتكلم كثيراً. بعد أن ينتهي من الطعام، أقدم له كوباً من الحليب. قبل ليلتين، بعد أن شرب الحليب، سألته: "هل تفكر في أمك؟".

لم يجب بكلمة.

- "في أبيك؟".

ابتسم لي ثم قال: "هلا أعطيتني كوباً آخر من الحليب يا خالي؟".

ثم نهض وأضاف: "وصحناً من الآيس كريم أيضاً".

قلت له: "الآيس كريم لأيام الآحاد دارام".

- "كلا، إنه اليوم".

ويبتسم لي.

أقول لك إنه فهم الأمر كله. هذا الابتزازي الصغير الحثالة. سيبقى هادئاً ما دمت أطعمه. لو أنني أُخذت إلى السجن سيخسر الآيس كريم وأكواب الحليب. أقول لك إن الجيل الجديد يكبر بلا مبادئ إطلاقاً.

يذهب الآن إلى مدرسة جيدة هنا في بنغلور؛ مدرسة إنكليزية. وأضحى يتلفظ الإنكليزية كما يتلفظها أولاد الأغنياء. يمكنه أن يقول بيتزا كما كان السيد آشوك يقولها. (ثم ألا يحب أكل البيتزا؛ ذلك الطعام المقزز؟) أراقبه مفتخراً وهو يضع حصته على ورقة بيضاء نظيفة على طاولة العشاء. ولم أتعلم أبداً مثل تلك الأشياء.

أعرف، إن هذا الفتى، الذي يشرب حليبي ويأكل من الآيس كريم الذي آتيه به بأوانٍ كبيرة، سيسألني في أحد الأيام، ألم تكن تستطيع إبقاء أمي؟ ألم تكن قادراً على أن ترسل إليها رسالة لتطلب منها الهرب في الوقت المناسب؟

بعد ذلك يتحتم عليّ أن أجيبه أو أقتله، كما أفترض. لكن مثل هذا السؤال لا يزال أمامه بضع سنوات مقبلة. حتى ذلك الحين سنتعشى سوية، كل مساء، دارام، آخر من تبقى لي من عائلتي ولي.

بقي شخص واحد لا بد من أن أتحدث عنه.

سيدي السابق.

فكّرت أن لا حاجة لأن أصلي من أجله، لأن عائلته ستصرف من

أجل روحه لينال أغلى الصلوات على طول نهر الغانغا.

ولكنني أفكر فيه كثيراً بالفعل؛ وصدّق أو لا تصدّق، إنني أفتقده. لم يكن يستحق مصيره.

كان عليّ أن أقطع رقبة النمس.

* * *

الآن، يا صاحب السعادة، هنالك قفزة كبيرة في العلاقات الصينية - الهندية حدثت في الأيام السبعة الماضية. هندي - صيني باي باي، كما يقولون. لقد أخبرتك بكل ما تحتاج إلى معرفته عن مهنة رجال الأعمال: كيف تنمو، وكيف تتجاوز العقبات، وكيف تبقى صلبة في تحقيق أهدافها، وكيف تجني الميداليات الذهبية في النجاح.

سيدي: بالرغم من أن قصتي قد انتهت، وأمست أسراري هي أسرارك الآن، فسأتركك الآن، إن سمحت لي، بكلمة أخيرة.

(هي خدعة قديمة تعلمتها من الاشتراكي الكبير؛ ما إن يبدأ جمهوره بالتثاؤب، يقول كلمة أخيرة؛ ويعود ليستمر لساعتين أخريين. ها!).

عندما أسوق في شارع هوسر الرئيسي، وعندما أستدير إلى مدينة الإلكترونيات المرحلة الأولى، وأرى الشركات في طريقي، لا أستطيع أن أقول لك كم هو الأمر مثير بالنسبة إليّ. جنرال إلكتريك، ديل، سيمنز؛ كلها هنا في بنغلور. والكثير غيرها في طريقها إلى هنا. ثمة بناء في كل مكان. كومات من الطين في كل مكان. كومات من الحجر. كومات من الطابوق. المدينة بأكملها مغلفة بالدخان، والضباب والتراب وغبار الإسمنت. إنها مغطاة بالغشاوة. حين تنزاح الغشاوة، كيف يكون حال بنغلور؟

ربما ستكون هناك كارثة: أحياء للمعدمين، ومجارٍ طافحة، ومراكز تجارية، وزحام مروري، وشرطة. لكنك لا تعلم أبداً. ربما تتحول إلى مدينة أنيقة، حيث يمكن للبشر أن يعيشوا كالبشر والحيوانات كالحيوانات. بنغلور جديدة لهند جديدة. وعند ذاك يمكنني أن أقول إنني، بأسلوبي

الخاص، ساعدت على بناء بنغلور جديدة.

لِمَ لا؟ ألستُ جزءاً من كل ذلك الذي يغير هذه البلاد؟ ألم أنجح في عملي الجاد الذي من الحري بأي رجل فقير أن يقوم به؟ وليس العمل الجاد في أن تتلقى السياط التي تلقاها أبوك، ولا أن تنتهي في رابية من الأجساد المجهولة التي تتعفن في الطين الأسود للأم غانغا. صحيح، هنالك قضية جريمة القتل؛ ولا جدال في أنها أمر غير صحيح، وقد سوّدت روحي ولن تنظف يدي كريمات تبييض الجلد التي تباع في أسواق الهند كلها.

لكن هل من المحتمل أن كل من له قيمة عالية في هذا العالم، بمن فيهم رئيس وزرائنا (وكذلك أنت، سيد جياباو)، يكون قد قتل شخصاً ما وهو في طريقه إلى القمة؟ اقتُل ما يكفي من الناس وسينصبون لك تمثالاً من البرونز قرب مجلس النواب في دلهي، ولكن ذلك مجد لا أسعى إليه. كل ما أردته أن تتاح لي الفرصة كي أكون إنساناً، ومن أجل هذا الهدف فإن جريمة قتل واحدة تكفي.

ما الذي لدي بعد ذلك؟ أعرف أن هذا ما تسأل عنه.

دعني أوضحها لك بالطريقة التالية. عصر هذا اليوم، وأنا أسوق السيارة في شارع أم. جي.، شارع تسوق البضائع الراقية الذي تحتشد فيه الكثير من المتاجر الأميركية والشركات التكنولوجية، رأيت جماعة الياهو Yahoo! وهم يضعون لافتة جديدة على مكتبهم:

إلى أي حد تشغلك الأفكار الكبرى؟

رفعت يدي عن مقود السيارة ومددت ذراعي أطول من خرطوم الفيل.

- "إلى هذا الحد، يا أخا العاهرة!".

أحب انطلاقتي؛ هذه الثريا، وهذا الحاسوب المحمول وسيارات التويوتا الستّ والعشرين. ولكنني صدقاً، سأملّ منها عاجلاً أو آجلا.

أنا رجل الانطلاقة الأولى، سيدي رئيس الوزراء. في النهاية سأبيع هذه الانطلاقة لبليد - أقصد رجل أعمال - وأبدأ بداية جديدة. وأفكر في العقارات في الخطوة التالية. أنت ترى، أنني رجل يستبصر الغد بينما يرى الآخرون اليوم. العالم كله سيأتي إلى بنغلور في الغد. سر بالسيارة إلى المطار، وسترى، واحسب خلال طريقك عدد البنايات النصف منتهية التي تبنى بالفولاذ والزجاج. انظر إلى أسماء الشركات الأميركية التي تبنيها. وحين يأتي كل هؤلاء الأميركيين إلى هنا، أين تظن أنهم سينامون؟ على الطريق؟

ها!

أينما أجد شقة فارغة، ألقي عليها نظرة، وأتساءل: كم سأجني من الأميركيين منها عام 2010؟ إن يكن للمكان مستقبل ليصبح مسكناً لأميركي، أدفع عربوناً لشرائه في الحال. المستقبل هو للعقار في بنغلور، سيد جياباو. يمكنك أن تلتحق بالقتل إذا رغبت وسأساعدك على ذلك!

بعد ثلاث سنوات في العقارات، أعتقد أنني سأعمل في بيع أي شيء، آخذ المال وأفتح مدرسة - مدرسة باللغة الإنكليزية - للأولاد الفقراء في بنغلور. مدرسة لا يسمح لك فيها بإفساد رأس أي أحد بالقصص عن غاندي؛ لا شيء سوى حقائق الحياة لكل هؤلاء الصغار. مدرسة مليئة بالنمور البيضاء المنطلقة في بنغلور! أقول لك، إننا نضع هذه المدينة تحت سيطرتنا. ربما أصبح رئيساً لبنغلور. كنت حينها سأصلح من حال مساعد مفوض الشرطة فوراً. كنت سأضعه على دراجة، وأجعل آصيف يسحقه بالتويوتا.

كل هذه الأحلام التي أصنعها قد تنهار تماماً.

أعتقد في بعض الأحيان أنه لن يُلقى القبض عليّ. وأعتقد أن قن الدجاج يحتاج إلى أحد مثلي لتحطيمه. وهو يحتاج إلى سادة مثل السيد آشوك الذي لا يستحق، بالرغم من كل أفضاله العديدة، أن يكون سيداً، بل أن يتم قلعه، ويحل محله خدم استثنائيون، مثلي. في مثل

هذه الأوقات أتأمل بحبور إمكانية أن ترصد عائلة السيد آشوك مكافأة بمليون دولار لقتلي، ولن يضيرني ذلك. لقد بدّلتُ الأدوار والمواقف: وأنا الآن أحد أولئك الذين لا يمكن الإمساك بهم في الهند. في مثل هذه اللحظات، أتطلع إلى الثريا، وأرغب بأن أرفع يدي وأصيح، بأعلى صوتي حتى ينتقل صوتي عبر الهواتف في قاعات مراكز الاتصال إلى الناس في أميركا:

لقد فعلتها! لقد حطمت القن!

في أوقات أخرى شخص ما في الشارع يناديني، "بالرام"، وأدير رأسي وأفكر، لقد انتهيت.

أن يتم القبض عليّ هو احتمال دائم. فلا شيء له نهاية في الهند، كما اعتاد السيد آشوك القول. يمكنك أن تهدي الشرطة ما تشاء من المغلّفات البنية والحقائب الحمراء، ولكنهم قد يعصرونك. فلربما يشير إليّ رجل يرتدي البذلة الخاصة ويقول: انتهى وقتك، مونا.

وحتى لو وقعت كل ثرياتي متحطمة على الأرض، وأودعوني السجن، وراح جميع السجناء الآخرين يفعلون بي كل الأمور المشينة، وحتى لو جعلوني أصعد السلالم الخشبية المؤدية إلى المشنقة، فلن أقول إنني ارتكبت خطأً حين قطعت رقبة سيدي في تلك الليلة في دلهي.

سأقول أن يدرك المرء، ولو ليوم، أو ساعة، أو حتى لدقيقة، ماذا يعني ألا يكون خادماً، أمر يستحق ذلك.

أظنني مستعداً ليكون لديَّ أطفال، سيدي رئيس الوزراء.

ها!

المخلص دائماً،

آشوك شارما

النمر الأبيض

من بنغلور

boss@whitetiger-technologydrivers.com

التعريف بالمؤلف: آرافيند أديغا

ولد في مدراس في العام 1974، ونشأ في أستراليا. درس في جامعتي كولومبيا وأوكسفورد. عمل مراسلاً صحفياً في الهند لمجلة تايم. ونُشرت تقاريره الصحفية في الفاينتشال تايمز والإندبندنت والصنداي تايمز. روايته **النمر الأبيض** هي الأولى.

التعريف بالمترجم: سهيل نجم

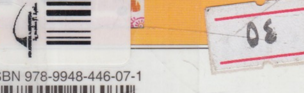
ولد في بغداد عام 1956. درس في جامعة البصرة وجامعة صنعاء. صدرت له ثلاثة دواوين شعرية في بيروت ودمشق وبغداد. كما صدرت له ترجمات عديدة بين الشعر والرواية والنقد، بينها ترجمة أعمال الشاعر تيد هيوز التي صدرت في القاهرة، ورواية "القديس فرانسيس" لنيكوس كازنتزاكيس، ورواية "الإنجيل يرويه المسيح" لساراماغو، في بيروت، ورواية "خرائط" للكاتب الصومالي نور الدين فارح، في ألمانيا، وصدر له في النقد ترجمات لدراسات عن إدوارد سعيد والحداثة، في دمشق وعمان.

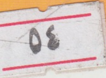
بطل هذه الرواية، بالرام حلوي أو «النمر الأبيض»، خادم وفيلسوف ورجل أعمال وقاتل. خلال دورة سبعة أيام، وتحت ضوء مشتت لثريا غريبة يروي بالرام قصته...

ولد بالرام في قرية تقع في القلب المظلم من الهند، وهو ابن لرجل يعمل في دفع العربات اليدوية، أبعدته عائلته عن المدرسة لتقحمه في عمل المقاهي. وبينما كان يكسّر الفحم، ويمسح الطاولات، كان يرعى حلماً بالهرب من ضفتي النهر- الأم الجانج، حيث تضخّ الأعماق الضبابية رفات مئات الأجيال.

تواتيه الفرصة الكبيرة عندما يستخدمه أحد مُلاّك القرية ليعمل سائقاً لابنه وزوجة ابنه مع كلبيهما البومرانيين الصغيرين طويلي الشعر. ومن خلف مقود سيارة الهوندا سيتي يشاهد بالرام مدينة دلهي للمرة الأولى. وما المدينة إلا وحي. ومن بين الصراصير ومراكز التخابر وأحياء الفقراء والأسواق الكبيرة والازدحامات المرورية التي تشل الحركة يبدأ بالرام تعلّمه من جديد. كان محصوراً بين غريزته أن يكون ابناً مخلصاً وخادماً، وبين رغبته في أن يكون في حال أفضل؛ فيتعلم أخلاقية جديدة في قلب الهند الجديدة. وبينما يقلّب بقية الخدم صفحات مجلة جريمة الأسبوع، يشرع بالرام في دراسة الطريقة التي يمكن للنمر من خلالها أن يهرب من قفصه، إذ من المؤكد أن أي رجل ناجح لا بد له من أن يسفك القليل من الدماء وهو في طريقه إلى القمة.

إن «النمر الأبيض» رواية عن هندين. ورحلة بالرام من ظلام حياته القروية إلى ضوء نجاح رجل الأعمال هي قطعاً أمر لا أخلاقي، وغير محترم وهي في الوقت نفسه محبّبة ولا تُنسى.






ISBN 978-9948-446-07-1
9 789948 446071


THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.